رواية

عمرو المنوفي

عزيف

إيموك .. بلزاموك .. تريهام .. سوجاش

العزيف: هو صوت الجن.

المعجم الزائد

أحداث عادية

هناك شيء ما شرير يحاك في الظلام.. تحت سقف هذا المنزل.. وبالذات بداخل هذه الغرفة المغلقة.. فلو لم يكن توقعي صحيحًا.. فلماذا ترتجف أطرافي بهذه الطريقة ولماذا يدق قلبي بهذا العنف ؟!!.

- أصوات ليلية -

"ابتعد عن أصدقاء السوء".

كانت هذه هي نصيحة أمي لي قبل أن تلقى مصرعها مع أبي في حادث سيارة شنيع، ظل حديث الصحف لعدة أيام من فرط بشاعته، حيث سقطت السيارة من فوق الكوبري لتسحق سيارة ثانية أسفلها، لتحترق السيارتان ويتفحم من بداخلهما.

وبشاعة الحادث أتت من معرفة طبيعة ركاب السيارة الثانية، والتي كانت تحتوي على خمسة أطفال ووالدهم ووالدتهم.

لقد مرح الموت كثيرًا هذه الليلة، وحملت أنا ذنب الحادث بداخل قلبي إلى الأبد. خاصة وأنه وقع في ليلة خاصة جدًا، ويتكرر الاحتفال بها كل عام، وهي الليلة التي تسبق عيد الفطر مباشرة، أي اليوم الأخير في شهر رمضان المعظم.

العالم كله يستعد في هذه الليلة لبهجة العيد التي فاح عبيرها في الأفق، وتدفق ضياؤها في حيوية على العالمين، وأنا أجتر ذكرياتي الحزينة، وحيدًا.. تعيسًا.

أحيا إلى الأبد بلا عيد.

يقولون إن الموتى يشعرون بدنو أجلهم، وهناك من يدّعي بأن المقبل على الموت، يكون قد توفاه الله في حقيقة الأمر قبل أربعين ليلة من صعود روحه إلى السماء، والدليل على ذلك هو التغيرات الكثيرة التي تصيب شخصيته، يصاحبها ذلك التبدل في نشاطاته اليومية والتي لا يلحظها إلا المقربون منه.

من يرى المقبل على الموت يؤمن بأنه هائم في عالم آخر، عالم يختلف عن مقاييسنا وتوقعاتنا، إنه معنا وليس معنا، إن جسده هنا لكن روحه هناك وراء الغيم.

وهذا الاعتقاد سائد في معظم الثقافات البشرية، ويختلف الأمر فقط في المدة التي ساد الاعتقاد بوفاتهم قبلها، والتي تتراوح ما بين أربعين يومًا ونصف يوم كما يعتقد النوبيون، مما يجعلنا نتساءل عن حقيقة هذا الاعتقاد.. وفي النهاية كلها تخمينات قد تصيب وقد تخطئ، فالروح من أمر الله عز وجل.

ما لا أستطيع تفسيره هنا هو إصرار أبي الشديد على بقائي في ذلك اليوم الأسود بصحبة جيراننا وعدم اصطحابه لي معه، إن لفعلته الغريبة هذه مغزى ودلالة دون شك، بل دليلًا لا يدحض على كونه شعر بالسوء القادم، فلم يجازف بحملي معه هذه المرة كما اعتاد طوال السنوات السابقة، فالأمر يخصني أكثر مما يخصهم، فما سيبتاعونه من المدينة هي ملابسي لا ملابسهم.

ربما هي شفافية المحتضرين..!!

أو قلوب الآباء التي تمثل أجهزة إنذار مبكر ضد الأخطار التي قد تصيب فلذات أكبادهم،أو أن أجلي لم يحن بعد، وكلها أسباب تضافرت كي أبقى على قيد الحياة، بعد أن فقدت شمس وقمر حياتي – أبي وأمي – لأعيش بدونهم في ليل الحياة المدلهم.

المخيف في الأمر أن الأحداث في هذه الليلة دارت بوتيرة سريعة جدًا، وكأن أبي كان يعلم بأنه على موعد حار مع الموت، فقرر أن يتعجل كي يلحق بموعده ولا يخلفه.

وما يحز في قلبي حقيقة هو حماسته المفرطة للأمر، ولهفته المضاعفة لإسعادي، إن الأطفال يشعرون جيدًا بالحنان والاهتمام، بوصلة قلوبهم تفرق بين الحب الحقيقي والزائف.

وكان اهتمام أبي وحبه لي حقيقيين، لقد أدركت هذا حينها وأفتقده الآن.

كم كان يثقل كاهله ذنب غيابه المستمر في العمل وقلة رعايته المباشرة لي، وبطريقة ما فإنه اعتبر هذا الغياب إهمالاً، لذا فهو مصر طوال الوقت على تعويضي وهذا ما دفعه وهو القادم من عمله المرهق في منجم السكري، إلى الخروج من المنزل مرة أخرى فور وصوله من السفر وقبل حتى أن يستحم ليزيل غبار وعرق هذا السفر الطويل المجهد، لشراء ملابس العيد لطفله

الوحيد المدلل، الذي هو أنا. والذي ينتظر في لهفة وشغف تلك اللحظات الأسطورية التي يتم فيها ابتياع ملابس العيد.

إن مرحلة شراء الملابس الجديدة هي نصف بهجة العيد، والباقي يتوزع بين مصروف العيد وكعك العيد والتنزه، وتلك الطقوس أو التفاصيل هي ما تجعل العيد على أرض مصر مختلفًا ومميزًا عن العيد في كل بقاع العالم.. إن العيد في مصر كائن حي.. طفل شقي.. لا يعرف إلا رسم البسمة على الوجوه التي أرهقها السعي طوال العام.. طفل جميل يحافظ على مواعيد تعاطي البهجة.. ويلامس بشقاوته القلوب.

معظم الآباء نادرًا ما يهتمون بمثل هذه التفاصيل البسيطة، ويلقون بها على عاتق الأم، خاصة مع ظروف العمل والسفر المستمر. إلا أن أبي كان يعتبره أمرًا مقدسًا ولا بديل عن أن يؤدي مراسمه بنفسه، حتى إنه كان يداعب أمي عندما يرى نظرتها المشفقة قائلا:

– إن كل التعب والإرهاق، يزولان عندما أرى ملامح السعادة على وجه (أمجد)..

وأمجد هو اسمي بالطبع كما توقعتم فلا يوجد طفل آخر في القصة حتى هذه اللحظة.

إنه تجسيد رائع لمعنى الأبوة، خاصة وأن الآباء لا يظهرون الحنان لأبنائهم بسهولة، فالعرف أقر بأن يكون الأب عبوسًا وحازمًا، وقاسيًا في أغلب الأوقات..

وكعادة كل شيء جميل، انتهى هذا الفصل المميز من حياتي، بحادث عابر وكخبر غير مشوق في صفحة الحوادث، حادث يتكرر دوريًا أسرع من طباعة الأعداد الجديدة من الصحف، حادث ينساه الصغار، ومعه ينسون آباءهم وربما تلك الفترة الزمنية بالكامل، لتصبح كحلم باهت، لا تفسير له.

ولكني لم أنسَ.. فوقتها كنت في العاشرة، وهو سن كبير إلى حد ما؛ تكون الذاكرة تعمل فيه بكامل طاقتها، لذلك ظل الحادث يجثم على صدري، يؤرقني طويلا ويثير الشجن في قلبي.

لقد اعتبرت نفسي مسؤلاً عما حدث لسبب أو لآخر.. وبرغم نضجي وعلمي بأن الحادث وقع لأن أجلهم قد حان إلا أني لم أسامح نفسي قط، وهذا ما جعلني متوترًا قصير الفتيل، أتشاجر لأتفه الأسباب، ولا أكف عن إيذاء نفسي ومن حولي.

والآن مر على هذا الحادث الأليم ما يقرب من خمسة عشر عامًا. وهي فترة طويلة جدًا، وكفيلة حتى لشخص قوي الذاكرة مثلي، لينسى الأمر كله أو على الأقل ليتجاهله ويمضي في حياته..

ولكن الأمور لم تكن بهذه البساطة أبدًا. لقد كان وقع الأمر على روحي كاسحًا، خاصة مع انتقالي للسكن مع جدي الكهل في منزله البعيد.

جدي الذي لم أعرف بوجوده على قيد الحياة إلا بعد مصرع والديّ، لغز جديد ومخيف يضاف إلى سجلات عمري البيضاء، وينافي تلك الصورة الملائكية التي تملأ روحي عن الآباء.. لا يمكن لأب أن يهجر ابنه إلا في كارثة كونية أو عندما يختطفه طائر الموت ..فلماذا هجر جدي ولده أم ترى هل حدث العكس ؟!.

لم أجد وقتها إجابة.. فتركت الأمر للأيام.. فالأيام وحدها كفيلة بإزالة الحجب عن هذا السر.

فقدان الأصدقاء أصابني بتوتر نفسي شديد اختلط بإحباط واكتئاب شديدين.. إن كل هذه التغيرات لا يمكن أن يستوعبها عقل طفل بهذه البساطة، لقد صنع الانتقال شرخًا واضحًا بروحي. والأكثر وطأة ما تحتويه حياة جدي الشيخ ياسين من أسرار وغموض. جدي الذي لم أستطع أن أناديه جدي بقلب مستريح، وظل دائمًا الشيخ ياسين.

****

في الليلة الأولى التي قضيتها في منزل الشيخ ياسين لم أرَ النوم لحظة واحدة. رائحة الفراش المكتومة والمختلطة برائحة عرق من سبقني كانت لا تطاق، فكرة أن هناك من سبقني للفراش كانت مروعة.. خاصة وأني طفل

وحيد لأب وأم ميسوري الحال جعلا طفلهما هو قبلة أحلامهما فمنحاه خصوصية ومميزات وقواعد صارمة عن استخدام أشياء الآخرين، أو استخدام الآخرين لأشيائه.

لم تكن الشراشف التي حال لونها تحمل تلك الرائحة العطرية التي تميز شراشف أمي ولا نعومتها المعتادة، لم تكن طرية وودود مثلها، بل يابسة ومتجلدة وتبعث على الاشمئزاز.

كانت بداية غير مشوقة أبدًا.. الهواء نفسه كان ثقيلا مكتومًا وكأنه هرم ومرض مع الشيخ ياسين، فضاق صدري منه ومن كل شيء.. حتى إني فكرت في الهرب.. ولكني لم أعرف إلى أين!! لو تجاهلت صدمة اللقاء الأولى مع الشيخ ياسين.. فلن أستطع أن أتجاهل تلك الأصوات أو أنكر سماعها.

أصوات مخيفة صاخبة غير واضحة أو مفهومة ظلت تصدر طوال الليل من غرفة الشيخ ياسين التي تقع في آخر الرواق، لتبعث مزيدًا من القشعريرة في جسدي وأطرافي، والتي كان صداها ينتقل إلى أذني في تعبيرات مبهمة متألمة، مختلطة بصوت أشبه بثغاء الجديان، مع حديث مبهم بلغة غير مفهومة.

يومها فسرت الأمر عن غير اقتناع ودموعي تغرق وجهي، بكون الشيخ ياسين يشاهد فيلمًا أجنبيًا قديمًا على شاشة التلفزيون، على الرغم من أني

في وقت لاحق لم أعثر على هذا التلفزيون المزعوم في أي مكان من المنزل.

حاولت أكثر من مرة أن أقترب من غرفة الشيخ ياسين لأتقصى الأمر، فالغرف المغلقة كفيلة بإشعال فضول ألف قط، و ظلت الغرفة تطاردني في أحلامي وتثير حفيظتي حتى تحولت لقط فضولي أخر .

فهل قتل الفضول القط ؟!

نعم لقد قتل قططًا كثيرة وبشرًا أكثر.

الشيء العجيب الذي لم أنتبه إليه وقتها هو أنني كلما اقتربت من الرواق شبه المظلم والذي تقع الغرفة في نهايته، كنت أفقد اهتمامي بشكل غريب ويشغلني طارئ ما عن مواصلة فضولي، وأنسى دائمًا سبب قدومي إلى هذا المكان من الأساس. وكأن هناك قوة ما تحرص على عدم اقترابي من الغرفة بأي حال من الأحوال.

وطوال فترة وجودي بالمنزل لم أستطع دخول غرفة الشيخ ياسين لأتأكد من وجود جهاز تلفزيون بالداخل، فهي تظل مغلقة طوال الوقت، سواء أكان داخلها الشيخ ياسين أو خارجها.

و هذا الأمر نبهني إلى كارثة أخرى ، وهي عدم وجود تلفزيون آخر في المنزل، هذا لو كان هو بالفعل مصدر تلك الأصوات المرعبة التي لا تنقطع طوال الليل.

الأمر أكثر من مفزع.. فلو ظل التلفزيون في الغرفة المغلقة، سيتحول المنزل بالنسبة لي إلى سجن حقيقي، وسيصبح المكان جزيرة معزولة، وأنا قد أجن ببساطة.

إن التلفزيون لصبي في مثل عمري، يعني أكثر بكثير من مجرد صندوق ذي شاشة فضية يعرض الصور، إنه نافذتي على العالم، أبطالي الكرتونيون هناك، أحلامي تعرض مرتين في اليوم، لا يوجد قضبان على نافذة روحي، فأنا الآن في الفضاء وبعض لحظات في أعماق الأرض، وربما أقضي الليلة بصحبة بطل إسفنجي – فخور بملابسه الداخلية – في قاع البحر.

إنه المنفى الحقيقي.

حُنقي من عدم وجود التلفزيون، شغلني عن أمر هذه الأصوات الغامضة المخيفة في هذه الليلة السوداء، والتي خفتت تلقائيًا قرب الفجر حتى تلاشت تمامًا، ولكني لم أطمئن لها أبدًا، هناك شيء ما شرير يحاك في الظلام.. تحت سقف هذا المنزل.. وبالذات بداخل هذه الغرفة المغلقة..فلو لم يكن توقعي صحيحًا.. فلماذا ترتجف أطرافي بهذه الطريقة ولماذا يدق قلبي بهذا العنف؟.

كما أخبرتكم تلاشت الأصوات قرب الفجر، ولكنها تركت في فضاء الغرفة ضيفًا ثقيل الظل.. وهو الخوف.

لاحقًا لم تعد هذه الأصوات تثير قلقي أو إزعاجي.. إنه الاعتياد الذي يقتل رهبة الأشياء، أو هو شعور ما تسلل إلى روحي بطريقة غامضة وترسخ هناك فلم تعد الأصوات مخيفة.

هل تشعرون مثلي بأن الأمر مريب ؟!

الخلاصة أنها كانت ليلة سوداء لم يزرني فيها النوم قط، ولم أشعر فيها بالأمان لحظة واحدة. لذلك تركت المصباح مضاءً طوال الليل، وهذا أثار حنق الشيخ ياسين ضدي في الصباح، ويومها لم أفهم لماذا ؟!

وهذا جعلني أنظر للأيام القادمة على أنها ستكون أسود أيام في حياتي، ولم يخب ظني كثيرًا.

هل بكيت ؟!

دون شك، إنني وحيد في بيت الأشباح هذا، وأنظر للمستقبل بمنظار أسود لعين.

إنني وحيد إلى الأبد، لا أب ولا أم، ولا إخوة، والأصدقاء تركتهم خلفي، وجدي مخيف جدًا.

فهل ستشرق الشمس على روحي من جديد ؟!

من يدري ؟!!.

كانت تلك هي الليلة الأولى الذي أستيقظ فيها وثيابي مبللة.

ماذا يطلقون عليه ؟!

نعم.. تبول لا إرادي.

- عايدة-

كان القدر رحيمًا ورئيفًا بسني وضعفي، فلم يستمر جحيم الشيخ ياسين إلا فترة قصيرة، وإن كانت مرت علي كالقرون، ما بين الاحتجاز في المنزل المغلق، وتلك الأصوات المريعة التي تثير القشعريرة في جسدي كلما اخترقت سمعي، والطعام السيئ، ولكنها رغم كل مساوئها انتهت كما ينتهي الطغاة والوباء وثورة الطبيعة، فلم أعد وحيدًا بصحبة الشيخ ياسين في هذا المنزل المخيف. فبعد عدة أيام تغير الأمر قليلًا، خاصة عندما أقبلت (عايدة) بردائها الأسود ووجهها الصبوح إلى المنزل.

وعايدة سيدة ريفية في العقد الرابع من عمرها، تشع النظافة من كل ملمح من ملامحها، وقد استقدمها جدي خصيصاً لتعنى بي وبشئون المنزل التي تضاعفت بوجودي.

وجودها نفسه أحيا المكان وبعث فيه الروح من قلب الرماد. وبعد لمستها السحرية ومجهود مضني، أصبحت غرفتي أكثر قابلية للسكن، بعد أن كانت أقرب إلى المخزن منها إلى غرفة. وخاصة بعد أن أخرجت منها أطنان الغبار التي تراكمت عبر الأعوام، وبيوت العنكبوت التي كانت تشبه الستائر من كثافتها، وغمرت الأرضيات بذلك السائل النفاذ الرائحة المسمى (الفنيك).

حقيقة أن رائحة الغرفة أصبحت كرائحة المستشفيات، ولكنها لم تعد تجثم على روحي.

طعام عايدة لم يكن بجودة طعام أمي رحمها الله ولكنه مقبول إلى حد كبير، خاصة مع هذا البيض المقلي الهلامي الذي قدمه لي جدي على العشاء أمس، والذي لم تقبله معدتي أبدًا، فأخذت تعاقبني عليه بآلام شديدة وإسهال مضنٍ.

لا أعتقد أن هناك دجاجة في الكون من الممكن أن تبيض بيضة بمثل هذا السوء، إلا لو كانت ضلعًا في مؤامرة كونية تحاك ضدي.. العيب إذن في طهو الشيخ يا سين.

والجميل أيضًا أنني لم أرَ الشيخ ياسين يدخل المطبخ قط ناهيك عن طهو الطعام وكأنه يعد كل شيء في غرفته، أو يعدها له شخص ما لا أعرف بوجوده في المنزل.

الخلاصة أن قدوم عايدة إلى المنزل كان رحمة من رحمات الله التي خصني بها، خاصة وأنها دمثة الأخلاق حلوة المعشر، وحبها لي لا ادعاء فيه.

عامة لقد استطعت في فترة وجيزة التأقلم جيدًا على حياتي الجديدة، وإن بقت بعض المنغصات التي أثارت ضيقي – وليس خوفي – لفترة طويلة، منها هذه الأصوات التي لا تنقطع طوال الليل والتي تخرج من غرفة جدي المغلقة، والتي زادت في الفترة الأخيرة إلى حد مثير للأعصاب واختلطت

بأصوات أخرى مروعة هي مزيج من خوار وأنين وصرخات متألمة، وكأن بداخل غرفة جدي قبو للتعذيب.

عايدة كانت تتعمد عدم الحديث عن الغرفة وكأنها غير موجودة بالمنزل، آخر حدود لها كانت عتبتها عندما تضع الطعام للشيخ ياسين ثم تنصرف، الشيخ ياسين الذي لم يعد يحرص على تناول طعامه منذ عدة أيام.

شيء آخر كان يثير ضيقي إلى أقصى مدى، وهو حرص الشيخ ياسين الشديد في الإنفاق والذي اكتشفت أنه ليس حرصًا أبدًا، إنه البخل الخام، عم دهب آخر ولكن أكبر سنًا وأكثر تجهمًا.والمطلوب مني أنا الفتى المدلل أن أخضع لقواعده، وأبتلعها في صمت.

ولم يكن هذا ديدني.. الفتى المدلل الذي اصطحبته معي إلى المنزل تلاشى من الوجود.. الآن هناك أمجد الذي لا يرضى بسياسة الأمر الواقع. وتلك المعركة التي خضتها من أجل الحصول على التلفزيون، خير دليل على ذلك. إن رأسي كالصخر وعزيمتي لا تلين بسهولة. لقد أرهقني الإلحاح كما أرهق الشيخ ياسين، وفي النهاية ربحت المعركة وحصلت على التلفزيون، ولكن روحي تشبعت بضيق لا نهاية له. ومثل هذه الأمور تمثل تحديًا لمن هم في مثل عمري، وتنشط تلك البؤرة الشريرة في أعماقهم.

لذلك صار تهشم الأطباق والأكواب حدثًا يوميًا لا ينقطع، وفساد الأطعمة خارج الثلاجة بعد نسيانها في أماكن غير متوقعة نشاطًا دوريًا، هذا غير

الملاعق والسكاكين المفقودة، وفرد الجوارب التي لا تظهر أبدًا، وأجزاء الكتب التي كان يحرص عليها جدي بشدة من المكتبة الموجودة في غرفة الاستقبال. وهذه الأنشطة تزداد كثافة في تلك الأيام التي تغادرنا فيها عايدة لزيارة أمها المريضة في البلدة المجاورة، أو تذهب فيها لعميلها الآخر، فعايدة غير منقطعة لنا بالعمل، إنها تحتاج للمال لسبب ملح لا أعرفه، وبالتالي فهي تعمل طوال الوقت كماكينة أبدية لا تتوقف.

كنت أعامل الشيخ ياسين كشيطان مريد، وصورة فريد شوقي في دور (عوض) في مسلسل (البخيل وأنا) تطاردني بإصرار، والسؤال الكوني يدور في رأسي : تُرى أين يخفي الشيخ ياسين صندوق النقود المكتظ، تلك التي جمعها عبر سنوات عمره السبعين ؟!

حاول الشيخ ياسين أن يردعني بنصائحه دون فائدة، وعندما كان يفشل، كان يثور علي، ويعنفني، وربما ذات ليلة يتركني دون عشاء، ولكن الأمر المؤكد أن حدة العقاب لم يرتفع سقفها لأكثر من هذا، فلم تمتد يده لي بالأذى ولو مرة واحدة. فقد كنت أذكره بولده الراحل عندما كنت في مثل سنه، ولأنه لا يريد أن يكون السبب في فقدي، كما كان السبب في فقد ولده الراحل كما كان يردد، وهو شيء لم أستطع تفسيره وقتها.

لقد مات والديّ في حادث سيارة، فكيف يكون لديه يد في ذلك ؟!

وهُم.. التي يرددها طوال الوقت، تؤكد بأن أمراض الخرف والشيخوخة قد بدأت تنال منه.

فهُم.. الذين قتلوا والدي، لا يسكنون إلا في رأسه فقط.

والتفسير البسيط، هو شعوره بالذنب لأنه هجر والدي منذ فترة طويلة، أو أي سبب آخر.

حقيقة كنت أشفق عليه لكبر سنه بعد كل مقلب كنت أقوم به ضده، ولكني لم أتوقف عن أفعالي لحظة واحدة، فشيطان الأطفال ضعيف الذاكرة كما تعلمون، والدليل على ذلك أن ضحكاتي كانت ترتفع أكثر وأكثر مع المقلب التالي. إن تلك البذرة المسماة الضمير لم تكن قد كشفت بعد عن براعم في أرض روحي الخصبة، لذلك صار الأمر كله لعبة مسلية، خاصة وأن العقاب هين على الدوام.

فثورة جدي باردة، والثورات الباردة لا تحقق أهدافها أبدًا.

الحياة مع جدي صارت محتملة إلى حد ما خاصة بعد ظهور عايدة في حياتنا على الرغم من كونها لا تقضي معنا في المنزل أكثر من يومين أو ثلاثة أسبوعيًا. إن وجودها صار يعني الحياة ذاتها. ولكن هل تبقى الحياة على وتيرتها الحالية ؟!.

احتاجت إجابة هذا السؤال عدة أسابيع كي تتضح، وكانت الإجابة بالنفي بالطبع فلن تمضي الحياة دون منغصات، هذا ليس ديدنها، ولم تجرِ الأمور كما تمنيت، وكما توقعتم.

فما أثار حنقي وغضبي ونغص عليّ لياليّ في الأيام التالية، هو ابتعاد أبناء الجيران الذين هم في مثل سني أو أكبر قليلاً عن صحبتي، وتجنبهم اللعب معي لسبب غير مفهوم، والكارثة أني عرفت أن الأمر بتحريض ذويهم. وكأني حامل لوباء ما أو أجلب خلفي الطاعون.

وما أكد لي شكوكي، هي تلك الحادثة التي سأقصها عليكم الآن.

فذات يوم ربيعي يغمره النسيم، نسى أحد الأطفال تعليمات أبويه الصارمة، واندمجنا معًا بلعب (السيجا) والتي رسم مربعاتها شخص ما في يوم سابق. وما أن مس بقدمه خط أحد المربعات عن طريق السهو عندما كان يحجل على قدم واحدة مهشمًا إحدى قوانين اللعبة، حتى ثرت عليه واشتبكنا معًا بالأيدي، لأنه كان ينكر الأمر ويكذبني.

ولأنه كان أقوى مني فقد أصابتني قبضته القوية في أنفي، فسالت بعض قطرات الدم، وبسرعة البرق وشت به أخته الصغيرة لأبيه، فما كان من الأب الذي ظهر فجأة وكأنما انشقت الأرض عنه ، أن قام بعقاب فوري لابنه، فانهال عليه صفعًا وركلًا وسبًا وهو يردد دون كلل :

– ألم أحذرك من اللعب معه، هل تريد أن يؤذي الشيخ ياسين أبويك أو أخوتك. إياك أن تلعب مع سليل الشياطين هذا وحتى يحتويك القبر. وليؤكد على جدية الأمر ظل يصفعه حتى غاب عن بصري.

يومها أسقط في يدي. وظللت حائرًا طوال اليوم، وفي النهاية قررت أن أخبر الشيخ ياسين بما دار ليكشف لي حقيقة ما يحدث.

الغريب أنني عندما أخبرته صمت ولم يرد، وإن ظهر ضيق كاسح في عينيه، وعندما مست يده رأسي فقدت كل اهتمامي بالحادث، كأن لم يكن. ولحظتها شعرت براحة هائلة، وزالت كل المشاعر السيئة من داخلي، ولا أعرف حقيقة كيف أن الشيخ ياسين لم يعد مخيفًا كالسابق ؟!.

مضت الأيام في طريقها المعتاد، وعشش طائر الملل فوق أغصانها، وبدا وكأنها ستظل على رتابتها إلى الأبد، حتى بدأ العام الدراسي ومعه بزغت شمس جديدة، وقدم لي جدي أوراق اعتمادي في المدرسة الجديدة، وجاء اليوم الذي سأذهب فيه إلى المدرسة، وكانت نصيحته الأثيرة : "ابتعد عن أصدقاء السوء".

إنها ليست المرة الأولى التي أستمع فيها لهذه النصيحة، ولكن لا بأس لأذهب أولاً إلى المدرسة، وبعدها لنناقش أمر هذا الوباء المسمى أصدقاء السوء.

كان جدي حريصًا على أن تكون المدرسة قريبة من المنزل، حتى لا يضطر إلى إنفاق نقوده على الانتقال إليها ذهابًا وإيابًا، لذا فإنه اضطر للاستعانة بأحد أصدقائه القدامى كما ادّعى، والذي تصادف كونه زوج مديرة المدرسة، ليلحقني بها.

لا أعرف كيف أقنعه بهذه البساطة على إتمام التحاقي بالمدرسة،ولكني لمحت ذلك الشخص يرتجف وهو يتراجع بظهره أمام الشيخ ياسين وكل ذعر الدنيا يطل من عينيه.. العجيب أن الجو لم يكن باردًا لهذه الدرجة.

- سحر أسود-

وبرغم أن المدرسة لم تكن تبعد عن المنزل إلا مسافة كيلو واحد إلا أني جعلت الأمر بالنسبة لجدي كالجحيم، فلم أتوقف لحظة عن الشكوى، فالشمس حارقة.. المجاري الطافحة.. الغبار يجثم على صدري.. ساقاي تؤلماني لأن المسافة طويلة على من هم في مثل سني.

ولكن جدي كان قد احتاط لكل هذه المنغصات فلم أستطع هزيمته في هذه النقطة، فالأمر كله لم يكلفه إلا جنيهًا واحدًا لإبطال حجتي هذه، فقط عندما قام بملأ إطارات دراجته القديمة بالهواء، ليقوم بتوصيلي بها يوميًا إلى المدرسة.

لا يخفى عليكم بالطبع تلك الحوادث العرضية التي ظلت تقع للدراجة، كثقب الإطارات، أو خلوها المفاجئ من الهواء، أو اختفائها كليًا، ولكنه كان دومًا مستعدًا، لذا باءت كل جهودي للتخلف عن المدرسة بالفشل الذريع، وإن نجحت إلى حد ما في إثارة غيظه.

في النهاية انتظمت في المدرسة، بل وأصبحت أقطع الطريق وحدي إليها دون معاونة جدي، فقد انقلب السحر على الساحر، فبدلاً من أن أثير ضيقه، أصبح هو يحد من حريتي، لذلك قررت أن أتخلى عن هذا الجزء من اللعبة، لتدور الدائرة، وتمضي الأيام.

الغريب في الحادثة السابقة، أن جدي كان يقود الدراجة بنفسه، وكأنه لا تأثير للزمن على مفاصله وعظامه، وكأنه شاب في العشرين من عمره، لم يتعب ولم يلهث ولم يظهر ضيقًا وكأن زحف السنوات يختلف معه عن غيره.

إنه يمتلك قوة غريبة.. والمثير للغيظ أن هذا لم يثر ريبتي وقتها.

****

مرت سبع سنوات كاملة، شاب فيها ما تبقى من شعر جدي الأسود، ربما هذا منحه مظهرًا وقورًا أكثر، ولكنه أظهر على وجهه آثار زحف الزمن الذي لا يرحم ووطأته، وكأن قوته السابقة كانت مؤقتة وتلاشت مع الوقت. بل وصار خلالها أقل تحكمًا في أعصابه، وصار يثور لأتفه الأسباب ويعنف عايدة طوال الوقت وبلا سبب حقيقي.

كما زادت تلك الفترات التي كانت تلك الأصوات تخرج خلالها من غرفته مما حطم أعصابي لفترة طويلة، وكانت مقدمة لتبدل مخيف في شخصيتي فصرت أنا أيضًا أكثر عنفًا ونزقًا. وكأني أخرج انفعالي في ممارساتي العنيفة مع الغرباء.

ما عرفته عن الشيخ ياسين فيما بعد، أطار النوم من عيني.

فأنا الذي كنت أظن أن الناس ينادونه بالشيخ (ياسين) لكبر سنه وتدينه، اتضح لي خطأ تفكيري وحماقتي.

فغرفته المغلقة لم تكن تحتوي على صندوق النقود كما اعتقدت، بل تحتوي على كتبه وأدواته التي كان يمارس بها عمله الملعون، والذي منحه لقب الشيخ.

فجدي كان أحد هؤلاء المشعوذين الملعونين الذين كانوا يقومون بممارسة أعمال السحر، والأحجبة، وكل هذه الأعمال المخيفة الغامضة التي تقوم على إيذاء الناس بالاستعانة بالجن والشياطين.

إنه يمارس باختصار السحر الأسود.

لذلك لم يكن يسمح لي بالاطلاع على ما يقوم به، وأخفى كل شيء عني. وخوف الناس منه جعلني في معزل عن معرفة الحقيقة لفترة طويلة ولكن ليس إلى الأبد.

كنت فقط في حاجة إلى طرف الخيط، ومنحه لي صديقي نجيب في أحد حوارتنا، وبعدها تكشف لي المجهول، فعرفت أيضًا أن له شريكًا آخر هو الشيخ (تهامي الحو)، وهو عجوز قد تخطى العقد الثامن من العمر ويقترب من التاسع بخطوات حثيثة، و يعتبره الشيخ ياسين معلمه وأستاذه وربما هو الشخص الوحيد الذي يثير اسمه الرجفة في قلب الشيخ ياسين.

وفي منزل الشيخ (تهامي الحو) يقومان بكل النشاطات المريعة التي يقوم بها كل مشعوذ يحترم نفسه وعمله، من زار واستحضار أرواح، وفك السحر،

وربط الأزواج، والطلاسم المختلفة والاتصال بالجن والشياطين وكل هذه الأشياء التي جعلت رب العالمين يلعنهم في كل كتاب.

إنهم من أحط أنواع السحرة وأكثرهم حقارة.

ولو علمت ما علمته هذا من البداية لما جرؤت يومًا على فعل واحد من كل ما كنت أقوم به مع الشيخ ياسين.

الغريب في الأمر أنه كان يعامل الناس بطريقة ويعاملني أنا بطريقة مختلفة، إن عينيه تحملان لي من الشفقة الكثير وربما من الحب أيضًا، لم أعهده قاسي القلب، بل كان حنونًا ولم تمتد يده بالسوء لي في يوم من الأيام، وكنت أبرر تصرفاته مع عايدة باعتبارات السن لا أكثر.

حقيقة لا أعرف كيف يحتوي صدره على قلب مماثل، وهو لا يكف عن إيذاء الناس مقابل حفنة من المال.

أذكر أيضًا أنه عندما كنت أقوم من نومي مفزوعًا إثر حلم سيء أو كابوس، كان يحضر لغرفتي على الفور، ومهما كان الوقت متأخرًا فإنه يصر على إطلاق البخور نفاذ الرائحة في الغرفة، برغم أن الدخان الناتج عن حرق هذا البخور كان يثير ضيقي، إلا أنه كان يستمر فيما بدأه. ومع البخور يظل يردد كلمات وهمهمات غير مفهومة، ويخبرني أني غير محصن، وأن الشر يسكن في كل شيء، والأذى متوقع، لذا فالبخور يطرد كل ما هو شرير من الغرفة، فليست كل الأحلام طبيعية.

كنت أعتقد أنها خرافات عجائز، ولكنها لم تكن كذلك.. للأسف.

ولأني لم أكن أفهم المغزى من حديثه طوال الوقت، فلم أكن أبالي. وفي هذا التوقيت بالذات الذي هاجمتني فيه الكوابيس، كنت واقعًا تحت تأثير نوع آخر من السحر، بل هو أقوى أنواع السحر وأشدها طرًا، بل وكنت بكياني كله أسكن في عالم آخر، في كون تتلاقى فيه الطيور الدُرية على شواطئ تلك البحيرات السابحة في العطر، المفعمة بالألوان، لتتبادل كؤوس العشق.

لقد وقعت في الحب. لقد سحرتني سماح. ولم يعد يشغلني شيء في الوجود عنها.

و سماح كانت زميلتي في الدراسة، إنها أكثر الفتيات اللائي رأيتهن في حياتي جاذبية وسحرًا وأنوثة. إنها الأنثى الكاملة، تلك التي تمنحك نظرة من عينيها الاكتفاء، وتشعر بالرضى لمجرد وجودها بجوارك، إنها الكمال الذي لم يخلق لبشر ، والحلم الذي لا يستطيع الكون احتواءه، إنها هي.. سماح.

كنت أذهب للمدرسة من أجلها، وأتمنى في كل لحظة لو صرت تلك الحقيبة الصغيرة التي تضمها دوما لصدرها. ولكن الأحلام لا تتحقق بسهولة. فبرغم كون المدرسة مشتركة، لم يجمعنا فصل واحد، فالإناث كانوا

في فصول منفصلة، واللقاءات بيننا كانت تتم على حياء، وعلى الدرج، ودون حديث.

كانت متحفظة جدًا، والمرة الأولى التي حاولت أن أفتح معها حوارًا جادًا بعد أن هزمت خوفي ورهبتي، تركتني وانصرفت، وكأني كائن شفاف لا وجود له، أو أن حديثي يتم بذبذبة صوتية لا تصل إلى أذنيها.

حاولت معها كثيرًا ، ولكنها كانت تواجهني بنفس ردة الفعل، لا انفعال من أي نوع، لا ضيق لا نفور، لا إعجاب، لدرجة أن عينيها كان تتجاوزني، وكأنها لا تراني، وهذا حطم أعصابي وكاد يصيبني بالجنون.

إن الصرصور سيأخذ منها اهتمامًا ورد فعل أكثر حيوية مما يحدث معي الآن، إن هذه الطريقة تسحقني.

إنها حولي في كل مكان. وهذا يمزقني !!

لقد فكرت ذات مرة أنها تتعمد اعتراض طريقي، ولكن كيف يصدق هذا مع ردود أفعالها التي تثير الجنون ؟!

وعندما صارحت زياد صديقي، كان رده عجيبًا :

– لماذا لا تصنع لها عملًا ؟! من يكون جده الشيخ ياسين لا يقف هكذا ببلاهة أمام فتاة ، ثم من هي سماح هذه لماذا لم أرها من قبل ؟!

هذه هي النقطة التي كانت تقودني صوب الجنون بجدارة، فصديقي المقرب زياد والذي لم يترك فتاة طلعت عليها الشمس إلا وتحرش بها، لا يعرف من هي سماح !!

وعندما وصفتها له، لا هو ولا أي من أفراد شلتي الكبيرة يذكر أنه رآها أو اصطدم بها.

لا أحد رآها سواي، وكأنها لا تظهر إلا لي وحدي، أو تنبثق من العدم وتعود إليه. يومها قبض على ذراعي، وهو ينظر نحوي في غموض وقال :

– إما أنك واهم، أو أن قدرات أخيك زياد تضعف، وأن زحف العمر عليه قد أصاب عينيه بالعطب.

ولدرء تلك الاتهامات والنقائص عن نفسه، قرر أن يجري بحثًا خاصًا وبطريقته، وكنت آمل أن يعود بالمزيد من المعلومات عنها، ولكنه في مساء اليوم التالي، عاد كاسف البال، حتى خفي حنين لم يحضرهما معه، وبنفس النظرة السابقة رمقني وقال :

– إما أنك واهم، أو أن قربك من جدك أصابك بلوثة حقيقية.

لم أنصت لكلامه، بل انشغل عقلي بجملة قديمة، قالها زياد في حوار سابق :

– لماذا لا تصنع لها عملًا ؟! من يكون جده الشيخ ياسين لا يقف هكذا ببلاهة أمام فتاة !!.

فكرة العمل نفسها، لم ترق لي.. كانت أكبر من تخيلي واستيعابي، ولم تكن تحظى بقبول قوي لدي، ولكن ما المانع لو أنها ستجدي ؟!!.

المشكلة الآن كيف أطلب من جدي شيئًا مماثلاً ؟! إن إقناعه بإنفاق النقود برغم بخله الشديد، أسهل من هذا الطلب.

أنا أعرف بالتأكيد أنه قادر عليه.

إن من يفرق بين زوجين خاضا غمار الدنيا معًا، يستطيع أن يجمع عاشقين تداعب قلبيهما نسائم العشق.

دفعني خوفي من مواجهة الشيخ ياسين، إلى البحث في الإنترنت.

وشبكة الإنترنت هي المشعوذ الرقمي الحديث ، والذي ستجد لديه كل ما ترغب ؛ فقط لتمتطي حصان جوجول أو غيره من محركات البحث التي فاقت البلورة السحرية في سرعة جلب المعلومات.

وفي إحدى المنتديات الإلكترونية المتخصصة في علوم السحر والخوارق وجدت بغيتي. إن النسخة الإلكترونية من كتاب شمس المعارف الكبرى تحتوي على طريقة جهنمية ومجربة، لعقد رباط المحبة كما يطلقون عليه، حيث يتم فيها استخدام بيضة دجاجة مطلسمة لتحقيق الأمر، بعد القيام

بالطقوس المناسبة وكتابة تعاويذ وأرقام معينة على قشرتها الخارجية الصلبة.. ويكفي فقط أن يمس من يحمل هذه البيضة المطلسمة، الضحية المقصودة، ليحملها على أن تسقط في غرامه وتتبعه في كل مكان كالزومبي، أو كالمنوم مغناطيسيًا.

هو درب أسود ومعقد من سحر الأرقام، ونوع معترف به من السحر، وأنا قادر على القيام به، ولكن هل أجرؤ حقًا ؟!.

- سماح-

وقبل أن أغادر هذا الكون الرقمي، حاملاً نسختي الإلكترونية من كتاب شمس المعارف الرهيب، قررت أن أتصفح بعض الموضوعات المتعلقة بهذا الدرب من السحر.. سحر الألفة والمحبة.

وفي النهاية أصبت بالإحباط.

الحوار الدائر في المنتدى أثبت أن معظم هذه التعاويذ هراء، أو أن من يقومون بها على جهل مدقع بحقيقة هذه الفنون السوداء، أو كما كتب شخص ما في أحد التعليقات، هي تحتاج لمن عقد معاهدة مع الشيطان.

أنا واثق تمامًا أن الشيخ ياسين لابد وأنه قد عقد مثل هذه المعاهدة على الأقل مع كبيرهم وربما منذ زمن طويل، وإلا لماذا يخشاه الناس إلى هذا الحد، ولماذا قاطعه ابنه الراحل من قبل، ولماذا تستمر هذه الأصوات المخيفة وهذا الثغاء المبحوح في الخروج من غرفته في معظم الليالي القمرية ؟!

إن مفاتحة جدي في أمر مماثل، تحتاج إلى شجاعة أسطورية، لا أظن أن هناك حفيد حي يمتلكها في هذه الدنيا بعد، ثم أي صفاقة لأطلب من جدي الشيخ الكبير، وأنا الطالب الذي لم يتجاوز بعد الثامنة عشرة من العمر، بأن يساعدني بنسج شبكة جهنمية سحرية كي تسقط عن طريقها إحدى الفتيات في غرامي.

العشق جنون كما يقولون.

أعتقد أن الصفع سيكون رد فعل منطقي من جدي لمجرد مفاتحته في الأمر.

لن أجازف بالطبع بمواجهة جدي، كما أن الشعور الرافض بداخل صدري تعاظم ليسيطر على كياني، فليست هذه هي الطريقة التي أريد أن تبدأ بها قصتي مع سماح.

لا إكراه في العشق الحقيقي.

فما نفعي من دمية أحركها لتتفاعل معي كيف أشاء، دون إرادتها الحرة ؟! أي مشاعر يمكن أن أتبادلها مع تمثال جامد المشاعر مبرمج على السمع والطاعة، لا حياة فيه.

أنا لن أقاتل لأحصل في النهاية على نسخة باهتة من عشق لم يمر بقلبها، ولم يجلسها لتتأمل النجوم وتناجي القمر.

إن العشق دفء متبادل، ولو لم يكن صادقًا، خالصًا، فلا رجاء منه.

ما أريده هو التفاعل التلقائي النابع من فيضان أحاسيسها الهادرة نحوي. ما أريده هو عشقها المتدفق من قلبها دون إجبار ؟!

السؤال هنا ماذا لو ظلت على تجاهلها لي، ولمشاعري ؟!

الإجابة هنا لم تكن معروفة لي في نفس توقيت طرح هذا السؤال، لصغر سني واندفاعي، ولتلك الظروف التي تحيط بي، وتلك الحرية الكبيرة التي أحظى بها مع خفوت دور جدي في حياتي، بعد أن ألقى بعبئي كله على كاهل عايدة، إلا أن هناك حقيقة لا يمكن أن تغيب على كل عين مبصرة، وهي أن مشاعر الحب في فترة المراهقة متطرفة.

ولكن المتطرف أكثر هو الشعور بالفشل، عندما يصدك من تظن أن سعادتك أصبحت بيديه، هذا سيحبطك، سيحزنك، وفي النهاية سيغضبك، ونزق الشباب سيجبرك دون تردد على التهور، واجتياز خطوط حمراء كثيرة، وقد يجبرك على سلوك الطريق المظلم، لأنه الطريق الوحيد المتاح أمامك.

وهذا ما حدث في وقت تالٍ.

أعملت فكري كثيرًا في الأمر، حتى أنهكت عقلي وأعيتني الحيل، وفي النهاية قررت أن أمنح نفسي فرصة أخيرة قبل أن أقوم بأي عمل متهور.

لذا وفي مساء اليوم التالي انتظرتها، كنت أعرف أنها تتلقى دروسًا خصوصية في أحد المراكز في قلب المدينة. لقد تبعتها ذات يوم ورأيتها تلج هناك قبل أن تختفي بالداخل.

وعلى ناصية الشارع الذي يوجد به المركز وقفت أنتظر عودتها، وقد ارتديت أفضل ثيابي، وتعطرت بأفضل العطور والتي أخرجتها مؤخرًا من متعلقات أبي الراحل.

يقولون إن للزهور تأثيرًا كاسحًا على النساء، وخاصة الحمراء منها، ولكن للأسف لم يجدِ الأمر معها، لم ترَ الوردة الحمراء التي أحملها في يدي، ولم ترني.

لم تتوتر كعادة كل الفتيات في مثل هذه المواقف، ولم ترتبك، أو يبدو أن وجودي قد لا مس وجودها ولو للحظة واحدة.

إنني بالنسبة لها مجرد خواء.

فقط عبرت بجواري بنعومة وسرعة سهم حاد يخترق الهواء. بلا أدنى انفعال أو اهتمام. وبنفس خطواتها السريعة الأقرب إلى العدو، وبردائها الأسود وبشعرها الناعم الذي يذوب مع لون الرداء نفسه.

إن أندر العيون هي العيون السوداء، وهي كانت تمتلك زوجًا متألقًا منها، ولم تتلاقَ أعيننا قط.

تجاوزتني وكأني لم أكن، ولا أشغل هذا الحيز الكبير من الفراغ، فقط ما نلته من مغامرتي الفاشلة، هو تنسمي لرائحة عطرها الفواح، الذي أصبح في أنفي يمثل رائحة الفشل، ولحظتها فقط شعرت بأنه لا أمل هناك، إنها مخلوقة من حجر صلد، ولن يحرك فيضان مشاعري، ولو خلجة من خلجتها.

الطعنة في قلبي هذه المرة كانت نافذة، وعلى مقدار الألم يأتي الغضب، لذا ثارت مشاعري، وغلى الدم في عروقي، وكما قلت :

إن كل المشاعر لدى المراهقين متعاظمة ومتطرفة، لذا فإنني قررت أن أجبرها على عشقي، وبرغبتها أو بدون ستأتي لي صاغرة تستجدي رضاي. وفي هذا الأمر، لن أوفر جهدًا أو أعدم حيلة، حتى ولو اضطررت لاقتحام غرفة جدي، وقمت بالتعويذة الموجودة في كتاب شمس المعارف بنفسي. فأن تكون معي بغير إرادتها خير من ألا تكون معي أبدًا، وهذا هو القول الفصل.

****

عندما عدت ليلتها إلى المنزل، كانت عايدة قد عادت من سفرها بعد أيام من الانقطاع قضتها في تلقي عزاء والدتها.

عادت كئيبة داكنة البشرة، وفقد وجهها نضارته وازدادت نحولاً..لم أبالِ بها ولا بطعامها، إن قلبي حزين.. حزين، ولا رغبة لدي في الطعام ولا مواساة أحد.

إنني أحتاج من يواسيني.

الصمت يغلف المنزل، وجدي يغلق عليه غرفته كعادته، والأدخنة الناجمة عن حرق البخور تخرج من أسفل باب الغرفة، مختلطة برائحة عضوية

غريبة، تعبق المكان، وكأنه يتخلص من جثة ما عن طريق الحرق، مع همهمات غليظة لا تتوقف.

فليحترق العالم كله، فلم أعد أبالي.

وبمجرد دخولي غرفتي، انفصل وعيي عن كل شيء، وانفجر بداخلي بركان من الحمم والدموع، وأصبح كل شيء له علاقة بحالتي المتردية.

فلابد أن رائحة الشواء النفاذة هذه، هي رائحة أعصابي المحترقة، وسحب الكآبة التي تحيط بالمنزل، ناجمة عن حزني الكبير.

إنني ضائع، وحيد، مكسور.

إنني لا شيء بدونها.

عدم يحيا في العدم، ويتلاشى في العدم.

لماذا يا سماح لماذا ؟!.

كانت حالتي تسوء بشكل واضح، ودون وجود من يهوّن على قلبي آلامه، فأنا أتجه صوب كارثة.

إن أفراد شلتي، والتي جمعتها من خارج المنطقة وممن لم ينفروا من مهنة جدي، كبيرة، متواجدون دائمًا لنجدتي، إن أعمارهم المتفاوتة تسمح بالكثير والكثير من وسائل الترفيه، فأصغرهم نجيب وهو في مثل سني وأكبرهم

رشاد وهو شاب ثري في الخامسة والثلاثين، ولكن أيًا منهم ليس قريبًا مني في هذه اللحظة لأفضي إليه.

إنني وحيد.. تعيس.. حزين.

ناقوس يدق في عوالم النسيان.

الأفكار في عقلي جميعها خيالية وجامحة، فحتى لو اختطفتها فوق الحصان الأبيض، كيف أعبر بها الحدود دون جواز سفر، وكيف أصل بها إلى جزيرة مهجورة في قلب البحر. لم تعد هناك جزر مهجورة في هذا الكوكب المسمى الأرض، إن جوجول إيرث لديه خرائط تفصيلية عن كل شبر في العالم.

إن العالم كله ضدي، لذا سأكتب لها ما يجيش في صدري في قصيدة :

(أحلامي صغيرة

طموحاتي صغيرة

أن أكون أنا البحر

وأنتِ بداخلي جزيرة).

...

جزيرة لا يعرفها جوجل إيرث.

بداخلي.. بداخلي.. بداخلي..

الكلمة تتردد في عقلي كموسيقى حالمة.. ما أروِع الاحتواء.. إن الأحلام لا حدود لها.

لن أطمع كثيرًا.. لا أريدها بداخلي.. ولا بالقرب مني.. فقط أريد منها لمحة من الاهتمام، نظرة دافئة، كلمة ولو كانت سبابًا، أن تشعرني بأني موجود في هذا العالم.

نظرت نحو الكلمات التي خطتها يدي منذ لحظات، ثم مزقت الورقة.

إنني يائس بشكل مخيف، الأمر لم يكن هينًا على نفسيتي أبدًا، خاصة وأنها كانت تشبه أمي الراحلة في لون عينيها.

شعرت بضعف.

بوهن.

بضياع.

دخلت الفراش، لأنتحب، ودون أن أشعر غفوت، وبقلب عالم الأحلام، وجدتها هناك.

تنتظرني.. تبتسم وتمد يديها لي.. تخبرني باسمها.

كانت تريد أن تصحبني معها، لذلك الوادي المتألق في البعد.

سأذهب معها لأي مكان.

إنني أهفو لصحبتها.. ولكن لا..

إن هذا ليس بضياء، إنه نيران.

نيران حارقة.

لا لا لا لا لا لا.. لن أذهب معكِ.

أنتِ لستِ سماح.. أنتِ شيطانة.. شيطانة.

وعندما استيقظت، وبمجرد أن فتحت عيني، وجدت جدي يقف عند رأس الفراش، وعلى وجهه علامات تفكير عميقة، ممزوجة بقلق.

انكمشت في مكاني مرتجفًا وأنا أفكر.

هل يستطيع قراءة أفكاري ؟!

ولكن جدي ظل على وقفته هذه لم يتحرك، لدقائق كادت روحي أن تزهق فيها، وفي النهاية غادر الغرفة، وبعد وقت ليس بالقليل عاد ومعه قنينة بلاستيكية، وأخذ يسكب ما فيها من سائل في أركان الغرفة، وهو لا ينفك عن ترديد تلك الكلمات المبهمة غير المفهومة، ما استطاعت أذني أن تلتقطه منه بضع كلمات لا معنى لها

– الوحي الوحي.. العجل العجل.. الساعة الساعة..

كلمات غير مفهومة ولكنها أثارت رعبي وجعلتني أؤجل مشروعي الكبير لأجل غير مسمى.

لأن بداخلي تعاظم شعور مضني بأني في خطر مروع.

ـ الخطة ـ

لم تظهر سماح في الأيام التالية، قلبت عليها الدنيا رأسًا على عقب، لم أترك حجر إلا وبحثت تحته، ولم تأتني فكرة مهما كانت مجنونة إلا وجربتها، حتى أني اقتحمت غرفة شئون الطلاب وبحثت في الكشوف التي تحتوي على أسماء الطلبة – في مغامرة ستقضي على مستقبلي لو كشف الأمر – ولكني برغم التهور والجهد المبذول لم أعثر لها على أثر، هناك اثنان سماح غيرها بالمدرسة ولكني أعرف عنهما كل شيء.

انتظرتها بالساعات في كل الأماكن التي أتوقع وجودها فيها، وأثناء بحثي المضني اكتشفت أنني أجهل أهم معلومة عنها.

أين يقع منزلها ؟!

كيف وصل بي الغباء بألا أتبعها ولو مرة واحدة لأعرف مكان منزلها، إن هذه هي أبسط القواعد وكل عاشق أحمق يعرفها.

كيف سيؤثر روميو على جولييت لو لم يتبعها إلى منزلها ويلقي على مسمعها أغاني العشق ويسمع السباب من والديها.

وفي النهاية.

لا أحد يعرف شيئًا !! ولا أحد رأى شيئًا !!

إن الأمر مريب حقًا !!

ضاع كل مجهودي ومجهود أصدقائي في تتبعها أو العثور لها على أثر، بعض الفتيات ممن كانوا على علاقة ببعض أفراد شلتي، أنكروا وجودها من الأساس في المدرسة ومركز الدروس الخصوصية، مما جعلني أشك في أن يكون لجدي يد في اختفائها، ألم تختفِ في الليلة التالية، لقيامه بسكب تلك السوائل كريهة الرائحة في غرفتي وترديده لتلك التعاويذ الغامضة.

لو رأيتم نظرته في تلك الليلة التي زارتني فيها سماح في منامي، لأدركتم أنه أحاط بأمري كله، سواء بقدراته أو بالاستعانة بملوك الجن.

إن جدي هو المتهم الأول في نظري، وربما لو فتشت في أوراقه لوصلت لطرف خيط.

أعرف حقيقة أن ما يدور في عقلي جنون، ولكن من وقع في العشق، لن يرى مبالغات في حديثي، إنني أتبع قلبي فقط. ثم من قال إن السحرة يحتفظون بسجلات يدونون فيها أسماء ضحاياهم.

المعضلة الكبرى هنا أنني لو أردت أن أتأكد من شكوكي، فلابد لي من دخول غرفة جدي المغلقة دومًا، والتي لا يغادرها إلا لمامًا.

ولابد من سبب وجيه يدفعه للخروج وفي نفس الوقت ينفي تهمة الاقتحام عني.. إن الحصول على الأوراق / الكتب ستمثل فرصة جيدة لمعرفة حقيقة ما فعله مع سماح، أو هذا ما أتمناه !!.

أعرف أن العقاب سيكون أسطوريًا لو سقطت بين يديه، ولكن ما باليد حيلة، لابد وأن أنفي عنه التهمة أو أثبتها عليه لأعرف طبيعة الخطوة التالية التي سأخطوها.

ثم إن هناك صوتًا بداخلي، يخبرني أنني على الطريق الصحيح، وهذه الأحاسيس مؤشرات لا يجب تجاهلها، لأنها رسائل من عالم آخر أكثر شفافية وصدقًا. والسؤال هنا :

من أين أبدأ، وبمن سأستعين ؟!

ومن سيكون غير أفراد شلتي بالطبع !!

هل أخبرتكم بأن سماح زارتني ليلة أمس في الحلم، وأخبرتني أن جدي هو من يمنع تواصلنا ؟!.. أعرف أن الاعتماد على دليل واه كهذا درب من الحماقة، ولكن الغريق يتعلق دومًا في عود واه من القش، فما بالكم لو كان فرع شجرة قديم كالشيخ ياسين. والشيخ ياسين تحيط به من الشكوك ما يجعل نصف حوادث المنطقة الشنيعة تنسب إليه.

فإن كان هناك متهم يسكن معك تحت سقف واحد ، فأي مصيبة ستقع لك لابد وأن له يد فيها.

وسماح أخبرتني في الحلم بذلك !

****

اليوم عرفت من عايدة أن جدي سيغادر إلى منزل الشيخ (تهامي الحو) لأن لديه عمل سيأخذ منه ساعات النهار كلها، ولذلك فهي ستقوم بتنظيف أرضيات المنزل والجدران، وستعني بالسقيفة، وأنها ستغادر لمدة ساعة واحدة ستقوم فيها بشراء الكميات المطلوبة من المنظفات ومتطلبات المنزل، لتنهي بها مهمتها العاجلة.

من يرى عايدة الآن، لابد وأن يعرف أن للحزن آلته الزمنية الخاصة، والتي يلتهم بها نضارة وشباب من يقع تحت مخالبه الحادة التي لا ترحم.

حزنها على وفاة أمها، جعلها تبدو أكبر سنًا، وأوهن روحًا، وتحول كيانها الغض ووجها الصبوح، إلى كيان ووجه مومياء، فغارت عيونها إلى داخل جمجمتها، وشحبت ملامحها فهي أقرب للموتى، وفقدت حيويتها فظهرت كسيدة على أعتاب الأبدية تنتظر الموت، ولكن الموت يأبى أن يسعفها بقبلته القاتلة.

الدموع تكاد تحفر على وجنتها مجارٍ واضحة، والسواد الذي يظلل عينيها، يبدو وكأنه ناجم عن حرق، والنوم لا يبدو رفيقًا جيدًا معها. لقد أصبحت بعد وفاة أمها، مجرد حطام إنسان، سُحق، وينتظر أن تذروه الرياح.

ما لاحظته عليها من طول عشرتي لها، أنها عندما تحزن فإنها تقتل نفسها بالأعمال المنزلية، لذا أتوقع أن يصير المنزل بعد عنايتها به كالجديد.

الآن اتركونا من عايدة مؤقتًا، فلو ظللت أحكي عن حالتها المتردية لسودت مجلدات، أعرف أن بعضكم يروق له الحديث عن الحزن، وأعدكم لو تبقى لي وقت، أن نبكي وننتحب ونغرق سويًا في بحر الحزن الأزلي، فالأحزان في قصتي بحر لا قرار له.

فقط دعونا الآن نلتفت لتلك الخدمة الجليلة، التي قدمتها لي عايدة دون أن تشعر، فالمنزل سيصبح ملكي لمدة ساعة، وهي فرصة ربما لن تتكرر لعدة أشهر قادمة وربما سنوات، فجدي يزداد ضعفًا ونحولاً، ومنذ فترة يلازم غرفته بالأيام لا يغادرها.

لقد سمعت أن الفنون السوداء، تتغذى على روح الإنسان وتضعف جسده. ولابد وأن جدي يقوم بعمل شنيع يستنزف روحه وحيويته هذه الأيام. لابد وأنه يعاني ليبعد سماح عني.

المهم، أنني لم أكذب خبرًا، المنزل ملكي للمرة الأولى، ولابد وأن أستغل الفرصة، فشوقي لسماح هادر، والألم الناجم عن الفقد، لا يماثله ألم آخر.

تجمعت مع شلتي، ولحسن الحظ كنا في فترة الأجازة الصيفية، ومن يعمل منا قرر بأريحية مريبة أن يتخلف عن عمله، وإن عارض بعضهم في البداية.

ستة من الأصدقاء وأنا سابعهم قررنا أن نقوم بالمهمة، يدفعنا إحساس غامض هامس، وكأن اقتحام الغرفة، هو العمل الأكثر أهمية وقداسة في هذا العالم.

هل شككنا للحظة في شيء ؟!

بالطبع لا..

ولو شككنا لم تكن هناك قوة في الكون ستمنعنا عن إنهاء ما عزمنا عليه.

ما اعتقدته حقًا وقتها أنهم سيستمتعون بمغامرة غير مسبوقة تبدد رتابة الأيام الحاضرة، وأنا سأصل لليقين الكامل وربما يرتاح قلبي من ناحية سماح والشيخ ياسين، فبرغم جفاء سماح، ومهنة جدي الشنيعة لا أريد أن أفقد أحدهما أو أحمل له بقلبي ضغينة، لذا قررت أن نقوم بالمهمة على الفور ووضعت خطتي المرتجلة.

البعض سيقوم بمهمة المراقبة، لتحذيرنا في الوقت المناسب من أي خطر قادم، والبعض الآخر سيساعدني في الدخول إلى الغرفة المغلقة.

ولأن المهمة لم تكن بسيطة فقد أحضر كل منهم شيئًا مفيدًا في الوقت البسيط الذي يفصل اتصالي بهم عن قدومهم.

لذا فإن أمين أحضر معه عتلة من متعلقات والده، وقام زياد بإحضار ميدالية المفاتيح الضخمة التي يحتفظ بها والده في قبو المنزل، والتي تغص بمفاتيح من كافة الأشكال والأحجام، وأحضر رشاد مدية سويسرية أصلية، كان قد أحضرها معه من رحلته الأخيرة في أوروبا، وشحتة عرض أن يحضر

سلاحًا ناريًا ولكني رفضت.. فلسنا ذاهبين لاقتحام بنك، وحانت ساعة الصفر.

ولأضعكم في الجو أكثر سأخبركم بالوضع الآن.

زياد، وخليل على ناصية الشارع لتحذيرنا عند قدوم عايدة أو الشيخ ياسين، شحتة ورشاد، أمام باب المنزل لأن التواصل سيكون بالصفير، أنا وأمين ونجيب، دخلنا لنتعامل مع باب الغرفة، وقبل أن أدخل نهرت نجيب ليتوقف عن التهام الطعام فما نحن بصدده يحتاج إلى كل تركيزنا.

وبعدها تحركنا بهدوء وبدون ضجيج، وعين نجيب تكاد تثب من محجريها على الشطيرة التي أحتفظ بها شحتة معه.

كل من أصدقائي شغل موضعه المتفق عليه والمرسوم في الخطة بدقة، وأنا ومن معي دخلنا إلى المنزل بقلوب صاخبة وأعصاب مرتجفة من الإثارة والتوتر.

وبداخل المنزل كانت تنتظرنا مفاجأة مروعة.

يا للكارثة.. فغرفة الشيخ ياسين التي كانت على الدوام مغلقة، وجدناها مفتوحة لدى دخولنا، وبابها مواربًا.

وهذا ليس شيئًا غريبًا فقط، ولكنه مخيف أيضًا، إن هذا يجهض خطتي بالكامل، ويجعل العقاب الذي كاد أن يفتر عزيمتي من قبل، لا يفصله عني إلا عدة أمتار، مما فجر في عقلي طوفان من الأسئلة :

– هل عاد الشيخ ياسين إلى المنزل، أثناء وجودي بالخارج أرتب لاقتحام عرينه ليأخذ شيئًا نسيه ؟ أم عاد ليكمل عمله بغرفته ؟ أم أنه علم بقدراته الشيطانية بما نرتبه من أجله فحضر ليلقنا درسًا قاسيًا ؟!!

– ماذا سيحدث لو اكتشف ما نحن بصدده أو ما نحن عازمون عليه، كيف سيكون عقابه لي ولأصدقائي ؟!

جمدتني المفاجأة للحظات، ولكني تغلبت عليها بسرعة، فليس هذا وقت تمثيل دور المصدوم، وأشرت لرفاقي بأن يتواروا للحظات كي أتفقد المكان، ثم تقدمت صوب غرفة جدي بخطوات من هلام، وقلبي يخفق كجناحي طائر يقاوم الغرق، وعندما أدخلت رأسي عبر فرجة باب الغرفة، وبعد تردد، وجدتها خالية من البشر، لا أثر للشيخ ياسين بها، فعدوت بسرعة صوب دورة المياه، فربما هو بداخلها يفرغ مثانته، فلم أجد أحدًا هناك.

تنفست الصعداء، ثم ذهبت إلى حيث يختبئ صديقاي، أمين ونجيب وطلبت منهما أن يتبعاني، وبدأ الأمر.

هل سمعتم معي تلك الضحكة الشيطانية ؟!

– ......

لابد وأني واهم إذن.

الشيطان

هناك رأس محنطة أحاول إقناع نفسي بأنها غير بشرية.. ولكني قرأت من قبل عن هذه الرؤوس المجففة والتي تستخدم في طقوس السحر الأسود.

مجموعة من الخطاطيف التي يستخدمها الجزار في تعليق الذبائح معلقة في سقف الغرفة، وتلك البقايا الملتصقة بها لن أجرؤ على تفحصها، ولكن رائحتها تشي بحقيقتها.

- الغرفة -

عندما تشعر بكونك تقترب من فخ محقق ولا تتراجع، فتأكد من شيء واحد.. أنت أحمق كبير.

هذا هو ما شعرت به وما شعر به رفيقاي كذلك، الرعب الكبير المرتسم على وجهي أمين ونجيب، يؤكد لي حقيقة شعوري. ولكني كصاحب الفكرة، وكعاشق مكلوم، لم أرغب في أن أظهر بمظهر الجبان أو الخائف أمام رفاقي، لذا فإنني بدأت الحماقة وقررت أن أستمر فيها إلى النهاية.

الأمر لم يكن يحتاج لمزيد من التأكيد لنعرف أن ما نحن مقبلون عليه خطير ومخيف، وربما يكلفنا جميعًا أكثر مما نعتقد. فشخص مثل الشيخ ياسين لن يترك عرينه بلا حماية، وربما تصيبنا منه لعنة، كتلك اللعنات التي كان الفراعنة يحصنون بها مقابرهم.

إنه ساحر والسحرة يجيدون مثل هذه الأشياء، وإلا من أين أتت سمعتهم السيئة عبر التاريخ.

النقطة المثيرة للأعصاب هنا، هو كيف لم تأتِ هذه الفكرة إلى عقلي من قبل؟!

إن الحماقة أعيت من يداويها.

لا مجال للتراجع أو التخاذل بأي حال، إننا هنا الآن، لقد تورطنا جميعًا وانتهى الأمر. فلا بأس من أن نحصل على ما جئنا من أجله. وإن كنا لا نعرف ما هو تحديدًا.

فلنلخص الفكرة في الكتب والأوراق والرقاقات الجلدية التي لمحت الشيخ ياسين يحملها أكثر من مرة ليعبر بها صوب الغرفة.

الخوف يلقي بظلاله على المكان، حتى الهواء نفسه مختلف وثقيل وكأن له قوامًا. الرواق أمام الغرفة يبدو وكأنه يسبح في ضباب رمادي كثيف. مع صوت فحيح غريب، وصوت قرع جرس أقرب لأجراس الكنائس.

التقطت أذني صوت هامس ، يدعونا لأن نقترب !!.

تجمدت مكاني من الرعب للحظات، ثم استدرت بجذعي لأتطلع خلفي.

– ألا يرى هذا الغبيان اللذان يرافقاني أي شيء مريب ؟!

ولكني صدمت عندما رأيتهما، ورأيت الذهول المرتسم على وجهيهما وكأنهما ولدا به. مالهما متسمران هكذا كالتماثيل الشمعية ؟! إنني أشعر بتوتر شديد.. إنني خائف.. ولابد أن أعود.. لا يجب أن تستمر هذه الحماقة أكثر من ذلك.

تيار من الهواء البارد يجتاح جسدي، ويدفعني بعيدًا عن الغرفة، مع إحساس مخيف بأن هناك أهدابًا أو ممصات تداعب الأجزاء الغير مغطاة من جسدي، وكأن مئات من الفئران الصغيرة تتشمم جسدي.

شعور قاتل وأكاد أفرغ منه معدتي.

هل تشعرون معي بذلك الحضور الكثيف ؟!

إن شيئًا شريرًا يسكن هذه الغرفة دون شك.. شيئًا له حضور وتأثير ورائحة وكيان. شيء لا يرغب في دخولنا الغرفة. شيئًا يختلف عن تلك الهمسات التي تدفعنا لولوجها.

هذا المكان تفوح منه رائحة الموت بطريقة مزعجة، كما أن طاقة مخيفة تتماوج في المكان، كأن هناك مجالاً من نوع ما يحيط بالغرفة.

هل هي كهرباء إستاتيكية ؟!

الأمر يبدو وكأن الغرفة تحتوي على مولد كهرباء قوي، وإلا لماذا وقف شعر ساعديّ ورأسي ؟! التردد يزيد من الخوف والقلق بداخلي، فالأفضل من انتظار الخطر هو وقوعه، لأن الانتظار سيتمثل فيه الموت بألف طريقة وطريقة. فلننتهي من الأمر سريعًا ونغادر.

لعنت قلبي الذي ينبض كمحرك قديم، فمتى بسط القلب سلطانه على العقل، فلابد من حماقات كثيرة ترتكب باسم الحب.

الغريب أني أشعر الآن أني بصدد مهمة تختلف تمامًا عن سبب قدومي إلى هنا.

لم تعد سماح هي الفكرة.

هناك فكرة أخرى تولد بداخلي وتتشعب وتتوغل وتستولي على كياني، وهي فكرة الخلاص.

إنها لم تبدأ بذرة كما يحدث دائمًا، بل شجرة كاملة الفروع والأغصان والثمار، تضرب بجذورها في أعماقي.

الآن أنا على يقين بأن سماح كانت الطعم، الذي قادنا لهذا الفخ، وربما للموت كذلك.

كل هذه الأحاسيس المخيفة والمشاهد المروعة، ولم أكن أنا أو رفيقاي قد تجاوزنا عتبة الغرفة الرخامية بعد.. أي هول تخفيه هذه الغرفة بداخلها، لتحيط بها هذه الطاقة النفسية المروعة.

الآن فقط أتذكر أنني لم أقترب ولو مرة واحدة من هذه الغرفة، كان هناك شيء ما يمنعني دون أن أعي من ولوجها، وكنت أستجيب له.

لقد شغلني جدي عنها ببخله وطباعه، وتلك المشاكسات التي لا تنتهي.. فهل كان يتعمد هذا ؟!

هل استمر طوال سنوات متعاقبة لا يكف عن إلهائي ؟! وهل هذا ما يحدث الآن ؟!

هززت رأسي في عنف لأوقف سيال الأفكار المتدفقة، ثم جذبت نجيب وأمين من ذراعيهما، وسحبتهما معي لداخل الغرفة، وما أن عبرنا العتبة الرخامية حتى توقفنا وتعالت شهقاتنا. فالغرفة لم تكن غرفة عادية بأي حال من الأحوال.

إنها إحدى بوابات الجحيم..

وصدقني لاشيء سيفاجئك في حياتك مثل محتويات غرفة الشيخ ياسين المغلقة، والتي كشفت لي عن أسرارها، دون مجهود مني أو من رفاقي، أو ربما هي تتمة الفخ.

اتساع الغرفة غير طبيعي أبدًا، ربما هو تأثير تلك المرايا العاكسة المتناثرة في أرجائها، والتي تحتل إحداها جدار كامل، كما أن هناك ضوء لا نعرف مصدره يشع من كل الموجدات، ورائحة عضوية تذكرك بتلك الرائحة التي كثيرًا ما حاولت ريا وسكينة أن تطمساها بالبخور، فرائحة الجثث المتعفنة تتشابه في كل مكان. الموت يعلن عن نفسه بقوة في هذه الغرفة.

رأس محنطة أحاول إقناع نفسي بأنها غير بشرية.. ولكني قرأت من قبل عن هذه الرؤوس المجففة والتي تستخدم في طقوس السحر الأسود.

مجموعة من الخطاطيف التي يستخدمها الجزار في تعليق الذبائح معلقة في سقف الغرفة، وتلك البقايا الملتصقة بها لن أجرؤ على تفحصها، ولكن رائحتها تشي بحقيقتها.

أصابتني حالة غريبة من الهذيان فصرت أكلم نفسي.

أهذه عظام طفل ؟!

هي بالتأكيد عظام طفل، فهذه الجمجمة لا تخص أي حيوان أعرفه.

وهل هذا جرامافون.

ما دخل الموسيقى بالسحر ؟!

ربما الموسيقى هي لغة من نوع ما يخاطب بها الشيخ ياسين، الشياطين في بعدهم المتواري.

ثم ما هذا الصوت القادم من خلف الصوان الخشبي الكبير ؟!

إنه ثغاء دون شك، ينتمي لأحد الأنعام، إنها عنزة أو تيس، ماذا يفعل الشيخ ياسين بحيوان مماثل، ولماذا يحتفظ به بقلب الصوان ؟!.

حالة نجيب وأمين لا تختلف أبدًا عن حالتي بل إنها أسوأ دون شك، وكأننا واقعين تحت تأثير مخدر ما.

ماذا رأى نجيب ليظهر الفزع على وجهه بهذا القدر ؟! ولماذا يتصلب جسده بهذه الطريقة وكأنه التصق بالأرض ؟! لماذا يقف مكانه هكذا دون حراك ؟! إنه يرى شيئًا مخيفًا لا أراه دون شك ؟!

ثم لماذا سقط أمين على الأرض لينتحب ؟! هل بال أمين على نفسه ؟! لابد أن نغادر الغرفة على الفور، ولتذهب سماح والمغامرة إلى الجحيم.

إنني في حالة انفصال تام عن جسدي، وكأن هناك من حقنني بمخدر نصفي، أرى ما يحدث، ولكني لا أستطع التصرف.

أهي تعويذة دفاعية من جدي ؟!

– نجيييييب.. .أمييييييين، ساعداني أيها الكسولان، لماذا لا تجيبا ؟!

أين أنتما، ثم ما هذا الضباب الأسود ؟!

وما الذي أتى بك هنا يا سماح ؟!

- شيطانة -

الجنون كان هو المتحكم والمسيطر علينا في هذه اللحظة، إما أننا واقعون تحت تأثير سحر ما، أو أنه شيء مجهول في الهواء، واستنشقناه نحن في غباء فأثر على أعصابنا.

– إنها غرفة جدي على أية حال وليست مقبرة فرعونية تحميها لعنة مهلكة.

هذا هو ما حدثت به نفسي في محاولة بائسة كي لا يتوقف قلبي من الفزع.

الحيرة تعصف بعقلي والتساؤلات تتزاحم وتتقاتل بداخله.

تُرى هل كانت سماح في غرفة جدي طوال الوقت ؟!

ظهورها كان مفاجأة غير سارة لي، لأنها لم تكن سماح التي أعرفها أبدًا، فوجهها الذي طالما داعب أحلامي.. كان ملطخًا بأصباغ سوداء وبيضاء متقاطعة، مع شحوب طاغٍ يجعلها أقرب إلى الموتى.

جسدها الذي صار أكثر نحولاً، ملفوف بجلد غير مدبوغ لحيوان كثيف الفراء، ليس الدب دون شك، وقدماها كانت عبارة عن حافرين، كحوافر الماعز المشقوقة. وعلى رأسها انتصب قرنان بشعا الشكل يشبها الزوائد العظمية.

صدمت من منظرها، وكذلك نجيب الذي وقف مفغور الفاه يسيل الزبد من شدقيه كمرضى الصرع، وأمين الذي ارتخى جسده على الأرض تمامًا، فإما أنه فقد الوعي، أو ما هو أسوأ !

ثم بدأ الأمر.

صوت سماح الذي لم أسمعه من قبل، أخذ يدوي بداخل رأسي مغريًا، يدفعني لفتح الصوان الخشبي، وأنا دون إرادة أطيع.

الصوت لديه القدرة على التأثير على أطرافي، وبرغم ذلك لا يصل إلى أذني، أهذا سحر أم تليباثي.

الصوت له قوة السلاح وقوة الكون ذاته.

أحاول أن أفتح الصوان، ولكنه أقوى من كل محاولاتي، ثم إن صوت الثغاء، والحوافر الراكضة بداخله، تهوّن من حماستي ؟!

أين أنتم يا أصدقائي ؟! لماذا تركتموني وحدي ؟!

أضرب الصوان بيديّ وقدميّ، حتى تدمي، وفي النهاية أجثو على ركبتيّ باكيًا.

أضحك في هستريا..

هاهاهاها..لن أستطيع يا سماح أن أفتح الصوان.. .

هاهاهاها.. إنه مغلق بوسيلة جهنمية..

هاهاهاها..مغلق يا سماح برغم عدم وجود أقفال على بابه ؟!

الضحكات تنقلب لنحيب، ووجه سماح الغاضب ينذرني بالويل.

لن أستطيع أن أفتح الباب.. ثم إني خائف.. لا أريد أن أفتح هذا الباب.

أصرخ من أعماقي..

أقاتل عدوًا وهميًا..

أنذر وأهدد وأتوعد..

لالالالالالالالا..لا يا سماح كفاك دفعي نحو الجحيم..

إن دموعك هذه.. .

لا يا سماح لا أستطيع أن أفقدك مرة أخرى.. ولكن هذا ليس بابًا عاديًا.. إنه باب يطل على الجحيم.

– الدم..

أي دم يا سماح ؟! وكيف يكون دمي هو المفتاح ؟!!!.

أرجوك يا سماح.

لا لا لن أستطع تحمل شعور الفقد مرة أخرى، سأفتح الباب ؟!

ها هو النصل الحاد، وها هي دمائي تسيل لتغرق باب الصوان..

لا يا سمااااااااااااااح..

الباب لم ينفتح.. !!

لماذا خدعتِني.. لماذا خدعتِني يا سماح.

الباب.. يا إلهي.. ماذا فعلت بنفسي ؟!

أنا آسف يا سماح.. الباب لا يستجيب، لابد وأن دمائي.. .

صوت صرير مزعج..

الباب ينفتح بالفعل ولكن ببطء شديد.

ما هذا الحر الشديد، إن وجهي يلتهب، أي جحيم كان الباب يحصره بداخل الصوان !!.

ما هذا الدخان الكثيف ؟!

إنني أختنق يا سماح.

أحقًا ما تقولين ؟!

هل سأموت ؟!

لا يا سماح لقد فعلت ما طلبتِه مني.

أنتِ لست سماح..

نعم أنتِ لست سماح.. ولكني لا أعرف لك اسمًا آخر.

أنتِ شيطانة من شياطين الشيخ ياسين.

اتركيني أرحل يا سماح.. اتركيني.. لا تكبليني بسحرك.

نافورة من الدماء تغرق كل شيء، الهول قادم، إن الشيطان سيخرج !

لا يمكن أن أسمح له.

وهذا التيس ذو القرون واللحية، والعين الدموية المشتعلة، ليس تيسًا طبيعيًا، إنه يطلق ثغاء مثله، لكن أقسم لك إنه ليس طبيعيًا.

إنه الشيطان، أو هو تجسد مادي له.

لا يمكن أن أسمح له بالخروج.

لا تخبريني بأنك معي في هذا الأمر.. أنا وحدي من أواجهه.. أنا وحدي أحترق بنيرانه..

ليكن.. ليكن.. ولكن كفي عن الإلحاح.. أخبريني يا من لستِ سماح.. كيف أقضي على الشيطان.. إنني لم أدخل معه معركة من قبل إلا وهزمني..

– الدم.

ولكن كيف ؟!

– دماء سبعة من الذكور على نصل مطلسم، تقضي على الشيطان.

إذن ليست صدفة أنني وأصدقائي سبعة.

بالفعل يا سماح لا يمكن أن يجتمع سبعة من الأصدقاء بهذه الأعمار المختلفة، وهذا الاختلاف في الطباع والطبقات الاجتماعية، ثم يحدث بينهم انسجام إلا لو كان في الأمر شيء مريب يجمعهم، شيء شيطاني.

– لا يوجد شيء في الكون يخضع للصدفة..

حسنًا حسنًا.. أنتِ على حق.. كم أنا أحمق..

إذا هل ستسمحين أن أخرج لأجلب باقي الأصدقاء ؟! لماذا تضحكين ؟! وكيف هم معي منذ البداية ؟!

الدخان ينقشع، سماح تتلاشى، ولكني أشعر بوجودها بداخلي، وبأنها أحكمت سيطرتها على روحي.

إنها تستحوذ على جسدي بعد أن استحوذت على روحي من قبل.

الخنجر المطلسم في يدي، له ملمس غريب وكأنه يموج بالحياة.

من أين أتى ؟!

لا يهم، هاهم أصدقائي يتقدمون مني، الرعب على وجوههم محفور وكأنهم ولدوا به، عيونهم زائغة زجاجية وكأنهم دخنوا الحشيش منذ لحظات قليلة.

كل منهم يتقدم نحوي باسطًا كفه، لأجرحه بنصل الخنجر فيسيل دمه في إناء خزفي ظهر هو الآخر من العدم، الأول.. الثاني.. الثالث.. الرابع.. الخامس.. السادس.. .وأنا السابع.

هل عرفتم الآن من هو صاحب السوء ؟!

أمزج الدماء مع بعضها بنصل الخنجر..

صرخة هادرة مع ثغاء عالٍ، وكأنها صادرة عن تيس حقيقي. الدماء تتوهج بضوء أحمر قانٍ.. دخان أحمر كثيف له رائحة عطرية يتسلل إلى روحي.

سماح التي ليست سماح تمتزج بكياني، حتى إني أشعر بقبضتها فوق قبضتي على الخنجر.

أتقدم من الصوان بخطوات مترددة وعيني مسلطة على عين التيس الذي لم تتوقف حوافره لحظة على جرح الأرض من تحته، وأعتقد أنه لولا السلاسل المعدنية القوية التي تقيده لإلتهمني أنا وأصدقائي أحياء.

سماح تخبرني ألا أنظر في عينيه، ولا تعرف هذه الشيطانة أن عينيه هي التي تجتذبني.. إنه يحاول السيطرة علي.. !!

ماذا.. أقاوم ؟!

لن أستطيع أن أقاوم ؟! اتركي قلبي أيتها اللعينة إنك هكذا تقتلينني.

حسناً ..حسناً ..توقفي وسأطيعك.

سأقتله ولكن ساعديني.. جيد.. هكذا سننهي الأمر.

– توقف أيها التعس.

هل هذا صوت جدي ؟! هل أتى الشيخ ياسين أخيرًا ؟!

حسنًا.. حسنًا.. سأتجاهله.

الآن الخنجر في يدي.. مشرع نحو السماء.. إنه يتألق.. نعم يتألق..

– لا تقتل المخلوق أيها الأحمق إنك بهذه الطريقة تقتلني.

صوت الشيخ ياسين من جديد ولكني أسمعه بصعوبة.

– ستقتلني أيها الأحمق.

أتجاهل الصوت، أتقدم إلى الأمام، حرارة لافحة تغمر كل شيء، نافورة الدماء تنبثق من جديد من قلب العدم.

إنني أفقد إرادتي.. كل شيء يدور من حولي.

كما تريدين يا من لستِ سماح، سأقتل التيس.. الآن.

****

لا أعرف ماذا أصابني في الدقائق السابقة، هذيان كان أم حقيقية، المهم أني في النهاية، أغمدت الخنجر في قلب التيس والذي أطلق ثغاء طويلاً،

وصوت حشرجة متألمة صفع كياني، قبل أن يهوي أرضًا، ليتحول إلى ما يشبه القطران، أو الهلام الأسود الحار.

قطرة واحدة من الهلام أصابت يدي، قطرة واحدة وبدأ التآكل، إصبعي الصغير بدأ في التحلل والتساقط، ولكني لم أنتظر برغم الألم الشنيع، وبنفس الخنجر بترت الإصبع من قاعدته، لن أسمح بأن يمتد التآكل إلى باقي جسدي.

الألم شنيع.. !!.

هل سأفقد الوعي الآن ؟

ماذا يحدث لجدي الشيخ يا سين، هل قتلته بالفعل ؟!

جسد الشيخ ياسين ينتفض في عنف أمام عيني، وكأنما أصابته حالة صرعية، وهاهو يرتعش والزبد يتساقط من بين شفتيه وكأنه يحتضر، وقبل أن أفقد الوعي رأيت الجسد يتصلب وكأنما فقد الحياة، وحوله تناثر أصدقائي فاقدي الوعي أو أموات لا أعرف حقًا.

فقدان الوعي لم يستمر معي سوى لدقيقة واحدة، أو أنه كان سيستمر، لولا شعوري بالبرودة الشديدة مع إحساس عارم بالتحرر. إن الشيطانة تغادرني الآن لتتجسد في فضاء الغرفة كطيف جهنمي بعيون حمراء قانية متألقة وعلى رأسها قرنين مخيفين.

لقد انتهى الاستحواذ، ولكن لم ينتهي الأمر بعد.

أطلقت الشيطانة أو شبحها صرخة عالية كادت أن تصيبني بالصمم ومعها بدأت النيران تشتعل في كل شيء، نيران زرقاء جهنمية لا دخان لها ولكنها تحيل ما تلمسه إلى تراب. إنها تمحوا كل الآثار، من سيأتي بعد فنائنا لن يعرف أننا كنا هنا.

انتفضت برغم الألم الشنيع الذي شعرت به في مكان إصبعي المبتور، وعيناي مسلطتان على أجساد أصدقائي المسجاة على الأرض، والنيران التي تقترب في سرعة جهنمية منهم، وبإرادة لا أعرف من أين نبعت، سحبت أجسادهم خارج الغرفة، جسدًا خلف جسد،وأنا أكاد أفقد الوعي مجددًا من فرط المجهود والألم.

وعندما أخرجت آخر فرد منهم، وغادرت الغرفة، تحولت الغرفة لآتون مشتعل من النيران وأتت على كل شيء حتى جثة جدي.

وفي نفس اللحظة سمعت صرخة عاتية، صرخة آتية من أعماق الجحيم :

– لاااااا.. اتركهم.. إنهم لي.

وعندما نظرت نحو مصدرها وقلبي يكاد يثب من صدري، وجدت سماح تتجسد في المكان وكأنها طيف هلامي شيطاني الملامح، مع إحساس عارم

بأنها تجاهد لتحتفظ بتواجدها في عالمنا. بدت كصورة تلفزيونية مشوشة. كانت تصرخ من الغضب وتصب علي رأسي كل أنواع اللعنات.

ثم فجأة أطلقت صرخة مدوية، بدا الأمر وكأنها تُذبح أو أن هناك من ينتزع أحشاءها في قسوة.

كانت تتألم، تتعذب، ثم بدأت تتلاشى ويخبو تألق عينيها، ثم وهي تتلاشى سمعتها تخبرني بما وددت لو أصبت بالصمم قبل أن أسمعه.

كانت تخبرني بأن حماقتي حرمتها من الأضحيات السبع، وأنني انتزعتهم من بين أنياب الموت الحادة، ومنعتها من العودة لعالمها.

لم أستطع أن أرد عليها أو أجيبها.

فقط سقطت على ركبتيّ، وأنا أتطلع نحوها بإرهاق ممزوج بالغضب.

استمرت للحظات تصرخ وتتلوى وفي النهاية ألقت لعنتها :

سبعة هربوا من أنياب الموت.. سبعة سيعودون لعرين الموت.. سبعة ستقتلهم شهواتهم الكبرى.. سبعة لن يروا القمر التالي.

-اللعنة-

عادت عايدة من الخارج، وذهنها المكدود يحسب الوقت المتبقي لها لتنظيف المنزل، وفي نفس الوقت يقيس حجم المنزل الكبير، وبحسبة بسيطة وجدت أنها فقدت وقتًا ثمينًا بالفعل.

لقد أهدرت ساعة كاملة أو أكثر بالخارج، فهي استغلت فرصة غياب الشيخ ياسين لتعود صديقة قديمة لها في نفس البلدة، وصل لها بالصدفة خبر مرضها عن طريق صديقة مشتركة أخرى قابلتها في السوق هذا الصباح.

لذا تجدونها عائدة وعلى وجهها علامات التفكير العميق والهمّ، تقطع الطريق بخطوات واسعة لتختصر الزمن، كانت تريد أن تنتهي من تنظيف المنزل في أسرع وقت، وقبل عودة الشيخ ياسين، فهي تحرص على عدم إثارة سخطه، خاصة وأن أحواله هذه الأيام غير مستقرة، وأعصابه ثائرة على الدوام.

لم تكن تتوقع مفاجآت من أي نوع عند ولوجها للمنزل، لذا فإنها عندما عبرت الباب الخارجي، ومشت صوب الصالة في الرواق القصير المفضي لداخل المنزل، أصابتها الصدمة بحالة وقتية من الذهول، فتجمدت مكانها كتمثال من الشمع، وهي تشاهد بقلب خافق وأنفاس لاهثة وعيون متسعة من الهلع، السيرك الجهنمي المنصوب في صالة المنزل.

فأمام عينيها الجاحظتين، كان هناك سبعة من الشباب في أعمار مختلفة، ممددين فوق الأرض الصلبة الباردة، في حالة أقل ما يقال عنها مزرية وفي أوضاع غير مريحة، ويبدو على وجوههم رعب عاتٍ، وكأنهم قابلوا شياطين الجحيم قبل لحظات من موتهم أو فقدانهم الوعي.

عايدة حتى هذه اللحظة لم تتأكد بعد، ولن تجرؤ على التأكد من حقيقة كونهم أحياء أم لا، لأنها تؤمن بالفعل بكونهم أموات.

اليقين سيفقدها صوابها، إن ميراثها القديم من القصص المخيفة عن الجن والشياطين والأشباح، والذي أججها عملها لدى الشيخ ياسين، يحطم جدران تعقلها وتماسكها.

إنها لا تصدق ما يحدث، أقصى كوابيسها بشاعة أن يصيبها الشيخ ياسين بلعنة عند غضبه أو يخرج لها شبح من خلف باب غرفته المغلقة، لذلك كانت تطيعه ولا تعصي له أمرًا كي تتحاشى مثل هذه الأشياء المخيفة.

إنها قادرة على التصدي لكل ما يمكن لمسه وقياسه، حتى إنها تصدت ذات يوم للص يفوقها قوة وجندلته بعزيمتها ولكن ما تراه الآن من خارج عالمها، شيء لا يمكن التصدي له أو حتى مجابهته، هذا لو استطاعت تصديق وجوده من الأساس.

الموقف الآن يفوق كل حدود إدراكها، لذا فإنها تقف بالقرب من غرفة الشيخ ياسين والتي تشتعل النار بداخلها كالجحيم في ذهول، قابضة على

تلك الأكياس التي تحتوي على المنظفات، وكأنها تستمد منها عونًا غير موجود.

تشاهد ألسنة اللهب وتسمع فحيحها بعيون وآذان مكذبة. وحتى هذه اللحظة لم تنتبه إلى أن النار المستعرة بلا دخان، وأن هذه النار الهائلة لم تتجاوز حدود الغرفة، حتى إنها لم تلمحها عند قدومها من الخارج برغم كثافة النيران.

بالطبع كان هذا جزءًا من الحظ الحسن الذي لن يراه الفتيان بعد اليوم، فالنار لم تغادر الغرفة، ولم يمتد تأثيرها إلى أي مكان آخر، وإلا لأتت على المنزل بالكامل وجعلتهم جثثًا متفحمة. وهذا بالتأكيد يدل على كونها نيرانًا غير طبيعية تمامًا.

أنفها المتقلص يلتقط رائحة شنيعة، وكأن هناك من يحرق جثة حيوان نافق كثيف الشعر وهذا أثار تقززها.

أما ما جعلها تترك كل شيء لتفر مغادرة المنزل، وصرخاتها لا تنقطع، هو تلك الشياطين التي كان تصطلي بداخل النيران.

إن أبشع ما رأته في حياتها يومًا، كان وجه زوجة أخيها المشوه بعد أن احترق بالكامل، عندما انفجر فيه موقد الكيروسين، هذا الوجه المشوه والذي ذابت ملامحه وطمست، ظل يطاردها في أحلامها لشهور طويلة،

هذا الوجه المشوه، كان هو الجمال المجسد بجوار الهول الذي تراه بداخل النيران.

الشر البكر.

والقبح البكر.

والرعب البكر.

لم يستطع جهازها العصبي أن يتحمل أكثر.

هل جنت ؟!

هل استحوذت عليها روح شريرة ؟!

هل قتلتها الشياطين ؟!

لا أحد يعرف أو يهتم، هي فقط غادرت، ولم تعد إلى الأبد.

شباب الحي، هم من أنقذوا المراهقين السبعة من بين أنياب الموت المحقق، خاصة وأن المنزل العتيق قد بدأت بعض جدرانه تتشقق وتتصدع، وكأن هناك زلزال محدود يضرب المنزل فقط، دون باقي المنطقة.

لحظات عصيبة مرت على الجميع، وفي النهاية هدأ الأمر، وبداخل منزل أحد أثرياء الحي، وهو المعلم (عتمان) تاجر الخردة المعروف والمشهور، تم عيادتهم وإفاقتهم.

الصمت كان إجابتهم على كل الأسئلة، الصدمة كانت تكتسحهم، لقد مروا بتجربة عمرهم، ولن يعودوا لطبيعتهم قبل وقت طويل، وربما لن يعودوا أبدا، وهذا فتح باب التكهنات والتفسيرات والاجتهادات لدى الجميع في تلك الجلسة الطارئة بمنزل المعلم (عتمان).

إن موت الشيخ ياسين حدث جلل وأصاب الجميع بالصدمة، وبرغم رؤيتهم جميعًا للغرفة المتفحمة، مازالوا لم يصدقوا تلك الحقيقة المجردة، أن من هو مثله من الممكن أن يموت.

البعض ردد وهو يبسمل ويحوقل، أن الجن قتله.

والبعض قال إنها الشياطين، وفي النهاية قال شيخ المسجد إنها أعماله الدنسة هي التي قادته للهلاك.

الجزاء من جنس العمل، فالله لا يترك فاسدًا ولكنه يمهله بعض الوقت لعله يتوب عن غيه، والشيخ ياسين كان من هؤلاء المدنسين الذين عقدوا مع الشياطين معاهدة، فجاءت نهايته في قلب نار الدنيا وغدًا يصطلي في نار الجحيم.

وكانت هذه هي الفكرة الرئيسية التي دارت حولها أحاديثهم المطولة، ولا أحد يستطيع أن ينكر أن لهجة الحديث جميعها، كانت ممزوجة بالتشفي وخاصة مع طريقة موت الشيخ ياسين البشعة واحتراق جثته.

ومجمل الحوار كان فكرة لم تقل صراحة مراعاة لمشاعري، وكأني في هذه اللحظات كنت مصغيًا أو مهتمًا، و هي أن الشيخ ياسين قد نال ما يستحق، وهو ما دفع تاجر الخردة المعلم (عتمان) ليتحدث بأريحية أكثر وهو يعدل من وضع الجلباب الذي يرتديه، قبل أن يعبث في شاربه قائلاً :

– إنها النهاية المتوقعة لكل دجال ومشعوذ.

ثم حكى بطريقة العالم ببواطن الأمور، قصة ذلك الدجال الآخر الذي كان يمارس فنون السحر السوداء في إحدى البلاد البعيدة التي زارها في بداية حياته، قبل أن يصير ذلك الثري الذي يرونه الآن، والذي كان يفسد كل عرس لم يقم أهله بطلب بركته ودفع الإتاوة التي يحددها، وذلك عن طريق التفريق بين الأزواج، لدرجة أن إحدى الزوجات كانت ترى زوجها كلما اقترب منها وحشًا مخيفًا شنيع الشكل، وكيف أن نهايته جاءت تحت عجلات سيارة نقل كبيرة، سوته بالأرض مزجت لحمه بعظامه عندما كان خارجًا من المقابر بعد أن قام بدفن أحد الأعمال السفلية بها.

وكيف أن دجالاً آخر، كان مدمنًا على الكحول الأحمر، وكيف أنه ظل يعاني من العذاب لثلاثة أيام وحيدًا في غرفته بعد أن سمم الكحول الملوث دماءه، حتى عثروا على جثته المتعفنة.

كان ما يحكيه شنيعًا، ولكن المستمعين كانوا يتابعون بشغف، وكلاً منهم يؤمن بأنه أقل مما يستحقون. وردد أحدهم أن أيام المجد القديمة قد ولت، فهم في العصور السابقة كانوا يحرقون السحرة في بلدان عدة.

شجعت حميمية الحوار الجميع، حتى إن أحدهم، وهو شاب نحيل مجعد الشر أدلى بدلوه هو الآخر في الحديث وقال :

لقد قصت علي جدتي وأنا في الخامسة عشرة من العمر كيف أن أحد هؤلاء الدجالين، استحضر جنًا لم يستطع أن يصرفه، وظل هذا الجن أسبوعًا كاملاً، يهشم في عظامه الواحدة تلو الأخرى، دون أن تمتد يد لتساعده، وفي النهاية مات في غرفته من الجوعِ والعطش والألم.

كانت حكايات يشيب لها الولدان وتقشعر منها الأبدان، وكانت النهاية لهذه الليلة الطويلة، وعندما ذهب كل صبي إلى منزله، كانت هناك عين مشتعلة بالغضب تتابعه في قسوة.

ـ ماذا حدث ؟! ـ

يقولون إن النوم بروفة يومية للموت، وهي حقيقة ساندتها بعض النصوص الدينية، وأنا شخصيًا أؤمن بها، وبالتالي أؤمن أن كل يقظة حياة جديدة يمنحها لنا الخالق ويجب أن نحمده عليها إلى آخر نفس.

ولكن ماذا عن الاستيقاظ وأنت تعلم جيدًا أن هناك من يسعى للانتقام منك ومحوك من سجلات الأحياء ؟!

ماذا عن الاستيقاظ وأنت تعلم أن الموت صار قاب قوسين أو أدنى من عنقك حتى إنك تشم بأنفك المتقززة رائحته، وتشعر بأهدابه الناعمة تداعب روحك المهشمة ؟!

هل ستستسلم أم ستقاوم ؟!

أنت في السابعة عشرة من العمر، لا تملك خبرة أو قوة أو أعوانًا ؟!

أنت فقط أمام الموت.. !!

الموت الذي أفنى قبلك من هم أكثر قوة وشجاعة وأعز نفرًا.

لنفكر سويًا، لو كان هذا الشخص بشريًا عاديًا، فربما لتوصلت لوسيلة لاكتشاف نقطة ضعفه والقضاء عليه قبل أن يقضي هو عليك.

لكنه للأسف ليس بشريًا حقًا.. !!

فهل يقتله ما يقتل البشر ؟!

إنه مخلوق من عالم آخر..عالم مظلم.. عالم لم يعرف إلا الشر.

صدقني، أنت في هذه اللحظة ستستيقظ من موت ليستقبلك موت آخر أشد قسوة.

ستستيقظ بلا أمل.. لأنك تتوقع الموت في كل لحظة.

أنت فقط ستستيقظ لتعيش العذاب قبل الموت، فالأفضل لو ظللت في موتتك الأولى الرحيمة، لأن الشياطين حين تقرر الانتقام، سيكون انتقامها أسطوريًا.

وهذه كانت حقيقة مشاعري عندما استيقظت في الصباح التالي كما اعتقدت، وبعد ستة أيام من الحادث كما أخبرني المعلم (عتمان) صاحب المكان الذي يؤويني الآن.

ظننت في البداية أن الأمر كله مجرد كابوس آخر، وسينتهي بمجرد أن أفتح عيني، وحاولت أن أستسلم لهذا التفسير المريح، ولكني عندما فتحتها وجدت نفسي في مكان غريب عني كليًا، الأثاث مختلف والصور مختلفة، والضوء يعشش في كل مكان، إنه النقيض الحقيقي لمنزل الشيخ ياسين الذي لا تكفي ألف شمس لتمحو ظلمته.

الجميع هنا غرباء عني، وهذا كله يؤكد لي حقيقة واحدة، أنني في مأزق لا فكاك منه.

انقبض قلبي عندما تذكرت الأحداث الأخيرة، وطفت على السطح كلمات تلك الشيطانة والتي أخذت تدوي بداخل رأسي، لتحيل يومي لعذاب مقيم، وظلت سحنتها المخيفة التي بدا وكأنها التصقت بعيني تورثني رعبًا لا مثيل له.

لوقت طويل لم أستطع السيطرة على جسدي وكأنني أصبت بشلل مؤقت، تذكرت والديّ، وبكيت وأنا أستجدي مساعدتهما كطفل صغير، إنها اللحظة الفارقة التي أحتاج فيها إلى من يعانقني ويربت على كتفي، ويخبرني أن الأمور ستكون على مايرام، ولكنهما رغم كل شيء مرا على عقلي كطيفين ولم يمنحاني السكينة التي أرجوها.

إنني في منزل غريب، وهناك من يعودني و يعولني ويمنحني الطعام ويحرص على راحتي. إن الأمور جيدة إلى حد ما ولكنها ليست الجنة حتمًا وليست نهاية مشكلاتي.

إلى متى سيتحملونني وإلى كم سأتمادى ؟!.. إنني خائف، وخوفي هذا يدفعني للهروب من التفكير في تلك اللعنة المخيفة التي تلاحقني.

وبرغم أن هروبي من التفكير في الأمر لن يغير من كارثيته شيئًا ولن يعني عدم وجوده، إلا أني لست على استعداد الآن لمواجهته، وهذا هو المخيف في الأمر.

لن أستطع أن أهرب من المسئولية مدعيًا صغر سني فمن هم في مثل عمري رزقوا بطفلهم الأول، وبعضهم ارتكب جريمته الأولى والبعض الآخر يواصل رحلة هروبه مطاردًا، لذا فالاستسلام لن يعني الفشل ولكنه سيعني الموت، على الأقل فلأثبت لنفسي أنني لست جبانًا أو أحمق، إن أرواح أصدقائي معلقة في عنقي بعد أن زججت بهم في هذه المغامرة القاتلة.

يجب أن أهدأ وأن أعقل الأمر، فلو نظرت لنص اللعنة لوجدت أن تلك الشيطانة الجهنمية، حددت طريقة هلاكنا عن طريق استسلام كل منا لشهوته الكبرى.

حقيقة لا أعرف ما هي شهوتي الكبرى، وإن كان من في مثل سني قد يمتلك ما يمكن أن يطلق عليه شهوة.

ما أعرفه أنه قد يكون تعلقًا أو اندفاعًا. لا أعتقد أن الشر الحق قد تمكن من أرواحنا بعد في هذه السن الصغيرة.

بالإضافة إلى أن كلاً منا ينظر لنفسه على أنه الإنسان الكامل، والإنسان الكامل يتحكم في نفسه ولا تسيطر عليه نزواته أو نقائصه، هذا إن كان يؤمن بوجود هذه النقائص.

لذا فتحديد تلك الشهوة التي ستجر كلاً منا إلى الهلاك وارتكاب إحدى الخطايا الكبرى والتي سنعاقب عليها بالموت، أمر صعب جدًا بل مستحيل أيضًا. فنظرة المجتمع للفعل هي التي تحدد درجة سوئه، فالمجتمع الذي

يسمح بتجارة المخدرات والدعارة المرخصة وبيع السلاح، لن ينظر لهذه الأشياء بالازدراء الكافي لجعلها خطيئة. ثم كيف تفوق الخطيئة خطيئة أخرى ؟! إن الأمر مطاط جدًا.

الوحيد الذي أعرف أنه يمتلك ضعفًا حقيقيًا ربما يصل لمرحلة الشهوة والمرض هو نجيب، إنه يعشق الطعام أكثر من الحياة ذاتها، وربما هي الشهوة الوحيدة التي لا يمكن إخفاؤها بسهولة. وهي شهوة قاتلة دون شك على المدى البعيد، ولكن كيف ستقتله قبل اعتلاء القمر القادم قبة السماء ؟!

باقي أصدقائي متشابهين ويميلون لنفس طريقة التفكير ولنفس النزق. ربما أعمارهم متفاوتة وظروفهم البيئية مختلفة، ولكن خيط الجموح يجمعهم.

لابد من الجلوس معهم في جلسة مصارحة، كلٌ منا يجب أن يقاوم ضعفه ولا يستسلم. هكذا نستطيع أن نهزم اللعنة.

قمر واحد فقط يمضي، ونكون قد هزمنا تلك الملعونة.

الأمر دون شك مخيف بل ومدمر للأعصاب، ولكن الاسستسلام الآن لن يعني إلا الهلاك حقًا، فقط يجب أن أواجه نفسي دون أن أجن أو أقتل نفسي، فتحقق الموت أهون من انتظاره كما يقولون.

إنني أشعر بحيرة شديدة مختلطة بخوف مريع، إن استيعاب الأمر ليس هينًا، وهضمه يحتاج إلى جالون كامل من المشروبات الغازية، وربما لن أهضمه في النهاية أو أستوعبه.

والسؤال هنا : كيف جرت الأمور بهذه السرعة ؟!

هل كان الأمر عشوائيًا، أم أن الأمر كله كان مرتبًا حقًا دون أن أدري ؟!

ما أنا متأكد منه تمامًا، أن الصدف في مثل هذه الأوقات، هي أفعال مع سبق الإصرار.

فأن نكون سبعة، وأن يوافق الجميع على القيام بمغامرة غير محسوبة في منزل الشيخ ياسين الذي يخشى أعتى الرجال الاقتراب منه، وأن يغادر الشيخ ياسين نفسه المنزل وتتبعه مدبرة المنزل عايدة – إن صح أن أطلق عليها هذه الصفة – إنها مؤامرة متكاملة الأركان.. فقط أنا من كنت أحمق ولم ألحظ في الأمر شيئًا مريبًا.

ربما لاحظت وربما لاحظنا جميعًا، وشعرنا بذلك الحضور الذي يدفعنا للولوج إلى الغرفة، ولكننا لم نبالِ ولم نفكر.

إن الأمر كله خارج الحدود الطبيعية.

ثم من هذا الأحمق الذي يقع في عشق شيطانة من الجن.

مازالت الأمور مشوشة في عقلي وغير قابلة للتصديق والتساؤلات لا تنقطع.

ماذا حدث حقًا بغرفة جدي ؟!

وهل ما مررت به كان حقيقيًا وأن جدي لم يعد على قيد الحياة، أم إنه سيثبت للجميع أنه أقوى من الموت وسيعود ؟!!

ما حقيقة هذه الشيطانة، وما حقيقة اللعنة التي ألقتها علي أنا وأصدقائي، وكيف لن يمر علينا القمر التالي، إن الأمر مخيف إلى أقصى مدى، ولابد من أن أستعين بشخص ملم بمثل هذه الأمور المخيفة، شخص يفهم فيها وقادر على التصدي لها وإنهائها.

وفي حالتي هذه لا يوجد إلا الشيخ (تهامي الحو) شريك جدي في أعماله ورذائله.

لن يفل الحديد إلا الحديد.

****

في اليوم التالي غادرت منزل المعلم (عتمان) بأطراف مرتجفة وقلب منقبض وأعصاب هشة، لم أتصور نفسي عائدًا بإرادتي الحرة إلى منزل الشيخ ياسين، بعد كل الأهوال التي مررت بها ولو للحظة واحدة، ولكن ما جعلني أوافق، أني عرفت أنها زيارة خاطفة، فقط لأحضر ملابسي كي أنتقل لبيت أحد أقربائي المجهولين والذين ظهروا فجأة من العدم ليطالبوا بالميراث.

ولك أن تتأكد من شيء واحد فقط، أنك عندما ترث دجالاً بخيلاً، فلك أن تتوقع ميراث قارون على أقل تقدير.

وهذا الميراث سيجعلك تتحمل سخافة أن تستضيف مراهقًا مزعجًا مثلي في منزلك.

لم أكن مهتمًا للحظة واحدة بمثل هذه التفاهات من ميراث وخلافه، إني أواجه مصيبة كبرى، مصيبة لا تعني أن في عمري وقت كافٍ للدخول في صراع على شيء لا قيمة له كالميراث، مصيبة لا تعني إلا شيئًا واحدًا.. أني وحيد في مواجهة هذه القوة الغاشمة الآتية من عالم آخر.. والتي فتح بوابتها شيخ أحمق ظن أن قدراته السخيفة وعلمه السطحي بأمور السحر.. قادرة على التحكم في ذلك العالم المخيف وشياطينه، إن الغرور البشري سبب كل المصائب بدءًا من صراع قابيل وهابيل حتى حماقة الحرب العالمية.

هناك من يظن نفسه أعلى مرتبة من كل البشر، ومن هنا يبدأ في استخدام كل الوسائل التي تجعل منحنى بشريته وإنسانيته، يهبط إلى أدنى مستوياته.

وتتلخص مصيبتي في أن من قررت أن أستعين به في مواجهة هذه القوى المخيفة، خذلني، وغادر هذه الدنيا ليتركني وحيدًا.

لقد مات الشيخ (تهامي الحو).

مات محترقًا هو الآخر وتفحمت غرفته، تقريبًا في نفس اللحظة التي مات فيها الشيخ ياسين، ولم يخبرني أحد بهذه الحقيقة ربما لأنه لا يربطني به صلة قرابة، أو هي حالتي المتدهورة وقتها، أو جو الشؤم العام الذي ظلل الحي، فلم أعرف إلا الآن.

وليتني ما علمت، إن وجود الأمل مهما كان مستحيلاً، يمنح طاقة هائلة من القدرة على الصمود والمواجهة، ولكن يبدوا أن هذه الشيطانة تعرفني جيدًا أو تعرف السبل التي سأسلكها، لذا فهي ستظل متقدمة عني بخطوة، وهذه الخطوة ستجعلها متحكمة تمامًا في كل مراحل اللعبة.

قط وفأر.

صياد وطريدة.

موت الشيخ (تهامي الحو) لم يكن هادئًا مثل موت جدي الشيخ ياسين، من كانوا بالقرب من المنزل حكوا أشياءً تشيب لها الرؤوس.

لابد أن شيئًا ما كان يربط بينه وبين الشيخ ياسين وبين هذه الشيطانة، وبين التيس الذي كان في الصوان الخشبي.

سحر المشاركة.. نعم هو سحر المشاركة دون شك.

أن ترتبط حياتهم جميعًا، بتعويذة واحدة، لذا كان القضاء على أحدهم هو القضاء عليهم جميعًا.

كيف كان الشيخ ياسين بهذه الحماقة ؟!

إن سحر المشاركة أعقد أنواع السحر وأشدها سوادًا، وأكثرها ضررًا خاصة مع مرور الزمن.

فالشياطين لديهم دورة حياة تفوق دورة حياة البشر، إنهم يصبرون حتى يصاب البشري بالضعف ثم ينقضون عليه مثلما حدث مع الشيخ ياسين.

فالشيء الأكيد أن التيس كان هو الوسيلة التي استخدمها الشيخ ياسين للتحكم في هذه الشيطانة، وهو ما كان يجبرها على طاعته، ويجبرها على التواجد في عالمنا طوال الوقت.

وعندما قررت الفرار والانتقام، كان لابد لها من القضاء على الشيطان المتجسد في شكل التيس، وأيضًا الشيخ ياسين وشريكه (تهامي الحو).

ما حكاه جيران الشيخ (تهامي الحو) كان مريعًا، فالنساء اللائي شهدن هذا الموقف شابت شعورهن والأطفال أصيبوا بالتبول اللاإرادي.

ففي نفس اللحظة التي احترق فيها الشيخ ياسين، شعروا بأن الجو اكفهر، ورأوا الشمس وقد غابت خلف مجموعة من السحب السوداء التي انشق العدم عنها، وانقبضت قلوبهم عندما اجتاحت المنطقة رياح ساخنة جعلت صدورهم تضيق، وأنفاسهم تتلاحق، ووجوههم تلتهب من الحرارة، قبل أن تنطلق الصرخات.

صرخات عاتية مشؤومة.. أتت من قلب الجحيم.

صرخات لم تكن صافية، ولكنها مختلطة بصوت الشيخ تهامي وهو يعوي متألمًا كمن يُشوى في سقر، أو كأن هناك من يسكب الحمم الملتهبة في جوفه.

وكالعادة لم يجرؤ أحد على التدخل لنجدته، وظل وحده يعاني لساعة كاملة حتى فارقته الحياة.

حقيقة مؤكدة ومدعمة، أن من يسلك هذا الطريق، يلقى نهايته وحيدًا على الدوام وبأبشع طريقة ممكنة.

هذا ما ردده العجائز الذين حضروا موت الشيخ تهامي ولم يفارقوا الحياة من الفزع.

أما الملاحظة التي أثارت رعبي ووترت أعصابي، هي تلك العبارة المشؤومة التي وجدت على جدار البيت الخارجي مكتوبة بالدم :

– الأول يتلاشى في اليوم السابع.

وأسقط في يدي.

إنها طريقة مشهورة لدى القتلة المتسلسلين في اقتناص الضحايا، ربما تنقص هذه الشيطانة روح الابتكار، ولكن الأمر لا يحتاج لتوابل إضافية ليكون مخيفًا، إن التهديد بالقتل له تأثيره المفزع في كل وقت.

غادرت منزل الشيخ ياسين بصحبة شيخ المسجد وبعض شباب الحي؛ الذين تطوعوا لمصاحبتنا لحمايتنا من أي شر قد يكون متواجدًا بداخل هذا المنزل.

لقد تحول المنزل لمنزل أشباح آخر. وربما لن يقطنه أحد للقرن القادم.

لم يجرؤ أي منا على مجرد النظر نحو غرفة الشيخ ياسين التي تداعت جدرانها، إنها لم تعد غرفة عادية، لقد اكتسبت شخصية مخيفة، وأصبح لها حضور يجثم على الصدور. شيخ المسجد نفسه والذي يحمل القرآن كاملاً في جوفه، لم يتوقف جسده لحظة عن الارتجاف طوال فترة وجودنا بالمنزل.

وبالفعل تمت المهمة، وقبل أن أغادر المنزل لمحت بطرف عيني ذلك الطيف يخترق إحدى جدران البيت. لقد كانت سماح تنتظرني هناك، تنتظر عودتي. وعلى وجهها المشوه لمحت ابتسامة مخيفة، فغاص قلبي في قدمي.

اليوم هو اليوم السابع.

ولا وقت للاجتماع مع أحد، خاصة وأني سأغادر على الفور إلى محافظة أخرى، إلى الفيوم فالسيارة تقف بانتظاري وتنفث العادم وكأنها ثور غاضب، كدليل على حاجتها لـ(عمرة) سريعة.

ركبت السيارة دون أن أودع أحدًا، حتى أصدقائي غادرتهم دون أن نجتمع معًا لنتباحث في أمر اللعنة التي لا يدرون عنها شيئًا.

فلينجوا كل منا بنفسه لهذا اليوم، وغدًا سأجد وسيلة لأتصل بهم وأحذرهم.

تُرى من سيكون أول الملعونين ؟!

فليرأف القدر بمن سيتلاشى اليوم.

- الجحيم -

انطلقت السيارة البيجو تنهب الأرض، غير عابئة بما يدور بداخل صدور ركباها وقلوبهم الخافقة، إنها فقط تريد أن تنتهي حتى يستريح موتورها ويستعد للرحلة القادمة.

أشعر بها تمامًا، وكأن هناك تواصل روحي بيننا، أنا وهي جزء واحد من كل عظيم، أنا وهي نعزف نفس النغمة ونردد نفس اللحن، ونتناغم كمقطوعة موسيقية حالمة.

الزمن هو هذه اللحظة اللانهائية، والمكان هو الاحتواء الكلي، أنا أفهم شعورها تمامًا، أتفاعل معها، كم هذا غريب. إن الأمر يفوق كل شعور تملّك روحي ذات يوم، كيف أتواصل مع كومة من الأسلاك والمعدن تسير بوقود عضوي فوق إطارات مطاطية.

أم هي اللعنة ؟! هل سأكون أنا الأول ؟! هل سيكون رأسي أول رأس يحصده الموت.

أنا من بدأت الأمر فلا عجب أن أكون أول المتلاشين.

توترت أعصابي للحظات ثم عدت لأستغرق في التفكير أكثر.

هل يشعر الجماد، وهل من الممكن أن يبادلنا المشاعر ؟!

لما لا.. !!

كل من يقود سيارة لوقت طويل يشعر بهذه الصلة، من يعمل على ماكينة لزمن ممتد يشعر بهذا التواصل، حتى إنه لو جرب قيادة أو العمل على واحدة أخرى من نفس النوع، لا يجدها تتفاعل معه بنفس الطريقة وتمنحه نفس الأداء.

إن الجماد يُسبح لله طوال الوقت، وهذا مذكور في نصوص القرآن، فقط نحن لا نفقه تسبيحه، ولكن هل يتفاعل مع البشر ؟!

أنا أعتبر النبات كائنًا حيًا، ومؤخرًا كشف العلماء أنه يتألم ويفرز مادة مسكنة، بل ويحذر النباتات الأخرى في ساعات الخطر بتلك المواد التي يفرزها، ولكن هذا ليس سؤالي.

إنني أصغي الآن لمشاعر السيارة.

هل الأمر حقيقي ؟! أم هو خلل حدث لعقلي من هول التجربة ؟!

هل امتلكت الموهبة أم هي طريقة فذة لإصابتي بالجنون، إن من يستمع للجماد قد يفقد عقله ببساطة من الصخب والضجيج الذي لن يتوقف، ولكني أحمد الله أن الأمر اقتصر مؤقتًا على السيارة.

هزت رأسي ونفضت أفكاري وقررت أن أتشاغل بموقفي الجديد، إنها المرة الأولى منذ سنوات طويلة التي أغادر فيها القاهرة.

في الحادث الأول غادرت من مدينة نصر إلى شبرا، أما الآن فأنا أقطع الطريق الصحراوي نحو الفيوم. التي لا أعرف عنها إلا أن أسفل مياه بحيرتها يقبع كنز قارون والذي خسف به الله وبداره الأرض، وهو شيء غير مبهج فالذي يصطفيه الله بعذاب خاص هو أشد أهل الأرض تعاسة، وبلدته لن تكون أقل منه تعاسة.

الصحراء تمتد على مدى البصر، والفكرة تداعب خلايا عقلي مرة أخرى، ماذا لو لم يمنع الله عنا صوت التسبيح القادم من ترليونات ذرات الرمال.

هل كنا لنستطيع يومًا الاقتراب من الصحراء. مع الصخب والأصوات الهادرة التي ستخرج من مخلوقات لا همّ لها إلا طاعة الخالق ومرضاته.

مخلوقات قررت أن تترك الأمانة وتتفرغ لعبادة الخالق. مخلوقات لم تصب بالغرور كبني البشر.

مرة أخرى سيطر عليّ الأمر وشتت تفكيري، ربما كان الأمر بالنسبة لي مجرد هلاوس.

فالصلة التي نشأت للحظات بيني وبين السيارة انقطعت الآن.

وبصعوبة عدت ببصري من خارج السيارة لداخلها، كنت أجلس وحدي في المقعد الخلفي الذي يتسع لفردين، وأفراد عائلتي الذين ظهروا في محيط حياتي من العدم كنبتات شيطانية، محشورون معًا في المقعد الأمامي

والأوسط، إنهم يرسلون لي رسالتهم منذ اللحظة الأولى.. أنت لست مرغوبًا فيك ولكنها الظروف التي تجبر الجميع.

الجلي الآن أنهم قد عزلوني عنهم ولم يقبلوني كفرد بينهم.

لم يتبادل أي منهم معي ولو حتى كلمة واحدة مجاملة أو مواساة، إنهم جاءوا للحصول على الميراث فقط ثم عادت معهم هذه المصيبة المتمثلة في شخصي.

قررت أن أغمض عينيّ للحظات فالطريق طويل، وهذا الصمت المخيم على السيارة يطبق على صدري، ومنظار الدنيا الأسود عاد ليغطي وجهي ليشي بطبيعة الأيام القادمة.

النوم كان مستحيلاً. ولكني فضلت أن أغمض عينيّ كي أمنحهم مساحة من الحرية في الحديث. وفور أن شعروا بهدوء أنفاسي، وأيقنوا بنومي بدأ الحديث وظهرت كمية الجشع والسعادة التي يشعر بها كلٌ منهم لفوزه بجزء من وليمة الميراث.

فالشيخ ياسين رجل ثري.. عكس ما أعرف تمامًا !!

لديه حساب متضخم في البنك يتعدى الأصفار الستة، كما أنه يمتلك ثلاث عشرة قطعة أرض استولى على بعضها من الفلاحين عن طريق أعماله

الشيطانية، ويمتلك أيضًا ثلاثة بيوت غير الذي مات فيه، ولديه نصف السوبر ماركت الموجود في شارع شبرا. غير ما ورثه عن ولده المتوفى.

ثروة هائلة تكفل لهم ولأحفادهم عيشًا رغيدًا، خاصة مع ارتفاع أسعار الأرض الجنوني.

بعد النشوة والفرح جاء همزهم ولمزهم على مصيبة تواجدي، وحاول كلٌ منهم أن يلقي بعبء إيوائي على الآخرين، وفي النهاية قرروا أن أقضي عامًا كاملاً عند كل منهم على أن يبدأوا من الأكبر للأصغر سنًا.

كسرني هذا الجفاء والجحود وقررت بداخلي أني لو عبرت هذه المحنة، أن أهرب حتى أبلغ سن الرشد ثم أعود مطالبًا بميراثي.

****

هبط الليل، ومعه غاب الجميع عن الوعي ماعدا السائق بالطبع، إن المسافة طويلة ومع الازدحام المروري لا أمل في أن يصلوا قبل عدة ساعات.. يبدو وجه السائق في المرآة الداخلية كئيبًا، والظلام يغلف كل شيء كما لو كان لوحة لفنان مجنون لا يملك إلا اللون الأسود.

الطريق خالٍ.

لا صوت إلا صوت المحرك فراديو السيارة لا يعمل.

السائق يتململ ثم يشعل سيجارة تشي رائحتها بكونها غير بريئة، وكل عدة دقائق تتجاوزنا سيارة مندفعة. ونحن مازلنا على سرعتنا التي لم تتجاوز التسعين كيلومترًا في الساعة.

وفي لحظة ما قرر السائق أن يطلق العنان لسيارته. لابد أن الحشيش لعب في رأسه.

وكفهد سريع انطلقت السيارة تنهب الطريق وتخترق قلب الظلام.

متى ظهرت سماح ؟!

لا أستطيع أن أحدد تقريبًا، ولكن بين حالة اليقظة والنوم التي انتابتني، لمحت شبحها يظهر من قلب العدم في منتصف الطريق، وعلى بعد عدة أمتار من السيارة المندفعة ليطير النوم من عيني.

السائق فقد أعصابه من اللحظة الأولى، ومع السرعة العالية، وفقدان التحكم الكامل، كان لابد من وقوع الكارثة.

شبح سماح بعينيه الحمراوين المتألقتين يعترض السيارة، السائق يصرخ في رعب ليستيقظ الجميع.

المرأة الشمطاء التي لا أعرف اسمها تحتضن ذلك البدين الذي لا أعرف اسمه أيضًا، والذي يبدو أن قلبه لن يتحمل هذا الموقف العصيب و سيتوقف قبل الاصطدام الوشيك.

الرجل ذو النظارة السميكة متصلب وكأنما استحال لتمثال من الشمع، والسيدتان ذاتا الرداء الأسود تصرخان دون توقف.

أما أنا فقد نظرت إلى عينيّ سماح التي انعكست في كل شيء، المرآة الداخلية والمرآة الخارجية ووجه القمر، ثم نطقت الشهادتين وانتظرت الموت.

اختلت عجلة القيادة في يد السائق، فاندفعت السيارة كالصاروخ، لتمزق ذلك السلك المعدني الذي يفصل الطريق لحارتين، لتقابلها سيارة نقل ثقيلة، تحمل على ظهرها أسياخ الحديد المشرّعة كالرماح.

وما حدث في اللحظات التالية كان مخيفًا.

فالسيارة بعد أن صدمتها سيارة النقل المسرعة، طارت في الهواء وحلقت للحظات كنسر مكسور الجناح، قبل أن تصطدم بالأرض في قوة، ثم أخذت تنقلب على جانبيها عدة مرات في عنف، قبل أن تتوقف ويسود الهدوء كل شيء.

****

ما سأحكيه الآن يدخل في سياق الشطط والجنون، بل آخر درجات الجنون.

الشطط لأني أنا شخصيًا لا أصدق حتى هذه اللحظة أني مررت به، والجنون لأنه شيء من وراء العقل، خارج عن المألوف، شيء مخيف.

إنها اليقظة المرعبة.

فضحية أي حادث سيارة عادي، لديه عدة خيارات معروفة، فإما أن يستيقظ في مستشفى أو في عيادة محاطًا بالأطباء والضمادات، أو على الطريق بعظام مهشمة غارقًا في دمائه، أو لا يستيقظ أبدًا.

الخيار الرابع غير موجود في الظروف الطبيعية. وأنا قد مررت بهذا الخيار غير المألوف.

فاللحظة التي اصطدمت بها السيارة بالأرض بعد أن قذفتها سيارة النقل إلى جانب الطريق، كانت هي آخر لحظات الوعي التي حظيت بها في هذه الليلة.

الظلام أحاط بكل شيء كرداء قاتم، ثم ساد الصمت للحظة واحدة، وبعدها استيقظت.

كل أجهزة جسدي تخبرني بأني استيقظت، ولكن عقلي يأبى أن يؤرخ هذه الحقيقة. فما يحيط بي لا يوحي بالاستيقاظ أبدًا.

المكان من حولي غريب، وكأني استيقظت في قلب العدم، جسدي سليم غير مصاب وهذا شيء مستحيل لأن الزجاج الذي تهشم لابد وأنه شوه وجهي، وبرغم ذلك بشرتي ناعمة كبشرة طفل حديث الميلاد. الظلام كثيف وثقيل، ورغم ذلك الرؤية ممكنة بل وواضحة.

إنه الجنون الحق.

كل شيء يوحي بأن الأمور تسير بخير، وبرغم ذلك كل الأشياء تنفيها، ثم كيف عاد إصبعي المبتور، إن مثل هذه الأشياء لا تنمو ببساطة، وإلا لجلس الأطباء في بيوتهم، فالأجزاء التي تتلف أو تقطع من جسدي لن تعود للنمو، أنا لست أميبا وحيدة الخلية لأعيد إنتاج أطرافي.

عادت لي ذاكرة الحادث فنظرت حولي بحثًا عن مصابين أو قتلى ولكن لا شيء.

ظلام متدرج ممتد إلى مالا نهاية.

إنني وحيد بقلب العدم.

لا سماء.. لا شمس.. لا قمر.. لا طريق.. لا بشر.

فقط كتلة هائلة من السواد تحيط بي، مع فراغ لا نهائي، أسير فوق أرضية ناعمة لا تحدث احتكاكًا مع قدميّ. بقلب اللامكان.

دقائق عصيبة مرت عليّ وأنا أحاول اكتشاف ما يحدث. أو أضع له تفسيرًا معقولاً.

ولكن كل الأفكار كانت قاصرة.

هل فقدت بصري ؟! أم أنا الآن في القبر ؟! هل هذا السواد هو البرزخ الذي يقود نحو الموت. أم أنني أهذي ؟!

إنه تفسير مريح، ولكن ما هو الدليل على صحته ؟!

تاهت الأفكار من عقلي مع عجزي التام عن تفسير الأمر أو سبر أغواره، وعندما فقدت كل أمل في الفهم وتحول الأمر معي إلى هستريا وصراخ، بدأت التغير يحدث وفي البداية سمعت الأصوات.

لابد وأنني جننت وما أعيشه الآن هو هلاوس سمعية وبصرية.

بدأ الأمر بصوت أجراس عالية، وكأن هناك من يقرع مئات من الآنية النحاسية بقضبان معدنية، الأصوات ليست عشوائية ولكنها عالية جدًا حتى تكاد تخرق طبلتي أذني.

إنها أصوات متناغمة كترانيم متوحشة تدعو للقتل.

إنها تبدأ من نقطة الصفر ثم تعود لتتصاعد فتجرح روحي وتمزق كياني، إنها هراوات موسيقية مدمرة.

الدماء تخرج من كل فتحات جسدي، الألم مفرط في حدته، العذاب أبدي ومستمر.

لحظات ثم صمتت الموسيقى وبدأت الصرخات المزلزلة، لقد وصف دانتي صرخات المعذبين عندما وصف الجحيم في الكوميديا الإلهية.

إنها صرخات مشابهة، تحس معها أن قلب الكون ذاته ينفطر ألمًا عند سماعها.

إنها الأرض البكر للألم والعذاب.

أشعر بروحي ترتج داخل جسدي وكأنها على وشك الانفصال.

الموت هو مطلبي الوحيد.

الموت هو الراحة التي أصبوا إليها.

إن جلدي يتشقق، أطرافي تتساقط، إنني أتألم كألف روح تُمزق.

إن هذا العذاب لا يوجد إلا في الجحيم.

إنني أندمج في دوامة الألم الكبرى.

لا أذكر من الحياة إلا الألم أو ما فوق الألم.

أتهيأ للموت برغم معرفتي بأنني قد عبرت هذه المرحلة.

إنني في الجحيم حيث كل شيء أبدي.

الألم أبدي.

العذاب أبدي.

الحياة أبدية.

إنني هنا سألقى العذاب الذي لا راحة بعده.

الرحمة يا رب الأكوان.

****

فجأة هدأ كل شيء، وتلاشت الأصوات وتوقف الألم، ولكن ذكراه ظلت جاثمة في المكان لتشوه روحي.

جسدي عاد سليمًا كأنما خُلقت به منذ لحظات، بصري عاد ليصطدم بالظلام وهو مازال قادرًا على الرؤية في وضع جهنمي مستحيل.

قلبي لابد وأنه توقف عدة مرات قبل أن يعود ليخفق من جديد.

أين أنا ؟!

هل أنا في الجحيم حقًا ؟! ولكن ليس هذا هو وصف الجحيم كما أتى في الكتب السماوية، ولكن من أدراني.

ربما هو جحيم آخر.

هل لتلك الشيطانة يد فيما يحدث لي.

تلفت حولي في رعب.

إنني لن أتحمل العذاب مرة أخرى، بإمكاني أن أصمد لو أن الموت هو النهاية، ولكن الأبد شيء لا أفهمه ولا أستوعبه.

لحظات ثم بدأ الصرير، وفجأة انشق العدم بضوء ساطع، عن كائن قبيح مخيف لا ملامح محددة له، يحمل في يده سوطًا يتلوى وكأنه يموج بالحياة.

هل ما يتلوى في مقدمة السوط هي أفاعي ذات أنياب أم أني أهلوس ؟!

تلك الضحكة الماجنة الشيطانية سمعتها من قبل ؟! ولكن أين ؟!

نعم تذكرت. قبل أن ألج لغرفة الشيخ ياسين، ليتني مت قبلها أو لم تلدني أمي من الأساس.

إنها سماح.. الشيطانة.. إنني في جحيمها الخاص.. لابد وأنها تسيطر على عقلي كما سيطرت عليه من قبل وجعلتني أقتل الشيطان.

المخلوق المقزز يقترب مني وعيناه السائلتان تتألقان ببريق وحشي، وأنا أتراجع في خوف، إلى اللامكان.

المسافة بيننا تتقلص بسرعة، وخلف ذلك المخلوق المشوه رأيت أبشع مشهد يمكن أن يسقط عليه بصري في حياتي، ففي تلك النقطة حيث انشق العدم وظهر المخلوق الجهنمي، تألقت محيطات هائلة من النيران

تقذف موجات عالية كالجبال من النيران المستعرة والحمم، ووسطها ما بدا وكأنهم بشر يحترقون، مئات الآلاف من البشر.

جلود تحترق.

شعور تتوهج.

أطرف تتساقط.

عظام تشتعل.

عيون تنفجر.

شياطين من لهب يعتصرون بقبضاتهم النارية الرؤوس والقلوب، وكأن هذا الشق، نافذة على الجحيم.

هذا المشهد جعلني أنسى كل شيء حتى المخلوق المخيف الذي أكاد أشعر بأنفاسه الملتهبة تضرب وجهي.

هذا هو الجحيم الحقيقي الذي وُعد به القتلة والسفاكين والزناة والمنافقين والمرتشين.

الجحيم الأبدي.

امتصني المشهد تمامًا، وعندما هبط السوط الملتهب على وجهي ليشق لحمي عرفت أن للألم درجات لم أتخيل الوصول لها !

ثم دوى صوت سماح الشيطاني :

– ستظل في الجحيم حتى يحين موعدك، وساعتها ستتمنى لو أنك بقيت في الجحيم على أن تلقاني، لأن موتتك ستكون أقسى من الجحيم ألف مرة، وأشد عذابًا من عذاب كل الخطاة مجتمعين.

صرخت في عنف.

لعنتها..

نعتها بأقذع الألفاظ.

وعندما عاد السوط ليمزق لحم ذراعي ويبتر كفي، عرفت أنه لا يوجد مخلوق في الكون سيستطيع مساعدتي. وربما كان القدر أرأف بأصدقائي مني.

إن الخطايا السبع قاتلة، كما قال دانتي في الكوميديا الإلهية. ولأننا كنا سبعة فلابد وأن نخوض الجحيم حتى أطرافه. وليسعد من سيحتضنه الموت اليوم فقد نجا من العذاب.

هل عرفتم لماذا لم أستطع أن أحذر أيًا من أصدقائي ؟

آه.. أرجوووك.. توقف إن الألم ساحق.

لا تستخدم السوط من جديد.

٠١
اللعنة الأولى ـ الشراهة

عرفها دانتي على أنها : هي النهم والجشع في المأكولات والمشروبات، مرتبطة بإله الظلام **Beelzebub** ملك الذباب، واللون البرتقالي.

أنا الشراهة.. والداي ماتا كلاهما.. ولم يتركا لي شيئًا..إلا معاشًا ضئيلاً .. وهو يشتري لي ثلاثين وجبة في اليوم.. وعشر كؤوسٍ من الشراب ..وهذا قدر ضئيل ليسد الرمق.. لقد ولدت من سلالة ملكية.. فوالدي كانا فخذ عجل مقدد.. ووالدتي كانت برميلاً من النبيذ الأرجواني..

لقد كانت سيدة مرحة.. ومحبوبة كثيرًا في كل مدينة.. كان اسمها السيدة مارغري البيرة.. والآن يا أنت.. لقد سمعت كل شيء عن أسلافي.. ألا تدعوني للعشاء.. !!

- رشاد -

قبل أسبوع :

يقول نجيب :

إنني مختلف تمامًا عن الآخرين، وربما لا أشبههم في شيء إلا في الحماقة.

والدي يخبرني دائمًا أن عقلي ثخين ولا يستوعب الأمور بسهولة، ولولا شخصية والدتي الكاسحة لكنت خارج المدرسة منذ زمن طويل، أعمل في ورشة الحدادة الخاصة به، وسط النيران والحديد المنصهر والقلوب الغليظة، أتلقى الصفعات من والدي طوال الوقت ، وأرى خيبة الأمل في عينيه.

في كل صباح وعلى مائدة الإفطار ينظر لي أبي في اشمئزاز، وهو يجيل عينيه في جسدي البدين، ثم يشيح بوجهه قائلاً :

– فقط النيران.. هي التي تستطيع أن تذيب هذه الكتل المتراكمة من الدهون والشحوم.. الورشة هي الحل الوحيد لمعضلتك.

كانت أمي تتصدى له وتطيب خاطري وكأني أبالي.. لقد اعتدت حديثه القاسي هذا، حتى إنه لم يعد يثير بداخلي أي نوع من المشاعر.

إنني عنيد جدًا، ولو كان الأمر بيدي لما غيرته للأفضل..

إن العناد يولد الكفر ذاته.. العناد هو ما جعل الشيطان لا يراجع موقفه عندما سجدت الملائكة لآدم. برغم أنه كان في حضرة رب العالمين.

أنا أعرف أن المشكلة ليست في الطعام نفسه، فلي صديق آخر يلتهم مثل ما ألتهم وربما أكثر، ولا يتأثر جسده بما يتناوله أبدًا، بل هو مستمر على نحافته كإصبع الموز النحيل، وكأن معدته موقد عملاق يحرق كل ما يلقى بداخلها أولاً بأول.

إن جيناتي هي السبب، وإن كنت فعليًا أعشق تناول الطعام، وهذا ما جعل والدي – كتلة العضلات المتحركة – يتمنى لو أنه أنجب ابنة بدلاً عني، فلم يكن ساعتها ليأبه بحجمها أو بعضلاتها الضامرة المختفية تحت كتل الدهون. لأنها في النهاية ستذهب إلى رجل آخر، والرجال الذين يقدرون الأنثى بوضعها في الميزان يزدحم بهم العالم.

لم أتقبل يومًا طريقة معاملة والدي لي.. إنه يقسو عليّ دائمًا، والدتي تخبرني أنه يريد صالحي، فشقيق والدي مات بسبب السمنة من قبل، كما أن كل أب يتمنى أن يجد ابنه في ظهره، يستند على ساعده عندما تقسا عليه ظروف الحياة. ولكني غير مقنع بكل هذا، وغير مبالٍ كذلك.

لقد رفع أبي بيني وبينه سدًا عملاقًا، لن تكفي كل الكلمات الناعمة من أمي لهدمه، كما أنني ذو رأس صلب، وكلما ساءت الأمور بيني وبين أبي، كنت أسلك طريق العناد وأدفن ضيقي وحزني في الطعام، إنه رفيقي الوحيد الذي

لم يخذلني مرة واحدة، إنه اللمسة السحرية في اليوم كله، إنه الشيء الوحيد الذي يمنحني النشوة.

تلك النشوة التي لا يقدر حتى الحشيش على إيصالي لها.

الطعام..

من لا يعشق تلك الكلمة السحرية.

أحب الطعام في كل مراحل إعداده، وكنت ألتهم أصابع المحشو نيئًا قبل طهوه، وعندما تنهرني والدتي وتخبرني أن الطعام النيء سيؤذي معدتي، كانت جدتي تلومها، وتقول لها المقولة الشهيرة :

– النيء في معدة الشباب ينضج.. كم أنتِ عظيمة يا جدتي !!

لذلك فعند عودتي من تلك المغامر الشنيعة في منزل الشيخ ياسين، كنت محطم الأعصاب، أبكي كفتاة واجهت منذ لحظات ذلك السفاح الذي تهرب منه كل الفتيات الأخريات، ولأني لا أملك إلا نهمي في مواجهة التوترات، قضيت على نصف الطعام الموجود في الثلاجة، قبل أن أخلد لنوم عميق بلا منغصات.

لابد وأن الدهون تسد قنوات البث الخاصة بالأحلام.

****

وفي الظهيرة كنت قد استجمعت شتات نفسي، وقررت أن التأثير السلبي لتلك التجربة المخيفة لن يبرح روحي إلا ببعض الحديث، شخص ما يستمع ويستمع وأفرغ على يديه توتري، إن قلبي مازال منقبضًا، وقدمي مازالت ترتجف من هول ما واجهته في منزل الشيخ ياسين.

هل ما حدث حدث فعلاً ؟!

إن للخوف تأثيره الكاسح، على العقل، إنه يجبر العقل على استخدام كافة دفاعاته، وعقلي بالذات يميل إلى إنكار المشكلة عندما لا يستوعبها. لم يكن عندي خيارات كثيرة لأفاضل بينها، وعلى الفور استقللت سيارة أجرة، وتوجهت إلى منزل رشاد.

لا مدرسة اليوم، لا يوجد بداخل رأسي عقل صالح لتلقي أي معلومة، كما أن موقع تنزانيا سيبقى كما هو، ولن يغير فيثاغورث في القوانين الرياضية، ولن يحذف أبو الأسود الدؤلي النقاط من فوق الحروف، لمجرد أنني لم أذهب إلى المدرسة ليوم واحد. لابد من شخص يحتويني ويخبرني بأن الأمور ستصبح أفضل حتى ولو كان خداعًا.

رشاد هو أكبر أفراد الشلة، سيبلغ الخامسة والثلاثين بعد عدة أيام، وهذه المعلومة قد صدعنا بها لأنه ينوي القيام باحتفال أسطوري في عيد ميلاده القادم. لأنه يوم خاص جدًا في حياته ويستبشر به كما يدّعي، ففيه حدثت له كل الأمور الجيدة، ويكفي البشرية فخرًا، أنه اليوم الذي كللها فيه بالغار

عند مولده. وهو شيء لا أستوعبه تمامًا، إن يوم الميلاد يوم كأي يوم آخر، فقط من يستفيد منه، الذين يحصون عمرك لتصل لسن المعاش كي تغادر لتترك موقعك لمن يليك.

ورشاد غريب الأطوار إلى حد ما، ورث عن جده رجل الأعمال الثري الذي كان يهيم به حبًا مبلغًا ضخمًا من المال، هذا غير قطعة الأرض الشاسعة في الساحل الشمالي والعقارات، ولأن والديه غارقان في دوامة جمع المال، لم يباليا بما يفعل، طالما لا يعترض مجرى المال المتدفق.

تزوج مرة واحدة ومنحهما طفلين جميلين ثم أخذت الرياح كل وعود الزواج الجميلة، وبوجود الطفلين معهما لم يعد مدينًا لهما بشيء.

لا أعرف كيف انضم لشلتنا الغريبة، ولكنه في وقت قياسي صار الأب الروحي للشلة وحائط المبكى الذي نشد الرحال إليه كلما ضاقت بنا الحياة والسبل، إنه مستمع جيد كما أن شقته لا تخلو من الطعام والمشروبات وبعض الأشياء الأخرى المثيرة.

قصدته بعد صلاة الظهر بساعة، ووجدت بالفعل أن حالته مزرية هو الآخر.. التجربة فاقت كل تحملنا دون شك، لست وحدي الواهن إذن، جميعنا نعاني من تبعات الأمر، وإن كانت حالتي أنا – ويا للعجب – تبدو أفضل.

النوم..

إنه لم ينم، ولو لحظة واحدة هذا يبدو واضحًا على عينيه الحمراوين، وأجفانه المنتفخة والسواد الذي غزى أسفل عينيه، وعلى المنضدة المجاورة توجد منفضة سجائر قد فاضت بالأعقاب، لتحدد حجم المأساة الحقيقي. لقد أخطأنا جميعنا عندما أنصتنا لأمجد.

لا يبدو أن رشاد سيمثل حائط مبكى جيدًا اليوم، كما أن مزاجه غير رائق أبدًا هذا واضح من عصبيته، إن القلق محفور على وجهه بأزميل غير حاد.

إن التجربة التي خضناها كانت مروعة.. من يصدق ما حدث !!

أشعل سيجارة جديدة برغم أن الأولى مازالت مشتعلة في المنفضة، وأخبرني أنه قضى أسوأ ليلة في حياته، الكوابيس ظلت تطارده طوال الليل، والشياطين تحاول النيل منه دون هوادة، كما أن زوجته السابقة لم تتوقف عن الاتصال به على هاتفه المحمول، وكلما أجاب لا يسمع إلا صدىً وفحيحًا مخيفًا.

الحيرة كانت مرتسمة على ملامحه، ولسان حاله يقول :

ما علاقة كل هذا ببعضه ؟! إن عقله يكاد أن يذوب من حدة التفكير.

إنه مؤمن تمامًا بوجد الجن والشياطين لأنه تم ذكرهم في القرآن الكريم، واقتصار الأمر على وجودهم هناك، كنصوص بداخل الكتب المقدسة،

جعلهم بعيدين جدًا عن حدود عالمه، وجعله لا يضعهم أبدًا في حساباته كأذىً مستقبلي محتمل.

ولكنهم الآن ملء العين والبصر، وهو خائف جدًا.

خائف من المجهول.

خائف من أشياء لا حدود لها، أشياء لا تلتزم إلا بقوانينها الخاصة.

كيف كان الشيخ ياسين يتعايش مع كل هذا الهول ؟!

لابد وأن قلبه قد مات منذ زمن بعيد !!

أخبرته أن الأمر كله قد لا يكون بالسوء المتوقع، بل هو ناتج عن تلك التجربة المريعة التي قمنا بها، وبدا عليه أنه غير مقتنع تمامًا، لقد واجه الرعب والموت، اقترب كثيرًا حتى كاد يحترق، ولكن ما كان يشغله أكثر هو مكالمات الهاتف الغامضة.

إن زوجته خارج البلاد، فكيف يأتي الاتصال من رقمها المحلي.

هل تركته مع أحد ليعابثه، ولكن لماذا تتذكره الآن ؟! لقد مر أكثر من عام على آخر لقاء تم بينهما !!

ولماذا في هذه الليلة بالذات ؟!

إنها أذكى وأعقل من ذلك، لابد أن في الأمر خطأً ما.

أخبرته أن المصائب لا تأتي فرادى.

ولكنه لم يقتنع.

إن المصيبة التي تعرف رقم هاتفه، لا علاقة لها بالمصائب الأخرى.

****

اندمجنا في الحديث، وطرحنا النظريات ولم يقطع نقاشنا إلا صوت جرس الباب، وكان القادم أفضل عامل في مصر، عامل توصيل الطلبات للمنازل.. إن للبيتزا وضعًا خاصًا في قائمة طعامي، ربما تلي المحشو مباشرة. لذلك كانت بهجتي لا توصف.. فأن يكون صديقك مطلقًا وثريًا فلك أن تتوقع ما لذ وطاب من تلك الوجبات السريعة المبهرة. لا توجد زوجة متسلطة تعد طعامًا لا يؤكل، ولا أطفال مزعجون ينغصون عليك جلستك. أنت وصديقك فقط وعلبة البيتزا العملاقة، إنه المشهد الأكثر إثارة في اليوم كله.

توجهت صوب الحمام لأغسل يديّ، وأمام المرأة قررت أن أهيل الماء على رأسي عل الماء يلطف من حرارته. وعندما رفعت رأسي رأيت الوجه المخيف والعيون المشتعلة في انعكاس المرآة، ولمحت تلك الأصابع المخلبية تشير لي، بتلك الإشارة التي تمثل الذبح والتي لا تعني إلا التهديد بالموت.

هززت رأسي بعنف لأنفض تلك الرؤى المخيفة، وعندما عدت ببصري إلى المرآة، كان سطحها المصقول لا يعكس إلا وجهي الممتلئ والذي غاضت منه الدماء، وعندما هممت بتجفيف وجهي بالمنشفة شعرت بألم حارق في معدتي، وكدت أتقيأ..كان ألمًا عنيفًا لم أختبره من قبل بهذه الحدة، إنها قرصة الجوع أعرفها جيدًا، ولكنها لم تكن من قبل بهذه الطريقة العنيفة.

خرجت من الحمام مسرعًا، والدموع تكاد تهطل من عينيّ، والبيتزا تحتل كامل كياني.. نظرت إلى علبة البيتزا في نهم حيوان متوحش شم رائحة الدماء بعد طول حرمان، وكدت أخطفها من يد رشاد، لولا أن تماسكت بصعوبة.

الجوع المفاجئ صدمني.

إنها المرة الأولى التي أرى فيها الطعام فتتقلص معدتي بهذا الشكل.

لابد وأن أقوم بعمل بعض التحاليل، إن جارنا كان يعاني من الديدان في معدته فربما أصبت بها مؤخرًا، لم يكن عليّ أن ألتهم تلك الكبدة غريبة الشكل من فوق تلك العربة مجهولة المصدر أثناء قدومي.

لقد شكك أمين ذات يوم في نوع هذه الكبدة، فضخامة الشطيرة لا تتناسب أبدًا مع سعرها الزهيد ولا سعر الكبدة في السوق، وها هي النتيجة.

شعرت للحظة بألم فائق في بطني، وكأن هناك من يسكب الحمض في معدتي، فكدت أصرخ لولا أن تمالكت نفسي وانقضضت على علبة البيتزا وكياني كله مركز على تناول الطعام، الذي وجدته الأسلوب الوحيد والفعال لإسكات الألم.

انهمكت في التهام الطعام وأنا أشعر أنه مع كل قضمة يضاف لون جديد للحياة، وتتراجع موجات الألم، في حين انشغل رشاد في احتساء زجاجة باردة من البيرة ومراقبتي، لقد عافت نفسه الطعام الذي طلبه لسبب ما، كما أنه بادي الاضطراب، لابد وأنه يخفي عني شيئاً ما. وعندما بدأت في تناول المياه الغازية، لم أتوقف إلا بعد أن أنهيت اللترين بالكامل وعلى مرة واحدة.

معدتي تتقلص ولكن الألم يجبرني على المتابعة وتناول الطعام، وعيون رشاد المتسعة تخبرني أن ما أقوم به مخيف. ورغم ذلك لم أتوقف لحظة واحدة، ولم يعلق رشاد.. لابد أن الذهول ألجم لسانه.

وعندما شارفت على الانتهاء من البيتزا ذات الحجم العائلي، تركني ليذهب إلى الحمام، وأخذت أنا أعب من زجاجة البيرة الأخرى حتى أنهيتها دفعة واحدة، شعرت بامتلاء مريع.. ولكن التوقف كان دربًا من الخيال.

الألم قلت حدته للحظات ثم عاد كموج هادر. هناك شيء ما أريده ولا أعرفه. هل أنا جائع حقًا ؟!.

لحظات ثم تعالى صوت رنين هاتف رشاد المحمول، فأتى صوته غير الواضح من الحمام يخبرني بأن أجيب على الهاتف أو خيل إليّ ذلك.

وعندما ضغطت زر إتمام الاتصال، ووضعت الهاتف المحمول على أذني سمعت صوت الفحيح المخيف، فانقبض قلبي ، وشعرت بغصة في حلقي.

لم يكن فحيحًا مبهمًا كما ظن رشاد.. إنه صوت أنثوي يتوعد، ولكنه كان مشوشًا، وإن استطعت بصعوبة التقاط بعض الكلمات :

– إنه دورك.. أنت الأول.. أبواب الجحيم تهلل بانتظارك.

- الجوع -

صدمتني الكلمات وهبطت على أذني كالصفعة، حتى إنه فلتت من بين شفتيّ صرخة مكتومة تعبر عن هلعي وفزعي، ودون إرادة ألقيت الهاتف المحمول من يدي فسقط فوق الموكيت والفحيح مازال يصدر عنه.

تراجعت ملتصقًا بالمقعد وكل خلية في جسدي ترتجف من الرعب، ما هذا الصوت الشيطاني، وكيف استطاعت زوجة رشاد أن تقوم بهذه الحيلة المخيفة، إن هذا الفحيح يحطم الأعصاب.

شعرت بالألم يتصاعد في معدتي والعصارة تحرق جدرانها وتكاد روحي أن تُزهق.. سيطر الرعب على أحاسيسي، وعندما حدث التجسد، كنت خارج الشقة بل العمارة كلها، أعدو بلا هدف في الشوارع، وقد شاب شعري.

فعندما نظرت لشاشة الهاتف المحمول، كان اسم لبنى زوجة رشاد السابقة يتذبذب، لحظات وخرج بخار متراقص أسود اللون وأخذ يتشكل في هيئة مخيفة شيطانية أفزعتني وجمدت الدماء في عروقي، مصحوباً بصرخات مدوية وكأن هناك من يُمزق وهو على قيد الحياة، ثم أصبح المكان شديد الحرارة، وأخذ الهواء يتلاشى من المكان.

صرخت من الرعب وبصوت لابد وأنه أفزع كل سكان العمارة وقررت الفرار. أي شيطان هذا الذي سيخرج من الهاتف، لو كان مصباحًا قديمًا لتوقعت خروج جني ما، ولكن قلبي المنفطر يخبرني أن ملك الموت هو من

سيخرج عبر الهاتف، لسنا في ألف ليلة وليلة على كل حال. ولست أنا علاء الدين، ثم إن ألف ليلة وليلة لم يكن فيها هواتف محمولة.

لم أنتظر لأعرف ما سيحدث عند انتهاء التجسد، يكفي الفحيح الذي عمّ المكان والرائحة الكبريتية الكريهة التي آذت أنفي.

لا أعرف كيف عدوت بمثل هذه السرعة الفائقة، لقد قطعت عدة كيلومترات في دقائق معدودة، قبل أن أتوقف بأنفاس لاهثة متلاحقة والطعام يكاد يثب عبر حلقي وجسدي البدين يترجرج و لا يتوقف عن الارتجاف، وعندما سكن جسدي سقطت على ركبتيّ باكيًا فوق عشب تلك الجزيرة الخضراء الموجود عبر الطريق وسؤال قاتل يدور في رأسي :

إننا بالنهار، فكيف تخرج الشياطين بالنهار ؟!!

تعاظمت الآلام بمعدتي.. صرخت كمن بتروا له ساقه وهو مستيقظ. لحظات كاسحة من الألم.. ثم فقدت الوعي.

****

لا أعرف كم بقيت فاقدًا لوعي، ولكني عندما استيقظت كانت النجوم في السماء والألم في معدتي لا يقاوم.

ما هذا الجوع العنيف ؟! وكأن هناك من يحرق أغشية معدتي باللهب، أو لعلي أصبت بقرحة معدية لا يهدّئها إلا الطعام.

لقد أنساني الألم العنيف الهول الذي رأيته منذ لحظات بشقة رشاد، وتكفل الذباب بما تبقى من تعقلي.. إنني سأجن حتمًا، أسراب هائلة من الذباب تهاجمني في شراسة، وتكاد تصيبني بالعمى.

إنني أستحم كل يوم فما الذي يجذب الذباب لي، ولماذا هو بهذه الكثافة وهذه الضراوة ؟!

ماذا يحدث لي حقًا، أي لعنة تطاردني ؟!

تكالبت أسراب الذباب عليّ ففررت منها، وطنينها يكاد يفقدني صوابي، وتلك الذبابة التي ابتلعتها جعلتني أتمنى لو أنزع حلقي.

يا إلهي.. أي جحيم هذا.. إن الذباب يطاردني.. ومعدتي تتمزق.

لن أستطيع التحمل أكثر.

أعتقد أن الموت سيكون أكثر رأفة.

شيطانة.. وذباب.. وجوع قاتل.. إنها حياة لا تستحق دون شك.

تلك السيارات المسرعة في الطريق ربما تكون الحل.

بل هي الحل.

المصباحان يعميان عينيّ ولكني أغمضهما من الذباب، صوت احتكاك إطارات.

صوت لا أميزه يصرخ طالبًا مني أن أحترس.

توقف الزمن للحظة، ثم شعرت بالارتطام. يا إلهي كم مرة سأفقد الوعي اليوم.

ربما ليس الوعي هذه المرة.. !!

****

عندما استيقظت، التقط أنفي رائحة المطهرات، ثم سمعت كلمات ساخطة، وتلا الأمر صوت هسيس مرتفع، ليتسلل إلى أنفي رائحة مبيد الحشرات القاتل، ثم التقطت أذنيّ الطنين المزعج. وسمعت السبّة..

حاولت أن أحرك جسدي ولكني لم أستطع، أشعر بثقل هائل يكبل صدري وقدميّ...أين أنا ؟!

شعرت بتشوش لفترة من الزمن، قبل أن يقوم مخي بتشغيل برنامج النوافذ الخاص برأسي. ثم تذكرت كل شيء، وكلكمة مؤلمة عاد لي إحساسي بجسدي، وفي اللحظة التالية كنت أصرخ من الألم في معدتي..

– إنني جوعان.. بل أكاد أقضي جوعًا. أحضروا لي كل ما لديكم من طعام، الرحمة.. الرحمة.

الألم غير محتمل ..هناك آلام مختلفة في جسدي ولكن آلام المعدة تمحوها كلها.

الرؤية منعدمة تماما ،وكأن هناك شخص ما قد غطى عينيّ بضمادة من القطن، أو أن كلتيهما أصيبتا في الحادث.

جسدي يرتجف من هول ما أقدمت عليه ، هل جننت كي أقتل نفسي، أي شيطان تلبسني في هذه اللحظة لأقدم على هذه الفعلة الشنعاء ؟.

وعلى ذكر الشياطين دارت في رأسي مشاهد مختلفة، من تلك الأحداث التي مرت بي في غرفة الشيخ ياسين، ثم المشهد المذهل لتلك الشيطانة التي خرجت من قلب الهاتف المحمول، ثم شعرت باللسعة، وبدأ وعيي يغيب. ويسحبني بعيدًا عن شواطئ الألم.

لابد أن صراخي أجبرهم على إعطائي حقنة مخدرة. وقبل أن يغيب الوعي تمامًا سمعت صوتًا أنثويًا يقول :

– ما كومة المخلفات هذه التي يجبرونني على علاجها، إن الذباب يقاتل للوصول إليه.

شعرت بالألم في معدتي، ثم رددت دون وعي :

– عن أي ذباب تتحدث.

ثم فقدت الوعي.

****

لا يمكن أن أصف لكم الساعات التالية. ولكن رشاد يستطيع، الملخص لحالتي أنني كنت على حافة الموت من شدة الألم، أتمناه ولا أجده.. أسعى إليه ولا تطاله يدي. إنني ممدد داخل مستشفى خاص وفي غرفة صممت خصيصاً من أجلي.قابع وسط رداء كامل من الجبس يقيد حركتي، لم يكن الحادث هينًا إذن ، لقد انتشلوني من على حافة الموت وليتهم ما فعلوا.

نقود رشاد المتدفقة هي التي أخرت الكارثة، بل الكوارث المتعددة التي اجتاحت عالمي في هذه الفترة القصيرة ،فهناك الذباب السمج الذي يقاتل ليعبر إليّ في مكمني ، والألم الساحق الذي عجزت كل الأدوية المهدئة عن إيقافه، والجوع الوحشي الذي يكاد يطيح بعقلي ، والذي برغم عنفه لم يسمح لي الأطباء بالكمية المناسبة من الطعام التي توقف ثورته. بل غمروا جسدي بالمحاليل والمهدئات التي لا تسمن ولا تغني من جوع .

ربما لو نجوت من هذه المحنة، سأظل مدمنًا على المورفين لما تبقي لي من العمر.

الآن أترككم مع رشاد لأن كل الأمور مختلطة بداخل عقلي.

- الحادث -

يقول رشاد :

أعتقد حقيقة أنني مختل، أو أن هذه الكيماويات التي لا أتوقف عن صبها في دمائي قد أثرت على توازني العصبي، لأن ما سأقصه عليكم الآن لا يمكن أن يقبله عقل متزن.

إنني أقف على تلك الحافة الفاصلة بين العقل والجنون، ولابد من شخص يشاركني هذا الجنون، وإلا لصرت مجذوبًا آخر فقد عقله، وينتظره القميص مغلق الأكمام.

بدأت الأمور المخيفة بقدوم نجيب إلى شقتي، كان يرتدي قميصًا برتقاليًا غريب اللون، مع سروال رمادي حال لونه، وذلك الصندل الذي يحتاج لجورب أبيض متسخ لتكتمل الصورة الشاذة.

حقيقة لا أعرف كيف انخرطت في هذا الأمر ولا كيف أصبحت فردًا في هذه الشلة العجيبة، كل شيء كان مريبًا في البداية ولكني لم أكن لأقف في هذه المرحلة من حياتي عند أي شيء غريب.

إنني أمارس كل فنون الغرابة دون هوادة، إنني كائن متقلب، غريب الأطوار كما نعتتني أمجد من قبل عند نقاشنا حول السبب الحقيقي لطلاقي.

عندما أتى نجيب في هذه الظهيرة المشؤومة إلى شقتي، كنت قد طلبت بعض الأطعمة السريعة كعادتي منذ انفصلت عن زوجتي، برغم أني عزوف عن الطعام منذ فترة.

لم أكن جائعًا، ولكني طلبت الطعام بلا سبب معين، ربما هو قدوم موعد الغداء الذي تعودت تناول الطعام فيه أو الفراغ.

وفي اللحظة التي فتحت فيها باب شقتي لأستقبل نجيب، لن أخفي عليكم الأمر، فقد انقبض قلبي وشعرت بسوءٍ قادم، لا أعرف لماذا ربما هي حاسة رسخها عدم تقبلي للانضمام لهذه الشلة العجيبة، وتوقعي السوء من هذه العلاقة العجيبة.

نجيب كائن بدين طيب القلب، ربما هو أكثر فرد في هذه الشلة استفادة من انضمامه لجماعتنا، لأن من هم مثله ببدانته واستيعابه الضعيف لا شعبية لهم ولا يجدون أصدقاء بسهولة، خاصة في تلك الفترة العمرية التي يسعى فيها المراهقين لإثبات رجولة لم يحن موعدها بعد، فقط كنت أحب ابتسامته الفطرية، التي تبشر بكون بكر يخلو من التعقيد، وجميع البدناء لديهم مثل هذه الابتسامة الطفولية العذبة.

المهم أنني كنت غارقًا في أفكاري الخاصة بعد تلك الليلة السوداء التي قضيناها في منزل الشيخ ياسين، لا أعرف حقيقة كيف قبلت بخوض مغامرة مماثلة، ولكني لم أستطيع ولو للحظة واحدة أن أعارض أو أخالف أمجد

في أي شيء قرر أن يشركني به، وكأن ما يربطنا شيء أقوى من الصداقة، شيء من خارج هذا العالم الملموس. شيء لا اسم له ولكنه أقوى من الحياة نفسها.

إنه أحد هذه الأشياء الكثيرة، العصية عن الفهم، والتي عند فهمها تصبح عصية على التصديق.

و برغم صغر سن أمجد بالنسبة لسني، إلا أنني كنت أهابه لسبب مجهول بل وأشعر بقشعريرة باردة تزحف على روحي كلما نظرت لعينيه.

عندما بدأ نجيب في التهام الطعام، لم أحب طريقته المحرومة في تناول الطعام، وكأنه ذلك الجائع الأبدي الذي دخل المدينة المصنوع كل شيء فيها من الحلوى والطعام.

كانت تتساقط من فمه فتاتات الخبز وبعض قطع الخضروات الموجودة في قطع البيتزا، مما أصابني بالاشمئزاز وأصبحت أكثر عزوفًا عن تناول الطعام.

ضايقني جدًا أنه لم يستأذن قبل أن يشرع في تناول الطعام، لقد انقض على علبة البيتزا فور خروجه من الحمام، وكأنه استباح المكان والطعام، وعندما زايلني ضيقي بعد لحظات، شرعت أتابع ذلك السيرك المنصوب في صالة شقتي، الذي لم يكن فيه إلا مهرج واحد يتناول الطعام بأغرب طريقة في العالم، وأنا على مقعد المتفرج أحتسي زجاجة بيرة باردة.

كانت تبدو على وجهه معاناة مريعة. وألم غريب، إن الاستمتاع المعتاد غائب، وهذا لا ينفي أن شهيته تفوق شهية الأفيال، إن علبة البيتزا التي شارفت على الانتهاء، تكفي لأربعة أشخاص وربما خمسة مع الاقتصاد.

فكيف استطاع بهذه السرعة أن يلتهمها ؟!

وزجاجة المياه الغازية التي جرعها على مرة واحدة، لو استمر الأمر على هذا المنوال ستنفجر أحشاؤه. لا أعتقد أنه يمضغ، إنه يبتلع القطع ربما دون أن تلمسها أسنانه.

لا أعرف ما الذي ألجم لساني وكيف لم أجبره على التوقف كي لا يؤذي نفسه، ربما عدم معقولية الأمر برغم حدوثه أمامي.

لحظات وبدأ مفعول البيرة المدر للبول، فقمت من فوري لألبي نداء الطبيعة، تاركًا نجيب في ملحمته الأسطورية، وتوجهت صوب الحمام.

لحظات ورن هاتفي المحمول.. أخبرته بألا يرد على الهاتف، فلا أحب أن تكون العلاقة بيننا حميمية إلى هذه الدرجة.

إن الهاتف كالخزانة لا يصح لأحد أن يقتحمها دون إذن صاحبه.

وعندما عدت من الحمام، دهشت لأقصى مدى، فهاتفي كان مفتوحًا وعلى شاشته المتذبذبة رقم لبنى والفحيح المخيف لا يتوقف.

لماذا أجاب هذا المتطفل على الهاتف، لقد أخبرته ألا يجيب ؟!!

حاولت أن أغلق الهاتف لأقطع الفحيح دون فائدة.

الفحيح يتصاعد بوتيرة سريعة، والغريب أن الصوت أصبح مجسمًا ومحيطيًا، ويخرج من كل الموجودات من حولي، إن الصوت ينبع من داخل الهاتف ومن كل قطعة أثاث في المنزل، حتى الجدران نفسها تردده.

سحقني الخوف، لم أستطع أن أستدعي ربة اللامبالاة التي أواجه بها الأمر كلما حدث، وشعرت بأن الشقة تضيق على روحي، وبأنني سأجن لو بقيت لدقيقة واحدة زائدة.. غادرت الشقة، والبناية كلها، ثم استقليت سيارتي.. ذهني شارد.. عقلي مشتعل من التفكير. أجاهد لأحضر بعض الفهم، من داخل أتون الغموض، دون فائدة.

فتحت علبة بيرة معدنية من التي أحتفظ بها بداخل مبرد السيارة، ثم رفعتها على فمي عندما شعرت بالقشعريرة تزحف على جسدي، فقد سمعت الفحيح مجددًا.

عجلة القيادة تختل في يدي، السيارة تميل نحو الجانب الأيسر، وتكاد أن تخرج عن مسارها، لتسحقها ديناصورات النقل الثقيل التي ترتع على طول الطريق، ولكني تداركت نفسي بسرعة، وقمت بإدارة عجلة القيادة إلى الاتجاه العكسي وحافظت على توازنها، وفي أول مكان صالح، قمت بركنها، لأن أعصابي تلفت تمامًا وأشعلت أضواء الانتظار.

لابد أن أهدأ، إن هذه الطريقة في معالجة الأمور قد تكلفني ما هو أكثر من سيارة مهشمة، قد تكلفني حياتي.

شعرت فجأة بخمول شديد، ورغبة عارمة في النوم. لقد أوقفت السيارة في الوقت المناسب تمامًا، لن أحاول أن أقاوم النوم، إنني في حاجة ماسه إليه بالفعل، فهذا يومي الثاني على التوالي دون نوم.

سأحظى ببضع ساعات من الراحة، وبعدها ليكن ما يكون.. وقبل أن أستسلم تمامًا لقبضة النوم الحريرية، لمحت تلك العيون المخيفة في مرآة السيارة الداخلية.

ولكن عقلي كان قد توقف تمامًا عن الاستجابة لأي مؤثرات، وبحيرة الأدرينالين الموجودة داخل جسدي كانت قد جفت تمامًا. وفقد جسدي تماسكه.

إن النوم يحكم قبضته على روحي، الآن أنا هناك في مملكته الغامضة.

****

فجأة استيقظت وكأن هناك من صفعني على وجهي، لأخرج من ذلك الحلم العجيب الذي رأيت فيه أمجد غارقًا في دمائه والحياة تنسحب من جسده.. والنيران تحيط به من كل جانب.. وبرغم هذا يجاهد ليخبرني أن أستيقظ لأخف إلى نجدة نجيب، لأنه بحاجة ماسة إلى مساعدتي.

هزرت رأسي نافضًا الحلم الغريب، ثم قدت السيارة عبر الطريق بدون وجهة أو اتجاه محدد..هائمًا على وجهي وبداخلي حنين لبيت أمي ولأطفالي.

قررت أن أذهب إليهم لأتفقدهم وأتمتع ولو قليلاً بجو الأسرة البعيد عن كل هذا التعقيد، ومن ثم غيرت اتجاهي كليًا. وسلكت طريقًا آخر.

الطريق كان خاليًا على غير العادة، فالشمس قد غابت ومعها غاب الزحام والضوء.

تركت العنان لسيارتي، وعينيّ على الطريق. صداع متزايد يلتهم مخي.. لابد من قدح من القهوة.. انشغلت بعبارة شعبية مكتوبة على سيارة وحيدة خرجت من شارع جانبي لتسير أمامي، عندما رن جرس الهاتف.

(نمشي على كف القدر ولا ندري ما المكتوب).

نظرت إلى الشاشة المتذبذبة ثم ارتجفت.

إنها لبنى من جديد.

ماذا تريد لبنى مني ؟!

هل تحاول الانتقام لأني هجرتها، ولكنه كان طلبها، هي من قررت أن تنهي هذه المرحلة من حياتنا. هي من أخذت المبادرة. صحيح أنني أسوأ زوج في العالم، ولكني لم أسئ لها بما يبرر هذه الأفعال الحمقاء.

أنا أعرف طريقة الاتصال المزعج أثناء القيادة، إنه الأداة المثلى للجريمة الكاملة.

لن أجيب.

لن أكون ضحية أخرى، لخبر كاذب يشتت ذهني أثناء القيادة.

ثم كيف أتى الهاتف هنا ؟! لقد تركته في المنزل عندما عجزت عن إغلاقه.

ارتفع صوت الهاتف بالفحيح مجددًا، لتشمل جسدي رعدة شاملة، ونظرت صوب المقعد المجاور حيث يقبع الهاتف المخيف ودقات قلبي تتصاعد، لم يكن الرنين بهذه القوة من قبل.

إنه الآن يتعالى.

إنه يدوي بقوة كجرس معدني، ثم كبوق سيارة نقل ثقيلة، ثم كدويّ المدافع.

تركت عجلة القيادة لحظة واحدة لأحمي أذنيّ، عندما شعرت بالارتطام.

ضغطت دواسة الفرامل بكل قوة ولكن الكارثة كانت قد وقعت، القميص البرتقالي يلمع أمام عينيّ قبل لحظة من انفجار الوسائد الهوائية في وجهي لأرتد إلى الخلف مصابًا بكدمة في عيني.

صوت صرخة نسائية.

القميص البرتقالي ليس بغريب عني.

يا إلهي هل صدمت نجيب ؟!

- الغرفة الزرقاء -

دقيقة واحدة كانت هي الفيصل بين الحياة والموت، لو تأخرتها لأي سبب، أو لو هداني تفكيري للذهاب به إلى المستشفى الحكومي القريب بما فطر عليه من بيروقراطية وروتين، لربما لم تطلع شمس اليوم التالي على نجيب ، ولكنت أنا خلف القضبان أحاكم بتهمة القتل غير المتعمد.

رد فعلي كان مباغتًا لي أنا شخصيًا، فلم أظل في مكاني لحظة واحدة بعد الارتطام، ولم تشلني المفاجأة، بل دفعت باب السيارة التي ذابت إطاراتها من الاحتكاك المباغت، وكنت أول من وصل إلى جسد نجيب الممدد دون حراك بجانب الرصيف.

لم أنتظر أن يتجمهر المارة وأن تحدث المشادات المعتادة، وخالفت كل التحذيرات الطبية المعروفة، وقواعد الإسعافات الأولية بعدم تحريك المصابين في حوادث السيارات، وانتظار المساعدة الطبية، وحملت جسد نجيب الغارق في الدماء والفاقد لتماسكه كدمية مهشمة بسرعة إلى داخل سيارتي، وانطلقت بها أنهب الطريق صوب عيادة الدكتور (راغب مهران) صديقي وطبيب العائلة وأنا أدعو الله ألا أزيد من سوء إصابته.

كنت منزعجًا بشدة، ولكن هذا لم يؤثر على حكمتي وتقديري للأمور.

فالسرعة تعني إنقاذًا سريعًا، وحصرًا للمضاعفات، كما أنها ستمنع أي شخص من إبلاغ الشرطة لأدخل في تحقيقات لا أول لها ولا آخر.

صدقوني لن يكون أحد مبتهجًا بحضور الشرطة، حتى نجيب الراقد في المقعد الخلفي بين الحياة والموت سيؤمّن على قراري. أنا مؤمن أن ما حدث قضاء وقدر، وأنا لم أكن متعمدًا لدهس نجيب، كما أن الدكتور راغب جراح ماهر جدًا ويدين لي بعدة خدمات.

يا إلهي ..لقد دهست نجيب.. !!

بالطبع لم أنتبه للذباب إلا بعد أن وضعت نجيب في المقعد الخلفي، لم أستوعب الأمر في البداية، كان شيئًا عجيبًا ومخيفًا في نفس الوقت، ولكن لا محالة من معالجة أمر الذباب قبل أن أشرع في القيادة.

إن الذبابة بذاكرتها التي لا تتعدى الثواني الخمس تعد أكثر الكائنات إزعاجًا في الكون. القيادة مع هذه المعاناة قد تتسبب في الحادث الذي لن يجدي معه أطباء.

مسكين نجيب لا أعرف ماذا حدث له في تلك الساعات التي تلت مغادرته لشقتي، وما سر تكاثر الذباب من حوله، أعتقد أن كل ذباب مصر قد قرر أن يحج إلى جسد نجيب المهشم ليحصل على نصيبه من دمائه المتخثرة.

هل أصبح مغناطيسًا بشريًا لا يجتذب إلا الذباب ؟

أثار الذباب جنوني، فهو يعوق الرؤية وطنينه لا ينقطع، لذلك وجدت أسلم حل أن أفصل مقعدي عن المقعد الخلفي بالحاجز الزجاجي، والذي كنت أستخدمه في الفترة التي استعنت فيها بسائق خاص عندما جاءتني فوبيا القيادة، وكي لا يتلصص على ما أقوم به مع فتياتي في تلك الفترة المظلمة من حياتي التي تلت انفصالي عن زوجتي، وليرحم الله نجيب حتى نصل.

فتحت الشباك متلمسًا الهواء المتدفق والذي يعمل كمروحة عملاقة كحل هزيل لمواجهة الذباب، وتكفل الهواء المندفع مع السرعة العالية، بطرد معظم جحافل الذباب المهاجمة، ولكني لم أتحمل حتى النهاية.

وفي منتصف الطريق كانت روحي قد بلغت الحلقوم، لم أستطع الصمود أكثر أمام مضايقات العدد المتزايد من الذباب الذي لم يستطع الهواء طرده، واضطررت للتوقف على جانب الطريق للحظات واستخدام نظارة السباحة، والتي أخرجتها من حقيبتي الرياضية. وشغلت فمي بسيجارة مشتعلة أخذت أنفس دخانه في غضب.

قطعت المسافة الفاصلة عن عيادة الدكتور (راغب مهران) في وقت قياسي وعن طريق الهاتف المحمول، أخبرت الطبيب بما حدث فشرع في إعداد غرفة العمليات، كما أخبرته بمشكلة الذباب، ورغم تعجبه وتهيبه إلا أنه تجاوز عن الأمر بصعوبة غير مصدق، وقال أنه سيعد العدة.

لم يتوقع الدكتور مهران مقدار الإصابة ولا حجم الذباب.

ولكنه قام بعمل أسطوري في تلك الأجواء العجيبة، إنها الجراحة الأولى التي يقوم بها وسط مبيدات الحشرات، وفي أجواء غير معقمة تمامًا، وفي النهاية أنقذ نجيب الذي تحطمت نصف عظامه، وفقد بصره جراء ارتطام وجهه بشبكة السيارة الأمامية.

اعتصرني تأنيب الضمير، ولم أقو على منع دموعي من الهطول وأنا أتذكر بسمته الطفولية وحكايته التي لا تنقطع عن أبيه وقسوته..

واسيت نفسي بأنه على الأقل مازال حيًا، وهو دون شك سيحتاج لوقت طويل ليستوعب الصدمة، ولكني أعرف أنه سيتجاوزها.

المصيبة الكبرى في كيف سنخبر والديه بما حدث، وأشار عليّ دكتور راغب بأن أؤجل الأمر قليلاً حتى يتسنى نقله من العيادة ليبعد عن نفسه أي مشكلة، كما أنه الآن في حالة خطرة لن تسمح بنقله.

وافقته على هذا الحل لأنه كان قريبًا مما كنت أفكر فيه، ثم أسداني دكتور راغب خدمته الأخيرة، حيث قام بعزل نجيب في غرفة خاصة تم تخصيصها له في طرف فيلته التي يستخدمها كعيادة، والتي كانت تستعمل كمخزن لأدوات الحديقة وبعض الأشياء الأخرى.

تكلفت هذه الغرفة المجهزة مبلغًا فلكيًا، ولم أتوانَ في دفعه فآخر شيء أفكر فيه الآن هو النقود. وخلال اثنتين وسبعين ساعة كان قد تم نقل نجيب إليها والذي بدأ يعود إليه وعيه.

لم تكن غرفة عادية، وبالتالي تجهيزاتها، فقد طليت بطلاء أزرق وهو أكثر لون يكرهه الذباب بعد أن خلط بمادة كيماوية عديمة الرائحة ذات تأثير طارد للحشرات، وتم تزويدها من الخارج بجهاز ذبذبات مخصوص أرسله أحد زملاء دكتور راغب من ألمانيا بالبريد السريع يطلق ذبذبة تؤذي الذباب، وأخيرًا الأبواب والشبابيك العازلة والتي تشبه أبواب الثلاجات.

من يفكر أن خمسة أيام فقط هي التي مضت على وقوع الحادث وإنشاء الغرفة، سيعرف دون شك أن النقود تصنع المعجزات. إنها عصا ساحر العصر الحديث.

وفي اليوم السادس طلب دكتور نجيب استشارة بعض زملائه من علماء الحشرات في ألمانيا وقرر بعضهم القدوم لمشاهدة الحالة وإسداء النصيحة مع ملك الذباب هذا، واقترح عليه أحدهم استخدام بعض النباتات آكلة الحشرات حول الغرفة لتقلل من تكاثفها. وتم الأمر بالفعل، ولكن أيًا من هذه الحلول لم يأتِ بالنتيجة المرجوة .

الذباب كان يصنع ستارة كثيفة حول الغرفة وكأنها خلية نحل وليست مجرد غرفة، واضطرت الممرضة المكلفة بمباشرة حالته، لارتداء زي أشبه بزي المتعاملين مع النحل، وكانت تدخل لممر فاصل معزول يقودها صوب الغرفة، وما يصحبها من ذباب تقضي عليه مباشرة بالمبيد قبل أن تدخل

لتمنح نجيب الدواء والغذاء الموضوع في علب بلاستيكية خاصة محكمة الغلق.

لم تكن الممرضة تخفي ضيقها وتبرمها من ذلك المريض الجاذب للذباب، برغم الراتب الإضافي الذي كانت تحصل عليه مني. وإن لم يستمر الأمر على منواله للنهاية.

وفي اليوم السابع كانت المفاجأة.

فعندما أقبلت إلى عيادة الدكتور راغب، حاملاً معي البيتزا التي يعشقها نجيب والتي قمت بوضعها بداخل حقيبة مخصصة تحفظها ساخنة ومعزولة، وقمت بقطع الممر الفاصل المؤدي إلى غرفة نجيب لم أسمع الطنين المميز لأسراب الذباب، والذي لا ينقطع ليل نهار وعندما ظهرت الغرفة لناظري، اتسعت عيناي من المفاجأة.

لقد ذهب الذباب !!

ذهب بغير رجعة، تلك الستارة الكثيفة التي كانت تحيط بالغرفة إحاطة السوار بالمعصم.. تلاشت نهائيًا.

لم أستطع أن أسيطر على نفسي من السعادة، وأطلقت صيحة فرح، وكدت أن أقفز لأعلى من الفرح، قبل أن أندفع كالصاروخ نحو غرفة نجيب المغلقة. وهناك كانت تنتظرني مفاجأة أكثر وطأة وقسوة.

ففراش نجيب كان خاليًا ووسائده ممزقة وأحشاؤها متناثرة في كل مكان، وكأن هناك من مزقها متعمدًا. والشراشف غارقة في كمية هائلة من الدماء، وأثار الدماء توحي بأن هناك، معركة نشبت فوق الفراش، وأن هناك من انتزع نجيب انتزاعًا من فوق الفراش.. قبل أن يجره صوب الجدار المقابل لتنتهي الآثار والدماء هناك، وكأنه طار إلى السماء أو ذاب في العدم أو ابتلعه الحائط.. وعلى الجدار المقابل كان القميص البرتقالي خاليًا، ملتصقًا بالحائط ومحترقًا من الوسط، وآثار الاحتراق على هيئة وجه مخيف له قرون وأنياب حادة.

لم أستطع التحكم في معدتي فتقيأت ما بها من طعام.

وعندما انتهيت، ومن وسط عينيّ الغارقتين في الدموع، لمحت على الجانب البعيد من الفراش، الممرضة (سهى) ملقاة على الأرض في وضع غير مريح وفاقدة للوعي .

ثم رأيت ما أثار ذعري.

فعلى الحائط القائم خلفها، وبالدماء الحمراء التي تخص نجيب دون شك، والتي تحولت للون قاتم فوق الطلاء الأزرق كانت العبارة المخيفة التالية مكتوبة :

– الثاني يتلاشى في اليوم السادس.

٠٢

اللعنة الثانية ـ الرغبة

عرّفها دانتي : الحب الطبيعي للآخرين يتحول إلى عاطفة آثمة، يغلب فيها حب البشر على حب الآلهة.. مرتبطة بأمير الجحيم أزموديياس Asmodeus واللون الأزرق...

من أنا؟

أنا يا سيدي.. أنا التي أُحب بوصةً من اللحم.. أكثر من ذراعٍ من السمك.

- التي رأت الشيطان -

" لتعلو مملكة الهلاوس والجنون".

هذا هو ما حدثت به نفسي عندما سمعت ما رددته الممرضة (سهى) بعد أن استفاقت من غيبوبتها، وقد استحالت خصلة لا بأس بها من شعرها الفاحم إلى اللون الأبيض، وتشوه جانب وجهها الأيسر بحروق مخيفة من الدرجة الثانية، يصحبها إصابات غائرة مزقت لحم الوجه بعنف، و تبدو والإصابة وكأنها حدثت بأداة معدنية مسننة ذات أطراف حادة، مما يشي بأن أي مجهود سيصرف على عمليات التجميل، هو جهد ضائع، لقد تشوه وجهها بطريقة مريعة، والشيء المؤكد أن عقلها بات على حافة الهاوية والخبال.

تقول سهى :

لا أعرف لماذا غزت الشفقة قلبي تجاه هذا الصبي المعزول في غرفة الحديقة، والذي لا يكف الذباب عن محاولة الوصول إليه ليل نهار. وكأنه قطعة الحلوى التي ستهب للذباب الخلود.

لم أستوعب الموقف في البداية، فما يحدث حولي هو شيء ينتمي لعالم آخر لا أجيد قراءة مفرداته.. فلا يوجد مرض في الدنيا من الممكن أن يجذب هذه الأسراب الهائلة من الذباب، حتى الجروح المصابة بالتعفن

والغرغرينا لا تجذب هذه الكمية الهائلة من الذباب، والتي تكفي لإقلاق راحة مدينة بأسرها.

بكاء نجيب المتواصل هو السبب الرئيسي في اهتمامي به. فالبكاء هو نقطة ضعفي الكبرى، فقلبي الضعيف جعلني لا أتحمل أن أرى طفلاً يبكي، وحالته المتدهورة هذه جعلته يشبه الأطفال تمامًا. نحيبه المتألم كان يمزق نياط قلبي وإلحاحه المستمر في طلب الطعام كان يفتت كبدي، فكنت أخالف أوامر الدكتور راغب وأمرر له بعض الطعام من حين لآخر. لقد رأيت فيه أخي الذي اختفى منذ اندلاع الثورة ولم يظهر من حينها برغم وجود تأكيدات على اعتقاله في أحد السجون الحربية، أعتقد أن كل البدناء متشابهون ولكن نظرة عينيه الشبيهة بنظرة أخي لا يمكن أن أخطأها.

عندما منحته الدواء المسكن أخبرني صوته الباكي بما يريد، ونازعتني أمومتي وقسم مهنتي، وفي النهاية تغلبت مشاعر الأمومة بداخلي على كل شيء آخر..

إنه مجرد طفل جائع !!

طفل يحتاجني وأنا لن أخذل من يحتاجني أبدًا.

عندما كلفني الدكتور راغب بالانقطاع للعناية بنجيب، لم أشعر بأنه تكليف قدر ما هو عقاب، ربما لم ينسَ دكتور راغب موضوع زجاجات المورفين

التي اختفت من عهدتي بعد. وها أنا ذا وخلال مدة قصيرة، أرتكب الخطأ الثاني بعصيان تعليماته.

المهم أنني تسللت إلى مطبخ العيادة الضخم المتخم بالطعام والشراب وأحضرت له عدة أرغفة من الخبز الطازج، وثمرتي برتقال، ونصف دجاجة مسلوقة، وشرعت في إطعامها له.. وبعيون تكاد تقفز من محجريهما، جلست أتابعه وهو يلتهم الطعام.

لم أرَ في حياتي نهمًا مماثلاً، ولا معدة من الممكن أن تتقبل مثل هذه الكمية من الطعام. فقبل أن ينتهي يطلب المزيد، وقبل أن يبتلع القطعة الحالية يريد القطعة التالية، إن هذا شيء مخيف بلا شك، ولولا وجوده بداخل السترة الجبسية لربما ظل يأكل حتى انفجرت معدته وأمعاءه.

المشكلة كانت في الإخراج، فمع كل كمية الطعام هذه لا يبدو أن جهازه الإخراجي يعمل بكفاءة. وهذا كان يمثل عبئًا إضافيًا عليّ، ولكني تقبلته على مضض، فمن يبدأ فعل الخير عليه أن يتمه، مهما كان مقززًا.

الخلاصة أني اعتبرت نجيب مسؤوليتي، وقررت ألا أتخلى عنه أبدًا، فربما الخير الذي أقدمه هنا ينعكس على أخي هناك، فيرأف به سجانه ويمنحه بعض الراحة وسط وصلات التعذيب التي لا تتوقف في المعتقل الحربي المظلم.

في اليوم التالي، أحضرت له بعض الطعام المنزلي، فالسطو اليومي على مطبخ العيادة سيسهل اكتشافه وربما يتسبب في طردي فالنظام هنا صارم جدًا ودقيق، ولولا ثقة الدكتور راغب فيّ لما مرت مشكلة المورفين على خير.

المكان هنا لم يكن عيادة عادية كما يتأتى لتفكيركم عند ذكر لفظ عيادة، بل إنه نوع خاص جدًا من المستشفيات والتي لا يرتادها إلا شخصيات عامة شديدة الخصوصية وبعض الأثرياء الذين يفضلون الحجز في ذلك المشفى الخاص، عن الذهاب لأي مستشفى شهير، فالدكتور راغب حوّل هذه الفيلا بالفعل إلى منتجع طبي متكامل، ولا يقبل فيه إلا حالات محدودة، فهي مستشفى خاصة للأثرياء والشخصيات المهمة، مكان يضمن السرية والأمان وعدم تسرب الأخبار التي قد تهز البورصة أو المطبخ السياسي.

وبرغم ذلك يصر دكتور راغب على إطلاق اسم العيادة عليه، وبالطبع هو يتقاضى مبالغ فلكية من قاطنيه، بل ويقبل بالعديد من الحالات التي يحرصون فيها على عدم تدخل الشرطة ولكن هذا الكلام ليس للنشر.

المهم أنني في ذلك اليوم وعندما انتهيت من الإجراءات اليومية المقززة كي أعبر لداخل غرفة الحديقة، والتي تحولت الأرض حولها إلى سجادة بشعة من الذباب الكثيف المحترق سيء الرائحة، بعد أن قام فهيم البستاني باستخدام، اللهب في حرق كميات كبيرة منها ليتيح لي وسيلة آمنة للدخول

بعد أن تضاعفت أعداد الذباب باضطراد حول الغرفة، وسدت المدخل تمامًا في مشهد مهيب.

وفي اللحظة التي هممت فيها بعبور الممر المعزول محملة بالطعام وبضيقي الشديد، فاجأتني الصرخة الهادرة، فهرعت مسرعة إلى داخل الغرفة وخلفي بعض الذباب الذي لم أنجح تمامًا في القضاء عليه من لهفتي لاستجلاء الأمر، إنها صرخة نجيب دون شك.

وعندما لامست قدماي أرض الغرفة دارت الدنيا برأسي على الفور وطفقت أفرك في عينيّ غير مصدقة، لابد أنها تلفت أو أنني أحلم، أو شيء ما أصاب العصب البصري فتوقف عن بث الصور الحقيقة إلى مخي، واستبدلها بتلك المشاهد المروعة، فالغرفة نفسها لم تكن على هيئتها الطبيعية أبدًا.

فالجدران زرقاء اللون تلاشت تمامًا وحلت محلها أشجار سوداء هائلة الحجم متفحمة الجذور يتصاعد منها الدخان دون توقف. وفي الخلفية سماء حمراء داكنة لا يتوقف البرق عن جرحها. الأرض نفسها كانت ترابية والتراب يتماوج طوال الوقت على شكل أعاصير صغيرة تطارد بعضها بعضًا.

أما المشهد الذي لن يفارق مخيلتي في يوم من الأيام هو مشهد المذبح، ففوق مذبح حجري أملس ملطخ بالسواد تمدد نجيب بلا أي ضمادات أو دعامات جبسية، عاري الجسد كيوم ولدته أمه. منتصبًا أمامه وبارتفاع ثلاثة

أمتار وقف الشيطان بقرنيه العظميين وذيله المشقوق الذي يتلوى كالثعبان، وفي يده شوكته الشهيرة، ويبدو أن هناك حوارًا عنيفًا يدور بينهما.

لم أتحرك من مكاني قيد أنملة، حتى عندما رأيت العقارب الهائلة تخرج من باطن الأرض وتنفض التراب عن جسدها المخيف لتتجه نحوي بقيت في مكاني.

ما يحدث أمامي أفقدني صوابي، ولم يترك لي هلعي أي رد فعل، فقط في اللحظة التي همّ الشيطان فيها بطعن نجيب بشوكته التي اشتعلت النيران في مقدمتها، انتزعت من داخلي صرخة واهنة لأجبره على التوقف، وكان هذا هو رد فعلي الأخير.

فقد شقت الشوكة المتألقة الهواء في سرعة، لتلطم بحرابها المشتعلة جانب وجهي الأيسر، لأشعر بعدها بآلام لا تطاق، وكأن هناك من سكب الحمض على وجهي.

لم أتحمل الألم المريع لأكثر من لحظة واحدة، لأفقد الوعي بعدها. ولأستيقظ الآن، وهذا هو ما حدث بالتفصيل ودون زيادة أو نقصان.

ساد الصمت للحظات، حتى بدى كضيف ثقيل ينازعنا الغرفة، وأنا أحاول مع الدكتور راغب استيعاب هذا الكم المذهل من الأحداث الغريبة التي قصتها سهى على أسماعنا، والتي لا تتفق مع شخصيتها ولا ثقافتها. كان من الطبيعي أن أصدق ما قصته علينا بعد تلك التجربة المريعة التي مررت

بها في غرفة الشيخ ياسين، ولكن عقلي أبى أن يصدق ما سمعته منذ لحظات، فكيف تقرر الشياطين فجأة أن تتجسد وتخرج من بُعدها المظلم لتواجه بعض البشر الواهنين، حقيقة تجسد الشيطان في العصور الغابرة لا مراء فيها، ولكن الآن.. الأمر صعب جدًا لا يتناسب مع روحِ العصر أو التكنولوجيا.

إن الأمر غير قابل للتصديق ومخيف أيضًا. بل ويوحي بكارثة قادمة.

كيف تبدلت حياتي على هذا النحو ؟! بل كيف سمحت بالأمر من الأساس؟!

فبعد أن كنت أحظى خلال الأشهر الماضية بليالٍ حمراء وخضراء وبكافة ألوان قوس قزح، وأقطف من ثمار الحياة ما يصيبني بالتخمة، ها أنا ذا في خضم أحداث مشؤومة لا أعرف لها رأسًا من قدم. أشياء لو حدثني عنها شخص آخر، لطلبت منه على الفور صنف الحشيش الفاخر الذي يتعاطاه.

ماذا فعلت يا شيخ ياسين، وأي بوابات الجحيم قمت بفتحها ولماذا ؟!

الخيط الوحيد الموجود أمامي الآن هو سهى، لذا فإنني سأتجاوز عن سوء حالتها وأحاول أن أعرف أكثر. هو تصرف غير إنساني ولكن لا مفر منه. أي معلومة قد تفيد في هذا الوضع الملتبس، فربما ما أخبرتني به هو مجرد هلاوس ناتجة عن الصدمة، وهناك في تلافيف عقلها تكمن القصة الحقيقية.

النقطة التي تحيرني هنا، إذا كان ما قصته هو مجرد اختلاق وخيال جامح، فأين ذهب نجيب ؟! وما هي طبيعة هذا الشيء الذي هاجمه، ولماذا ؟!

نفضت الأفكار عن عقلي، وقررت أن أجرح الصمت الذي غلف الغرفة بعد أن انتهت سهى من سرد قصتها، وهو الصمت الذي احترمه الدكتور راغب. وقبل أن أشرع في نقاش سهى، فاجأتني هي، فقد زاغ بصرها وانقلبت سحنتها وتحشرج صوتها وصرخت متضرعة :

– احرقوا الغرفة.. احرقوها.. إنها الثغرة التي تقود إلى حيث تسكن الشياطين.

صدمتنا العبارة.. لا.. بل روّعتنا وخلخلت قلوبنا من موضعها، فعدنا أنا ودكتور راغب نتبادل النظرات الحيرى.

المشكلة أن الصدق جلي وواضح في كلمات سهى، فإما أن ما تقوله حقيقي، أو أنها تؤمن بكونه حقيقي، في تلك الحالتين لم تكشف شيئًا من الغموض المحيط بالأمر. إن كل الطرق تقود نحو المجهول.
ندت عن سهى آهة متألمة، فالتفتنا نحوها، قبل أن تكسر الصمت مرة أخرى، وهي تنظر صوب الدكتور راغب، بلوعة ويأس متضخمين وبصوت مذعور تساءلت وهي تتحسس الضمادة المحيطة بوجهها :
– هل سيظل وجهي مشوهًا إلى الأبد ؟!
وبكت قلوبنا حسرة، دون أن ننبس بكلمة.

- العبق -

أمجد اختفى.. !!

لا أحد يعرف عنه أي شيء، جيرانه يقولون إن أقاربه حملوه معهم إلى بلدتهم الفيوم، ولم يتركوا خلفهم عنوانًا ولا رقم هاتف يرشد إليهم. لذا فالبحث عنه الآن سيكون بلا طائل. خاصة وأن الفيوم ليست مدينة صغيرة، ومن السهل أن يذوب فيها أمجد للقرن القادم. وهذه مصيبة جديدة. لقد وضعنا أمجد في هذه المحنة ثم تلاشى من حياتنا وكأنه لم يكن يومًا.

المرة الوحيدة التي أذكر فيها وجود أمجد خلال الأيام الماضية، عندما زارني في ذلك الحلم الذي مررت به أثناء غفوتي بالسيارة ووجهني لإنقاذ نجيب من خطر قريب.

هل التقيته فعلا أم هو مجرد هذيان ؟!

العجيب أنني لم أكن وسيلة الإنقاذ المنشودة، بل كنت الأداة التي كادت أن تودي بحياة نجيب لولا ستر الله ومهارة دكتور راغب وقتها.

أنا المخطئ.. نعم أنا المخطئ.. إنني سهل الانقياد لا تغرنّكم تلك الثقة المفرطة المرسومة على وجهي، إنها شبكة الصياد لإيقاع ضحاياه من النساء. لو لم أكن سهل الانقياد لما سمحت لزيجتي الأولى أن تفشل، على يد بعض العاهرات.

من قال إن كل النساء تتشابه في النهاية كان عبقريًا فعلاً.. فكل المغامرات التي خضتها أنبأتني بحماقتي، فلم تمنحني امرأة مهما همت بها أو تعلقت، أكثر مما منحته لي زوجتي.

ربما هي الرتابة أو الملل أو التوق لمغامرات زمن ولى وانقضى، إن الرجل يريد أن يشعر أيضًا بكونه مرغوبًا وأنه لم يصل لنهاية الطريق بهذه السرعة.

إن التعلق بامرأة واحدة كالتعلق بسيارة من السبعينات، ربما هي تتوافق مع حالتك المزاجية والنفسية ولكنها أصبحت أقل كفاءة وتقبلاً في الواقع المنطلق بسرعة الصاروخ.

إنني أفتقد للشعور بالرضى، وهذا هو ضعفي الكبير.. وذلك الضعف في شخصيتي هو ما جعلني لا أفكر قبل أن أقدم على حماقات كثيرة.

الخلاصة أنه لم يكن عليّ أن أطيع ذلك الهاجس، سواءً في إنهاء زواجي أوفي اتباع نصيحة أمجد.

الشيء الغريب فعلاً، هو كيف آمنت لحظتها بكون الأمر رؤيا حقيقية، وليس مجرد حلم عابر ينفس به عقلي الباطن عن الضغط العاتي الذي تعرضت له طوال الأيام السابقة.

ثم كيف عرفت الطريق بهذه الدقة، وكيف يتزامن وصولي مع قطع نجيب للطريق ؟!

هل كان الأمر مدبرًا من قبل قوى عليا، أم هو سوء الحظ عندما يتخذ طابعًا خارقًا ؟!

اللعنة.. كل سؤال يقود لآخر في هذه الدائرة الجهنمية.

لقد تصرفت بناءً على بوصلتي الداخلية الحمقاء وهذا يكفي الآن !!

الأمر كله سوء حظ، فقط تجمعت قطع البازل في توقيت سيء، والدليل على هذا أنني لو عدت بذاكرتي لتفاصيل هذا الحلم لتأكدت من كونه كابوسًا وليس رؤيا، فأمجد نفسه كان يقف على سفح بركان مشتعل والدماء تغلي في عروقه، وتغرق جسده، والنيران تلتهم أطرافه.

لا أحد يقطن الجحيم، وينثر الزهور.

حقيقة لا أعرف ماذا أفعل الآن، ما هو التصرف المنطقي الذي يعيد حياتي لمجراها الطبيعي، كيف أنسى تلك التجربة المروعة بمنزل الشيخ ياسين، وكيف أنسى اختفاء أمجد، وكيف أتجاهل ذلك الفحيح الشيطاني الذي أحال حياتي لجحيم.

تحتاج ذاكرتي دون شك لحمض كاوٍ كي يطمس كل هذه الذكريات الشنيعة. فكل شيء حولي غامض، ويقودني نحو عالم لا أستوعبه نهائيًا – الجن والشياطين – لقد أصبح عالمي يغص بهم هذه الأيام، وكأن الهواء نفسه قد تعبق بوجودهم.

المرة الوحيدة التي خضت فيها في دروب هذه العوالم المشؤومة، كانت عابرة، وعلى سبيل الدعابة، مجرد قراءة كف، وقام بها ساحر أفريقي أسود البشرة كالباذنجان يدعى ريحان وكانت هذه المرة في فيلا صافيناز شاكر، سيدة المجتمع الشهيرة والمعروفة بحفلاتها شديدة الفخامة والبذخ والغرابة.

أعتقد أن صيحات الحفلات المختلفة التي يقوم بها الأثرياء في مصر هذه الأيام، تنبع أولاً من فيلتها لتصير صيحة يتناقلها الأثرياء، إنها هي من بدأت موضة تصوير الحفلات وبثها على الهواء مباشرة على بعض تلك القنوات الفضائية التي لا تعرف هدف فتحها من الأساس.

تعشق صافيناز شاكر كل ماهو غريب وجديد ومبتكر. إنه الملل الذي يتبع الثراء الفاحش. فوجود تلال من النقود تتزايد في كل لحظة، تجعلك لا تشغل بالك إلا بالبحث عن تلك الأفكار الجديدة والمثيرة التي تمنحك تلك الهالة المخيفة التي تسمح لك بالسيطرة على من حولك، وأي فكرة مهما كانت مجنونة فهي قابلة للتنفيذ على الفور.. فالنقود تصنع المعجزات في هذه الأيام.

وصافيناز شاكر من أصول تركية، لذا فإن لديها ذلك الرأس الصلب والإرادة التي لا توهن والعزم الذي لا يلين.

هي من أصرت على أن يقوم ريحان بقراءة كفي لمعرفة طالعي، وقد أخبرتها وقتها أن طالعي سيء ولا يحتاج لمنجم ليخبرني به. فقد كنت قد انفصلت

عن زوجتي منذ أيام معدودة، ولكنها كانت مصرة كعلقة من النوع مصاص الدماء، إن العرق التركي بداخلها جعلني أوقن أن الخلاص منها لن يكون إلا بالموت، فوافقت على مضض، وروحي متشبعة بضيق بلا حدود. ثم جاء ريحان ليزيد الطين بلة.

لا أعرف لماذا كرهته من النظرة الأولى، هناك لزوجة عجيبة تحيط بأرواح هؤلاء المشتغلين في حقل السحر سواء أكانوا صادقين أو دجالين.

لزوجة جعلتني أنفر منه ومن ملمس يديه الشبيه بجلد الثعبان. شعرت بأن مجرد لمسته لي انتهاك لخصوصيتي وقدسية جسدي، ولكني قررت التحمل أكثر فأنا أدين لصافيناز بالكثير، وطالما جعلتني مهرج الحفل لهذه الليلة فعلي أن أطيع.

لذا فإنني تركت كفي لريحان ليمارس شعوذته، مع شعور عارم بالنفور يتزايد في كل لحظة، وعندما قبضت يد ريحان الأبنوسية على يدي ونظر بعينيه الضيقتين كثقب الإبرة إلى خطوط كفي حدث شيء غريب.

لقد ارتجف.. نعم ارتجف وبدا عليه الذعر، وطلت من عينيه نظرة سوداء مخيفة، ورفض أن يكمل قراءة كفي. ونالته مني نظرة ساخرة محرقة من نوع:

– هل تعتقدني غر ساذج أيها الدجال القادم من مجاهل أفريقيا ؟! لقد كشفت أسلوبه من اللحظة الأولى.

إنه يمارس تلك الألاعيب المفضوحة التي نسيها عالم الدجل منذ قرون. التردد والإحجام ثم النبوءة.. هلمّ أيها الدجال لا نريد منك إلا جملة مسجوعة لينفض السيرك.

هل كذبت وصدقت كذبتك، وستبالغ في رفضك.. هيا لا تكن ثقيل الظل.

حقيقة أنا لا أؤمن بمعظم دروب السحر وفنونه، وخاصة تلك التي تتبخر فور انصراف الساحر. وأؤمن أنها مجرد خدع متقنة وخفة يد لا أكثر، ناهيك عن أن معظمهم نصابين، يكفيك فقط أن تفتح صفحة الحوادث لتتسع عينيك دهشة من أعدادهم التي تفوق أعداد الجراد.

الساحر الحقيقي لن يحضر الحفلات المماثلة ليقرأ الكف مقابل حفنة من الأوراق المالية، ولن يظهر على شاشة التلفزيون ليقوم ببعض الحيل الساذجة.. الساحر الحق هو الذي لن يجد مجهودًا في أن يصير زعيم العالم ويمتلك خزائن كنوز الأرض، ويصل لنبع الشباب والخلود.

أما هؤلاء المتسولون فلا يحظون مني بأي احترام، لقد جاريتهم فقط لإضفاء بعض المرح على جو الحفل الرسمي. فرشاد الدنجوان الشهير لابد وأن يمارس كل الحماقات التي تغري الفتيات بالتعلق به وفي نفس الوقت يرضي هفوات صافيناز شاكر. إنها قواعد هذه الحفلات. وأنا أتيت بكامل إرادتي الحرة.

برغم كل ما قصصته عليكم وصدعت به رؤوسكم، وإيماني الشديد بكون ريحان نصاب آخر، لكني لن أخفي شعوري لحظتها، فالأمر لم يكن بالبساطة المتوقعة، فريحان ساحر ومشعوذ وله مريدوه، وتأثيره الذي جعله – وهو الأقرب للشحاذين – يحظى بمكانة رفيعة في حفل صافيناز شاكر لا ينكره إلا أعمى، كما أنه قد أتى من مجاهل أفريقيا السمراء حيث السحر الأسود مازلت نبتته تتمسك بالأرض مقترنة بسحر الكابالا اليهودي، وحيث مازالوا يقتلون الأطفال على المذبح إرضاءً لآلهة السحر الوثنية، كما أن إيمان من حولي به والنظرة الخرساء على وجوههم، فور إحجامه عن قراءة كفي جعلت شيئًا من الذعر يتسلل بداخلي وإن أخفيت الأمر على من حولي بقناع من السخرية والبرود.

إن التوافق الجمعي مسيطر وموحٍ. لذا فإنني تجاهلت الجميع ورسمت على وجهي ابتسامة ساخرة، وأشحت بيدي في لامبالاة، وكأن ما توقعته يحدث، وإن تمنيت بأعماقي ألا يستجيب المشعوذ لضغط صافيناز، كي تبقى هالة الغموض التي صنعتها كلمات ريحان من حولي. تلك الهالة التي قد تجذب فراشات منبهرات حتى غرفة نومي.

كاد الأمر أن ينجح ويمر مرور الكرام، لولا ذلك العرق التركي اللعين، الموجود في حمض صافيناز النووي.

فقد أصرت صافيناز على أن يقوم ريحان بقراءة كفي، ورفض هو عدة مرات، ولكنها قست عليه، حتى شعرت ببعض الشفقة نحوه، إن الحيوان الذي سقط بين فكيّ التمساح الهائلين لابد وأنه شعر بشعور مماثل وهو يحتضر، وعلى مضض أعاد ريحان النظر في كفي وعلى وجهه ارتسمت آثار المعاناة، وكمن ينتزع روحه من جسده قال :

– طالعك نحس.. وروحك أسيرة الظلام.. لو كان الأمر بيدي لاخترت لك الموت.. لكن الموت راحة.. ومثلك سيشقى إلى الأبد.

شعرت لحظتها برعب عاتٍ ارتسم على وجهي للحظة، مما أثار شهية صافيناز شاكر للضحك، فأطلقت لحظتها ضحكة ماجنة ماكرة، ثم جرت ريحان من يديه وهي تردد :

– أيها الشقي.. لقد أثرت ذعره.

لا أعرف لماذا تذكرت هذه الحادثة الآن. هل بدأت أؤمن بتلك الأشياء ؟!

حقيقة، إن الاقتناع بالخرافات لا يحتاج لأكثر من الوقت المناسب.

****

– طق.. طق.. طق.

في المساء وعندما سمعت طرقات الباب، كان عقلي مازال مشغولاً باختفاء نجيب وأمجد. وبنبوءة ريحان، وبتلك العبارة التي وجدتها منقوشة على الحائط في غرفة الحديقة بالدم.

– الثاني يتلاشى في اليوم السادس.

إنها تيمة شهيرة استخدمت في العديد من الأفلام والروايات التي تدور حول القتلة المتسلسلين.. ما علاقتي أنا بأي قاتل متسلسل، وهل هناك في العوالم الشيطانية، قتلة متسلسلون لديهم هوس نفسي ؟!

ثم ما أهميتي أنا وهذه الشلة المخبولة، ليتبعنا قاتل متسلسل سواءً أكان بشريًا أو شيطانًا، ثم من قال إن نجيب قُتل من الأساس. الدماء لا تعني أبدًا أنه قُتل، ربما هو مصاب في مكان ما.

ماذا حدث بالفعل في غرفة الشيخ ياسين ؟!

هل أصبنا بلعنة ما ؟!

هل سأتلاشى مثلما حدث مع نجيب، وهل اختفاء أمجد مبرر ؟!

ضبطت نفسي أناقش هذه الخواطر المريضة مع نفسي وأتعمق في تفاصيلها أكثر وأكثر، فعرفت أن عقلي يئن بالفعل من الإرهاق، لقد اختلط كل شيء

ببعضه بداخله. وربما احترقت بداخله خلايا كثيرة لم تستطع أن تفك تلك الطلاسم التي تحيط بي.

القتلة مع الشياطين مع الإرهاق وقلة النوم، توليفة مميزة تقود بخطى حثيثة نحو الاكتئاب والذي سيسحبني بدوره لدروب الانتحار المعبدة.

– طق.. طق.. طق..

الطرقات من جديد، هل هناك من يحاول هدم أعمدة عقلي ؟!

– طق.. طق.. طق..

هذه الطرقات..

تنبهت أخيرًا إلى أن هذه الطرقات لا تنبع من داخلي، ولكن تأتي عبر باب الشقة. فقمت بروحٍ منقبضة لأفتح.

الساعة في الصالة تشير إلى الثالثة صباحًا. من الذي سيأتي لزيارتي في مثل هذا الوقت ؟!

عندما فتحت الباب، هبت عليّ نسائم الجنة، واجتاحني العبق.. عطر ساحر قُطفت أزهاره من بساتين الجنة. أدار رأسي للحظات فوصلت بنشوتي للذروة دون نساء ودون مداعبة. ثم تنبهت لتلك الحورية المذهلة ذات الجسد الممشوق المستندة إلى حافة الباب. ففغرت فاهي ووقفت كالمشدوه أتطلع في عينيها إلى كل أسرار الدنيا.

ما هذا الجمال ؟!

ما هذه الفتنة ؟!

هل يتحمل كوكب الأرض هذا الدلال كله، فلا تنصهر نواته الحديدية.

الأنوثة مقطرة.. الفتنة مجسدة.. إنها المرأة التي يخشى وجودها كل العشاق.. فبهبوطها على الأرض ستنهار قصص الحب، وسيلهث خلفها الرجال، وستلعنها النساء وهنّ يحتضنّ الوسائد وحيدات باكيات.

إن للأنوثة معيارًا، وهي تخطت كل المعايير.

هل دار بيننا حوار ؟!

هل عرفت سبب قدومها في مثل هذا الوقت المتأخر ؟!

هل جالستها حتى الصباح ؟!

هل تمرغت بين ذراعيها على سطح القمر ؟! هل تناولنا نجمتين بطعم الكروم المثلج ؟! هل رسمنا الأمنيات على أجسادنا العارية ؟! هل سبحنا في بحيرات العطر، وامتزجنا حتى انصهر الكون من حولنا ؟!

ربما..

إذن أين ذهبت ؟!

لقد ظهرت كقمر وتلاشت كحلم رائع.

عبقها فقط هو الباقي، كقلب زهرة فواحة.

عبقها فقط هو المهيمن، وهو الذي احتل صدري وأنفاسي.

عبقها فقط هو الذي يفوح من شقتي وملابسي، وعالمي بالكامل.

لقد سحرتني ثم ذهبت.

فكيف لم تذهب روحي خلفها ؟!

- الحبة الزرقاء -

اللون الأزرق هو آخر الألوان زوالاً من قوس قزح.

اللون الأزرق هو لون طلاء شفتيها. ولون ردائها الحريري ولون عينيها. ولون سيارتها، ولون عالمها كله. إن البحر هناك والسماء كذلك.

اللون الأزرق هو لون الحياة ولون الرغبة.

وهي كانت تهيم باللون الأزرق.

فيروز.. كان اسمها، وفي معجم الأسماء هو حجر كريم أزرق يميل للخضرة..

قابلتها ذات مساء بالقرب من مقهى (ستار بكس) المهندسين، الوقت كان متأخرًا وسيارتي الجديدة تعطلت وأصبحت كتلة معدنية صماء، والشوارع خلت فجأة من سيارات الأجرة، ثم سطع البرق وتلاه الرعد منذرًا بليلة سوداء أخرى. وتصادف أن تشابهت وجهتينا، وفي الطريق تشابكت رغباتنا، وفي النهاية استضفتها لقضاء الليلة بمنزلي.

ووسط العبق الذي فاق كل أنواع المخدرات من نباتات وكيمياء. دارت معركة أسطورية، ارتشف كل منا من رحيق الآخر، حتى أضاءت روحه وتبدلت شخصيته فطلب الأبدية.

إن العبق لا يمنح فقط.

إن العبق يرغب أيضًا في الثمن.

لم تكن فيروز هي الأولى لهذه الليلة بل كانت الخامسة. وربما العشرين خلال الأيام القليلة الماضية.

العبق يطلب.

العبق يوجّه.

العبق يخفي رائحة الأجساد المتراصة في الغرفة الشرقية.

العبق يأمر. وأنا أطيع.

كانت قد مرت خمسة أيام على اختفاء نجيب، وثلاثة أيام على ظهور تلك الفاتنة في حياتي. والتي جعلتني رؤيتها أهيم في عالم مظلم من البحث والتقصي. إنه ذلك الإحساس الكامل بالاحتواء.

أتمنى لو أقضي معها ليلة أخرى.. ليلة وحيدة تمنحني فيها النشوة والاكتفاء ثم أموت.

كل النساء اللائي قابلتهنّ طوال الأيام السابقة، لم يعوضنني عنها ولم يصلوا بي للنشوة المنشودة.

إنه الاحتياج الذي يفوق كل أنواع الإدمان الأخرى.

هل كانت هنا حقًا ؟!

إن حياتي تتبدد من دونها.

لا توجد أنثى ترويني ولا تشبعني سواها ؟!

لا يوجد طب قادر على منحي الدواء.

إنها لعنتي الأبدية.

حاولت أن أقنع نفسي أن الأمر كله مجرد وهم، لا توجد امرأة بهذه المواصفات الفائقة، كل ما مر بي حلم جميل من تأثير المخدرات والفودكا وكنت أقتنع لفترة قصيرة.. إلا أن هذه الثقة سرعان ما كانت تتلاشى عندما أعود لشقتي وأتنسم العبق الساحر الذي غمرت به عالمي كله.. فلا توجد قطعة من ثيابي لا تفوح برائحتها ولا توجد قطعة من الأثاث لم تتشبع بأريجها، الجدران نفسها تفوح بالعبق. إنه العطر الذي يفوق كل عطر آخر صُنع على يد البشر.

حتى ذلك العطر فائق الكمال الذي صنعه جان باتست جرنوي بطل رواية (العطر : قصة قاتل) وجعل الجماهير تراه كملاك هبط على الأرض فتمزقه وتلتهمه من كثرة تعلقها به وتقديسها له وانبهارها برائحته، لن يصل لعبقه قط.

إنه خلاصة الزهور والنجوم ورائحة النساء المقطرة.

إنه العبق الذي يثير الشهوة ويدعو للنشوة والمتع المحرمة.

إنه السحر الذي هبط على الملكين ببابل هاروت وماروت.

إنه العبق.

****

عندما رأيت فيروز عارية أمامي، بعد أن نزعت تلك الغلالة الزرقاء التي كانت تخفي ما تبقى من جسدها، كدت أسقط أرضًا من الانبهار.

بعض النساء لا تتخيل أبدًا أنهن يغادرن قلب المحارة، أو يسيرن بين البشر، أو يأكلن ويشربن.. هنّ فقط خلقن ليعلمننا معنى السحر والأنوثة والانصهار.. وهي.. كانت ملكتهم.

عندما رأيتها شعرت بالضعف، لا يمكن لرجل طبيعي أن يرضي هذا النهر المتدفق من الأنوثة.. لا يوجد بشري عادي من الممكن أن يُروّض هذه الفتنة المتوحشة.. إن لم يكن من نسل عاد الجبابرة ونسل عماليق الحكايات، فعليه أن يتسلح بالحبة الزرقاء.

لن أكتفي بنصف حبة فقط. إن العلبة تحتوي على أربع حبات.

حبة كاملة زرقاء.. لملكة اللون الأزرق.

فلتكن ليلة زرقاء.

لابد أن النجوم التي تولدت عن لقائنا فاقت الانفجار الأعظم.. إني أسبح وسط بحار النشوة وحدائق الشبق والمتعة حتى أني أتخيل نفسي هرقل، أقف في قلب الفضاء لأمنع الأرض والقمر من اللقاء.

– حبة زرقاء أخرى.

العبق يتسلل لمسامات جسدي وجسدها.

العبق يسيطر عليها.

بل هو يفوح منها.

لابد وأن النشوة المنشودة لن أصل إليها إلا مع روحها.

– حبة زرقاء أخرى.

إنني أقبض على عنقها العاجي بقوة.

أكبل جسدها بجسدي.

أعتصر شفتيها.

إن عينيها تتسع شبقًا ونشوة.

دموعها تسقط من الإثارة.

لابد وأنها مارست الجنس من قبل والكيس البلاستيكي فوق عنقها.

إنها تمور كالقطط.

– حبة زرقاء أخرى.

تحاول أن تخدش وجهي بأصابعها كالحيوانات الضارية.

إنني أمنحها آخر لحظة متعة.

مع آخر قطرة حياة.

خمد العبق.. فخمدت الأنفاس.. وسكن الجسد..

ومعها وصلت لذرة النشوة.

ثم اجتاحت جسدي نيران مستعرة وشعرت بأن قلبي سيتوقف من عنف الضربات..

يا إلهي.. هل تناولت الحبات الأربع.

إنني أموووووووووووووت.. أموت.

****

الجريدة المسائية الطبعة الثانية.

سفاح نساء جديد يظهر.

فبعد بلاغ من الجيران عن سماعهم لصراخ امرأة تتألم.. أمممم وبعد أن تكررت البلاغات.. أممممم داهمت قوة.. أمممم منزل رشاد البيومي.. أممم ثري.. .وتم العثور على ثلاث وعشرين جثة.. .أمممم ولم يعثر له على أثر. وعلى الجدار الملطخ بالدماء كُتبت عبارة غامضة :

– الثالث يتلاشى في اليوم الخامس.

أممم لا أحد يعرف ماذا تعني.. وقد.. ...

٠٣

اللعنة الثالثة ـ الجشع

عرّفها دانتي : الحب الطبيعي للمتع الدنيوية تحوّل إلى رغبة جشعة في تملك المحسوس وإهمال الروحاني.. مرتبط بالشيطان مامون Mammonواللون الأصفر..

أنا الجشع.. وُلدت من فلاح فظ في حقيبة جلدية.. ولو استطعت أن أحقق رغبتي لتحوّل هذا البيت وأنت والجميع إلى ذهب.. بحيث يمكنني أن أقفل عليكم في صندوقي.. آه يا ذهبي الحبيب..

- وساطة -

يقول خليل :

عندما أخبرتني سهيلة أن لها القدرة على الوساطة، تعجبت من هذه الكلمة، وداعبتها متسائلاً :

– والأخت تعرف شمهورش !!.

لكنها نظرت نحوي باستخفاف، ثم تحدثت بجدية وأسهبت، وأنا في عالم آخر أتابع عبر زجاج الكوفي شوب ذلك الطفل الصغير الذي انهمك في تفحص صندوق القمامة، ليخرج منه علب المشروبات المعدنية المنتهية ليضعها في كيس بلاستيكي كبير ممتلئ حتى منتصفه بتلك الكنوز المعدنية.

ودارت الفكرة في رأسي عن مقدار المكسب الذي يحصل عليه طفل مماثل من جمعه لهذه الأشياء، وقبل أن أقوم بحسبتي المعهودة سمعت صوت سهيلة الرفيع يقول :

– ولكنها ليست الوساطة الروحية، إنها وساطة من نوع آخر ومختلف ولكنها تحتاج نفس الشفافية.

عندما صمتت، قررت أن أشعرها بكوني متابعًا لكل ما تقوله، وأنني أكاد أسقط من الانبهار، فقلت تلك الكلمة المعتادة :

– كيف ؟!

وتلاها الرد الصادم الذي أعادني إلى عالم الواقع وأوقف تلك الحاسبة الجهنمية الموجودة في رأسي، والتي تصرّ على معرفة مكسب طفل القمامة من تجارة هذه المخلفات.

– مخلوقات الكواكب الأخرى، سكان الأبعاد الموازية، ذلك التدفق العقلي الهائل القادم من مجرة ماجلان والذي لا أستطيع تحديد كنه طبيعته.

– حلاوتك..

سهيلة تدّعي كونها على اتصال بمخلوقات العوالم الأخرى التي تعيش عبر الأبعاد السبع، ونحن نعاني من الاتصال في المناطق المتطرفة مع شبكات الاتصال الهزيلة.

كان يجب أن أعرف أنه مقلب مدبر من زياد. ففتاة كسهيلة لن تقبل ببساطة أن تخرج معي، لتلعب دور السنيدة لصديقتها رجاء التي تجلس في المنضدة المجاورة لنا، وعلى وجهها نظرة حالمة تجعلها شبيهة بالبورص، إلا لو كانت بها علّة.. وهذه العلّة لم تستمر طويلاً خلف الحجب، لقد ظهرت وأعلنت عن نفسها بوضوح.

ليست كل الجميلات متزنات، ولكن من قال أن سهيلة جميلة، من أخدع بالضبط ؟!

الصداقة تقضي بأن أمنح لصديقي خدمة مصاحبة هذه المهووسة حتى يفرغ من رجاء، هذا الدور لعبه معي من قبل مرارًا، ولم يعترض ولو مرة واحدة، وفي المرة الأخيرة، كانت صديقة صديقتي بدينة ولا يتوقف أنفها لحظة عن إعلان اعتراضه بإفرازات لا تنتهي، وبرغم ذلك تحمل حتى مرّ اليوم.

إن له حقًا عليّ ولابد أن أرده، كما أن سهيلة تبدو مسلية وليست قبيحة إلى هذه الدرجة.

– لماذا أنت صامت يا خليل، ألا تصدّقني ؟!.

أشحت بيدي بقوة لأنفي عن نفسي التهمة وقلت:

– لا لا.. ولكن منظر هذا الصبي شغلني للحظة.

رمقت سهيلة الصبي المنهمك في تقليب القمامة عبر الزجاج للحظات ثم دمعت عيناها، وقالت بصوت متهدج :

– لم أعرف من قبل أن لك مثل هذا القلب الرقيق.

لمح زياد دموع سهيلة فأشار لي إشارة خفية بما معناه، لا تفسد الليلة وإلا سينالك مني عقاب أسطوري.

أشرت له أن الأمور بخير، هي فقط لا تتحمل وسامتي، فرمقني بنظرة متوعدة ثم عاد ليسبل عينيه لرجاء و ينهمك مجددًا في الحديث.

دار هذا الحوار الخفي وسهيلة لم تتوقف عن الكلام لحظة، ولكني كالعادة استطعت أن ألتقط الكلمات الأخيرة.

– المجتمع مدين لهؤلاء، فهو من تركهم على جهلهم في بيئة غير صحية، ثم جعل مطاردتهم هدفًا له، بدلا من أن يهيئ لهم المناخ الصحي والإنساني الذي يستحقونه، ثم يتعجبون من انتشار الجريمة.. المجتمعات المفككة كمجتمعنا، لا تبحث عن حلول بل عن شماعة تعلق عليها الأخطاء، وكبش فداء.. و..

أخذ الحديث منحنىً لم أحبه فقاطعتها وقلت :

– وهذه الوساطة التي أخبرتني عنها كيف تتم ؟!

ظهر الضيق على وجهها من مقاطعتي لها ولكنها لم تعلق وخاضت في الموضوع الجديد، فقالت بصوت عميق وكأنها تستدعي الذكريات من تلافيف مخها :

– بعد حادث المحوّل الكهربي بدأ الأمر، وخاصة عندما بدأت تنتابني تلك الحالة من الهلاوس والانفصال عن العالم و..

قاطعتها مجددًا، إن موضوع المحوّل والهلاوس يبدو موضوعًا مسليًا فعلاً، فلا يجب أن يمر مرور الكرام :

– واحدة.. واحدة.. ماه و موضوع المحوّل الكهربي.

عندما همّت بالحديث كان عامل المقهى قد أحضر حجر التفاح المعتاد، وعندما انصرف، رمقتني سهيلة بنظرة تأنيب وقالت :

– إن هذه الأشياء تقتل.

وكأني لا أعرف، هززت رأسي بمعنى أنها أضافت لحياتي بعدًا جديدًا بهذه المعلومة، فلم تتمادَ أكثر وعادت لموضوعها القديم وقالت بإعزاز :

– تجتمع كل فروع عائلتنا في الأعياد في المنزل الكبير، حيث يقطن جدي وجدتي وهو طقس مقدّس لا يجرؤ أحد من العائلة على التخلف عنه، وفي إحدى هذه المرات خرجت مع ابنة عمي غيداء بعيدًا عن الصخب والتجمعات الكبيرة التي لا تتوقف عن الغيبة والتهام الطعام وقررنا أن نتمشى قليلاً على شاطئ المصرف القريب من شريط القطار المعدني، ابتعنا بعض المثلجات من البقال القريب وجلسنا بجوار المحوّل الكهربي الذي يتوسط المسافة بين المصرف وشريط القطار لنلتهم المثلجات في استمتاع. وفي اللحظة التي هممت فيها بالانصراف وقع الحادث.

جذبني الأمر فأنصت أكثر.

– انفجر المحوّل الكهربي بدويّ مرتفع، لتفقد غيداء الوعي وتسقط على الأرض في حين قفزت أنا لأعلى لأتعثر ولأسقط أرضًا ولتصدم رأسي بالقاعدة الخراسانية للمحوّل الكهربي قبل أن أشعر بسريان التيار الكهربي القوي في جسدي.

سحبت شهيقًا عنيفًا وهي تشيح بيدها لتبعد أدخنة الشيشة التي عبقت المكان في رسالة واضحة لي بالتوقف ولكني لم أبالِ، واستمررت في إطلاق الأدخنة المعطرة في وجهها، فعادت بحنق لتكمل :

– سقطت بعدها في غيبوبة لثلاثة أيام ثم بدأ الأمر. ومنذ ذلك الوقت تلقيت خمسة اتصالات واضحة وأكثر من عشرين اتصالاً مشوشًا، ولكن أوضحها ما تم بالأمس من صديقك أمجد.

انتفضت عند ذكر اسم أمجد، الذي ذهب إلى أقاربه بلا عودة، وقلت:

– هل تسخرين مني ؟! إن أمجد في الفيوم.. والفيوم كما أعرف لا توجد في كوكب آخر. إنها في كوكب الأرض الشقيق. يبدو أنني أخطأت عندما قررت القدوم اليوم لمجالستك.

– ولكني من طلبت قدومك.. إن رجاء هنا من أجلي وليس العكس.

- وجوه صفراء -

كل شيء أستطيع تحمله في الوجود إلا خسارة نقودي، وأن يعاملني أي كائن حي على وجه البسيطة على أني غر ساذج وأحمق.

صحيح أني لم أبلغ التاسعة عشرة من العمر بعد ولكن حسابي المكتظ في البوسطة هو خير دليل على عدم اتصافي بهذه الصفة، لذا فبعد عبارة سهيلة الأخيرة، قررت أن الأمر قد فاق الحد ولابد من إنهائه، ثم إن المقابلات المبتورة تترك في قلوب النساء ردود أفعال جيدة لأنها تفتح دروب الخيال.

ماذا لو بقينا أكثر.. هل كان سيطلبني للزواج، هل كان المصعد سيخلو من العامل لأحصل على قُبلتي الأولى، هل وهل.. كثير من هل اللذيذة هذه كانت ستحيل ليلة القمر لليلة طويلة من اللوعة والأحلام.

المهم أنني أعلنت نيتي على الانصراف ولكنّ رد فعل سهيلة كان مذهلاً.

– اجلس أيها الأحمق.. أنا لم أنتهي بعد.. ولا أحاول أن أنسج شباكي حولك.. إنك في خطر عظيم.

هبطت صخرة تعقلي من فوق المنحدر لتدفع أمامها كل المشاعر الجيدة، وكدت أن أنفجر في وجهها، وأن أنقض على عنق زياد لألتهمها، ولكن نظرة عينيها جعلتني أؤجل ثورتي، ثم أجلس وأنا أتطلع إلى عينيها في قلق.. إن هذه العيون لا تكذب.. إنها غاضبة ولكنها صادقة.. ولابد أن أكف عن

حماقتي وأنصت قليلا، إن روح التاجر بداخلي تجبرني على أن أشتري لا أن أبيع.

عبثت سهيلة قليلاً بالملعقة المعدنية، مديرة السائل الساخن بقلب المج الخزفي، قبل أن تنظر لعينيّ بثبات وتقول :

– هل تحلم بأشياء مخيفة هذه الأيام يا خليل ؟!.

صعقتني العبارة فقلت بلا تردد :

– وكيف تعرفين بهذا الأمر ؟ هل أخبرك زياد ؟ ذلك الأحمق لسوف..

قاطعتني بصرامة، لابد أنها شعرت بأنها أحكمت سيطرتها عليّ، وقالت :

– صه أيها الأحمق.. أنا لم أرك أو زياد إلا منذ نصف ساعة.. أخبرني دون نقاش وفي النهاية سأوضح لك كل شيء.

بالفعل لقد سيطرت عليّ سهيلة بل إنها بدأت تخيفني.

– نعم هناك كابوس واحد يتكرر بلا انقطاع منذ فترة.

– وما هو هذا الكابوس.. قصّ عليّ أحداثه.

ابتلعت ريقي وعدت بذاكرتي لذلك الكابوس المخيف وقلبي يخفق بشدة.

ماذا دهاني ؟! كيف أستجيب لحمقاء العوالم الأخرى بهذه السهولة ؟!

– إنني أرى نفسي واقفًا فوق سطح زجاجي شفاف، وبالأسفل وعلى عمق كبير يغلي قدر عملاق ويفور، وأسفل منه نهر من النيران المتدفقة الكثيفة.. لست وحيدًا في ذلك المكان، هناك آخرون ولكن الملامح غير واضحة.

في البداية كان هناك ستة أشخاص آخرون يعطون ظهرهم لي، ثم سقط اثنان منهم في القدر تباعًا.. ومساء أمس أُضيفت بعض التفاصيل، وحلمت بالعشرات من أطفال الشوارع يحيطون بي وكل منهم يتدلى من ذراعه خرطوم مطاطي يصفّي جسده من الدماء، في حين يقومون من حولي بتهشيم اللوح الزجاجي في رغبة صادقة في إسقاطي، وكلما أوشكت على السقوط استيقظت من النوم.

ظهر القلق على وجهها وعادت لتسألني :

– هل تعرف هؤلاء الأطفال ؟!

– نعم.

– من هم ؟!

– لا يمكن أن أخبرك.. دعيني أنصرف ؟!

– سؤال أخير.. ألم يخبرك أمجد بأي شيء مخيف منذ غادرت منزل الشيخ ياسين.

– توقفي توقفي.. من أين لك بهذه المعلومات ؟!

– إذن لتنصت.. لأن ما سأخبرك به تتوقف عليه حياتك. وربما حياة أصدقائك أيضًا.

– إني منصت.. !

زياد يرمقني وعلى وجهه ابتسامة خبيثة، أتمنى أن أهشم وجهه لتزول.

إنني أكاد أفقد عقلي.

– لقد أخبرني أمجد بما تجهلونه و..

– إن أمجد في الفيوم، فهل حدّثك في الهاتف، أم ماذا ؟!

– لا تكن عجولاً وأنصت.. فأمجد ليس في الفيوم.. إنه في القصر العيني الفرنساوي، أصيب في حادث وسقط في الغيبوبة، روحه هي التي فارقت عالمنا إلى بعدٍ آخر.

– هل مات ؟!

– لا لم يمت ولكنّ الموت ليس عنه ببعيد.. لا تقاطعني ووفر أسألتك للنهاية.

****

انطلقت سهيلة تتحدث وأنا غير منصت لها تمامًا، لقد أرجعني حديثها لتلك الليلة المروعة، عندما نجونا من الاحتراق في منزل الشيخ ياسين، وقتها ظننت أن كل الأمور انتهت وأن ما حدث كان مجرد تحذير من السماء لأتوقف عن تجارتي المشؤومة، وأسلك طريقًا مختلفًا لجلب الرزق.

انقطعت إلى الصلاة عدة أيام، ثم انحسر المد مع مرور الوقت، وكأن روحي القديمة عادت وسكنتني، وتدريجيًا عدت لسيرتي الأولى، ذلك الوغد الذي لا يتورع عن فعل أي شيء مقابل المال. أهيم في الطرقات لأستقطب أطفال الشوارع من أجل استنزاف دمائهم مقابل حفنة هزيلة من المال.. إنها تجارة حقيرة ولكنها تدر أمولاً طائلة إن كنتم لا تعلمون.

الطفل من هؤلاء لا يتورع عن استنزاف دمائه مرة أو مرتين أسبوعيًا. من أجل مبلغ لا يتعدى الخمسين جنيهًا ونحن لا نرى غضاضة في ذلك، فدائمًا ذلك الكيس البلاستيكي ذو الإبرة الغليظة جاهز لاستنزاف المزيد من الدماء، ومنحنا المزيد من الأموال.

ولا أخفي عنكم أن هدفي الأكبر أن أكون سمسارًا من سماسرة هذه التجارة دون الحاجة للمرور إلى دروبها المعقدة عبر وسيط يستنزف الجزء الأكبر من الربح. ولكنّ الوقت لم يفت بعد.

وهناك شق آخر لهذه التجارة والتي تحتاج لسمسار بارع، وهو الجزء الأكثر خطورة وقسوة في عملنا والذي لا يسمح بالعمل فيه إلا للمميزين وأصحاب الصلات.

إن مجموعة (حمادة عكوش) هي الأشهر. أعرف الآن أني وغد في نظركم، ولكنها مهنة موجودة منذ أكثر من ثلاثة عقود، أنا لم أختلقها أو أبتكرها، ولو لم أقم بدوري لقام به العشرات من غيري.

أخبرني (حمادة عكوش) أننا كائنات أقل شأنًا، لا مستقبل لنا ولا فائدة، لذلك من حق الأغنياء أن يعتبرونا مجرد قطع غيار حية، ثم لك أن تسعد لأن جزءًا منك سيحظى ولو لفترة من الزمن بالتقدير اللائق في جسد آخر يفوح بالعطور ويتغذى على تلك الوجبات التي تحتاج كتالوج لمعرفة كنهها.

الحاجة والشعور بالدونية هي التي تجعل هذه التجارة رائجة، هناك كثيرون، بل يفوقون التخيل، من يرون أن مبلغ الألف جنيه فادح ليبيعوا أعضاءهم مقابله، إن الكلى وفصوص الكبد الأعلى ثمنًا ولكنّ سوق القرنيات رائج.

الحياة البشرية هانت، فهانت معها الأعضاء البشرية.

هل تعلمون أن هناك نساءً عجائز في السجون، لأنهم لم يستطيعوا أن يدفعوا قيمة إيصال أمانة بقيمة خمسمائة جنيه.

كما أنكم لم تروا العشوائيات التي تنخر في جسد مصر.

لست وحدي من أمتهن هذه التجارة، ولا مبرر جيد لديّ بأكثر مما أخبرتكم به، ولكني لم أدخل إلى هذه التجارة عبر المنحنى الصعب، هناك من يخطفون ويقتلون ويرتكبون كل الموبقات من أجل جنيه زائد، وربما لذلك أتت لي الإشارة في منزل الشيخ ياسين كي لا أتمادى.

لا يعرف أحد عني هذه الحقيقة إلا زياد، وبرغم أنه يمقتها إلا أن المال المتوفر دائمًا عبري له تأثير السحر. فقط ما ينغص عليّ تلك الوظيفة هو تلك الكوابيس التي تغص بالوجوه الصفراء الشاحبة، تلك الوجوه التي سحبت منها الدماء، والتي تعاني من أنيميا حادة وإهمال المجتمع.

عالمي كله يغص بالوجوه الصفراء الشاحبة، والوجوه الإجرامية المخيفة، لقد اعتدت على وجوه سماسرة الموت، ولكني لم أعتد بعد على تلك الوجوه الصفراء غائرة الأعين والتي يحلق الموت فوق رؤوسها، والتي تريد الانتقام مني.

أنا وهؤلاء السماسرة نستنزف حياتهم قطرة وراء قطرة، وكلما كان الربح أكبر كلما ازددنا جشعًا.

الطريق إلى الجحيم ليس دائمًا مفروشًا بالنوايا الحسنة، بل النوايا السيئة هي الطريق المباشر إليه.

والمال هذه الأيام، لا تصنعه إلا النوايا السيئة.

- سهيلة -

تقول سهيلة :

إن الوساطة شيء مخيف، فهي تجارب خارقة لا دليل على حدوثها، إلا ما تقصه على الآخرين، لذلك تكون الثقة هي العملة الأعلى ثمنًا في هذه التجارب.

فكيف يصدق أي بشري أن ذلك الكيان الفائق في مجرة ماجلان يشعر بالوحدة، وأن ذلك الجزء من الجنس البشري الذي غادر الأرض في عصر الديناصورات وقبل العصر الجليدي يحنّ للعودة إلى كوكبه الأم. وأن هناك كائنات فضائية تتوالد بأعداد مهولة، لتتغذى على صغارها في كوكبهم القاحل.

إن الوساطة ليست نعمة في كل الأحوال. خاصة حينما يكون الاتهام الموجه إليك هو الجنون.. فالفتاة المجنونة لن تجد من يصادقها ولن تجد من يهتم بها، ولن يكون لها بيت يومًا ولا أولاد..

إن الرجال يخشون النساء بالفطرة، فما بالكم بمن تمتلك قدرة متفوقة.. إن المعرفة مخيفة في حد ذاتها، فما بالكم عندما تختص بها امرأة دون الرجال ؟!

كنت سعيدة لفترة طويلة بقدرتي المتفوقة هذه، ولكني مؤخرًا أصبحت أخشاها وأمقتها. فكل الاتصالات السابقة كانت مريحة، وكانت تدغدغ

عقلي، كنسيم معطر فوّاح يداعب أطراف الخلايا العصبية مباشرة، إحساس متفوق بالسمو فوق كل شيء، إحساس بالتمدد حتى احتواء الكون كله.

كل الاتصالات كانت تشعرني بالأمل، بالتفاؤل بالحياة. ولكن الاتصال الأخير كان مختلفا تمامًا.

إنه تواصل مقبض، يفوح برائحة الألم والمرض والموت.. إنه التواصل الذي جعلني أتمنى لو أن الله لم يختصني بتلك الهبة الرائعة.

ففي تلك الليلة والتي اشتد فيها البرق والرعد وتشبّع الهواء بشحنات كهربية عالية، لجأت إلى فراشي ونمت، وروحي نفسها تكاد تتجمد من البرد، وعندما تمكن النوم مني وبدأت أنفاسي تنتظم، شعرت بالصدمة.. هناك من يقاتل ليُتمّ الاتصال، ولكنّ الإحساس المصاحب مخيف.

هناك درجة مرعبة من الشر تفوح في الأجواء.

أعرف أن الكون يغص بالكائنات من اتصالاتي السابقة، فلا مانع أبدًا أن يكون هذا الاتصال شريرًا، وهذا ما كان.

الأفكار كانت تُسكب في رأسي كمعدن مصهور، ثم تتحول إلى حشرات تلتهم خلايا عقلي دون هوادة.

روحي منقبضة وتنفسي عسير.. حاولت أن أقطع هذا الاتصال دون فائدة.. إنه اتصال مشؤوم.

روحي تُسحق ومشاعري تتزلزل.

الألم يجتاحني، مع كتلة هائلة من المشاعر السلبية.

لا فائدة من محاولة الهرب لأن التواصل قد بدأ بالفعل، وهاهي الصور المفجعة تتسلل إلى عقلي.

في النهاية تمّ الاتصال، وانفطر قلبي.

هل هذا هو الجحيم ؟!

هل هذه هي النهاية التي أعدّها الخالق للخاطئين والعصاة.

الرحمة يا الله.. كان ما رأيته مدمرًا لأعصابي وكياني، ثلاثة من الخطاة يُعذبون بقلب جحيم مشتعل ودون توقف، وأحدهم هو الذي يتواصل معي.

إنه يخبرني أن هذا ليس الجحيم كما أتخيل، إنه سجن من نوع خاص أنشأه كيان حاقد من الجن، وأنه وأصدقاءه سقطوا فريسة لإحدى لعناته وأنه هنا بروحه ولكنّ أصدقاءه خُطفوا لبرزخ خاص ثم تم أسر أرواحهم والقيام بتعذيبها.

إنه يخبرني بأن جده (الشيخ ياسين) سخر في شبابه كيانًا شريرًا ملعونًا ليعاونه في أعماله السفلية وسحره الأسود. هذا الكيان هو الذي ينتقم منهم الآن بعد أن نجح بمعاونة أمجد نفسه في القضاء على ذلك الكائن

الشيطاني الذي استحضره الشيخ ياسين ليمنع الكيان من العودة لعالمه وطاعته إلى الأبد.

الطلاسم كانت تكبل الكيان والعلاقة القوية بين الشيخ ياسين والكائن الشيطاني كانت حائطًا صخريًا أمام طموح الكيان في التحرر، ولكنّ مرور الزمن جعل الشيخ ياسين يضعف ومعه تضعف الصلة، القوة كانت الرابط، فلما وهن الشيخ ياسين وهن الكائن الشيطاني، واستطاع الكيان أن يتخلص منهما سويًا وبمساعدة أمجد، ولكنّ الأمر لم يتم كما كان متوقعًا من الكيان، لأن الشباب السبعة احتفظوا بحيواتهم مما أفسد الخطوة الأخيرة.

أمجد هو من أفسد الأمر، لذلك قرر هذا الكيان الحاقد أن ينتقم من الجميع قبل أن يُهرق دماءهم. ولذلك أيضًا فقد وصمهم باللعنة. كل منهم سيرتكب خطيئة ستجعله يستحق العذاب ثم الموت. إنها عدالة ذلك الكيان الممسوخة.

أمجد يطلب مني أن أحذر أصدقاءه وأن أساعده.

أمجد يرشدني.

أمجد لا يعرف أني مجرد وسيطة لا تملك من أمرها شيئًا.

****

لم يكن لقائي بخليل هو اللقاء السعيد المرتقب، إنه الموسوم الثالث، هكذا أخبرني أمجد، فالكيان فتح له نافذة يرى عبرها ما يحدث كوسيلة إضافية لتعذيبه.. نقطة الضعف الكبرى في خطة الكيان هي وجودي، وتلك القدرة

المتفوقة التي أملكها، فبوجود أمجد في العالمين صنع جسر تواصل بيننا لا يدري عنه الكيان أي شيء، وهذا الجسر مكنني من معرفة كل المعلومات السابقة، ووضع على كاهلي حملاً كبيرًا بتحذير الجميع ومحاولة إنقاذهم.

أنا الآن الوسيلة التي تربط العالمين ببعضهما عبر أمجد. فهل لهذا فائدة ؟

المشكلة الكبرى أن شخصًا كخليل لن يصلح بعقليته المتخلفة هذه في مواجهة هذه القوى الشريرة، خاصة وأنا لا أعرف ما هي شهوته الكبرى، أو خطيئته التي ستقوده للهلاك.

العقبة الأولى أنه يعتبرني مجنونة، فهو لا يصدق ما أقصه عليه، هذا جلي في عينيه، ثم إن موضوع اللعنة والمخلوقات الكونية والسحر وخلافة ليست من مفردات عالمه.. فهو يقيس العالم بميزان الربح والخسارة فقط.. ولذلك دخلت له عبر هذا الباب.

– إن حياتك في خطر وستفقد كل شيء، لابد أن تساعدني أنت ومن بقي من شلتك لنبحث عن وسيلة لإيقاف هذه اللعنة.

ولكنه كان كالأحمق، وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة من يشاهد عرض المهرج السمج في السيرك.

منحته رقم هاتفي المحمول ليتصل بي إذا واجهته مشكلة، وطلبت منه أن يكون أكثر حذرًا وحتى نلتقي جميعًا بالغد، فقد قررت أن أجمع الأصدقاء لنعقد اجتماع حرب.

- أربعة من الأصدقاء -

عندما اجتمعت مع الأصدقاء الأربعة، شعرت بدهشة كبيرة، كيف اجتمع هؤلاء الشباب مع بعضهم البعض. فالأعمار متباينة والصفات مختلفة والثقافات أيضًا والمستوى الاجتماعي.

يبدو أن سوء الحظ هو من جمعهم معًا !!

مظهرهم مجتمعين ذكرني بمطلع قصيدة الأصدقاء. للشاعر الفلسطيني المولد سوري المنشأ أحمد دحبور.

(كنّا هُنا : أربعةً، خمسةً، أو ستّةً،

ولم أكن بيننا

أوّلُنا أخرج منشارَهُ

من روحهِ، واحتزَّ أعناقَنا)

هذا المنطق ينطبق تماما على الحال القائم هنا..فأمجد من جرهم جميعًا إلى هذا الجحيم المستعر..وها هو الموت قاب قوسين أو أدنى منهم، يتهيأ لحز أعناقهم.

سأصفهم لكم.

خليل نحيل طويل إلى حدٍ ما، لم يتجاوز العشرين من العمر، وفي عينيه نظرة نهمة إلى الدنيا، عيناه قلقتان كتاجر أو سفاح.

زياد في الخامسة والعشرين وربما أكثر قليلاً، له تلك النظرة الزجاجية الناعسة ويتمتع بالكثير من السماجة ،ولا يتوقف لحظة عن تمليس شعره الناعم الذي يطال كتفيه. من اللحظة الأولى تعرف أنه زير نساء.

شحتة تستطيع أن تصفه بالبلطجي أو الفتوة، يقترب من سن زياد أو هو أكبر قليلاً، لديه جسد منتفخ بالعضلات وأسنان متشابكة تحتاج في أقرب فرصة لتقويم، ولا تشعر معه بالراحة.

أمين فنان، هذا الوجه وتلك الأصابع لفنان.. تلك النظرة الحالمة التي تتجاوز كل شيء وتعبر إلى عالم آخر تشي بكونه فنانًا.. إنه أكثرهم رقة ووداعة.

كيف اجتمعوا ؟! لا مجال للبحث الآن. المهم أن يتم اللقاء على خير.

أمجد أخبرني أن قمرًا واحدًا يمر بدون أن يسقط أحدهم في الخطيئة، ويقهر شهوته ينهي اللعنة.. كل منهم لابد وأن يعرف أخطاءه وزلاته، أقل من أسبوعين وينجون جميعًا.

تُرى ما هي خطيئة أمين، إنه يبدو رقيقًا تمامًا !!

****

لا يمكن أن أقول إن هذا الاجتماع نجح أو فشل تمامًا، بعض العقول تفهمت والبعض الآخر سخر والبعض تحفظ.

فقط عندما ذُكر موضوع الكوابيس اهتموا جميعًا، وبدأ بعض الاقتناع يغزو الوجوه.

وفي النهاية وافق الجميع على المحاولة، وإن أنكر كل منهم أنه يمارس الخطيئة التي يمكن أن يجازى عليها بالموت.

وانفض الاجتماع.

- حمادة عكّوش -

يقول خليل :

أصبحت أخشى تلك المخبولة المسماة سهيلة بشدة، وأعتبرها نذير شؤم، عقلي لا يستوعب كل هذا الكلام المعقد عن اللعنات والجن والشياطين والأعمال، لابد وأن هذه المخبولة قد تلف عقلها من مشاهدة القنوات الفضائية التي لا تعرض إلا هذه السخافات.

وجودها نفسه أصبح يجثم على روحي.

حمدت الله على أنها انصرفت بعد أن كررت على مسامعي وعلى باقي أصدقائي ذلك الجنون الخاص بالجحيم وأمجد والكيان والكائن الشيطاني، وبعد انصرافها جلسنا نتناقش حول ما أخبرتنا به، الجميع كان منشغلاً بالمشكلة وأمين منشغل بسهيلة.

السخف لا ينقطع عن هذا العالم.

في النهاية قررنا أن نكون على اتصال ببعضنا إذا جد جديد، وخاصة أن موعدي بعد غد مع اللعنة.. لا أعرف لماذا بعد انصرافهم شعرت أن الأمر مبتذل، وقررت ألا أستسلم لهذه الخرافات. وإن تبدل هذا الأمر مع مرور الوقت عندما شعرت بمدى ضعفي وضآلتي أمام الخطر المحدق بي.

إنني مستهدف من قبل قوة شيطانية.

لا أصدق نفسي وأنا أردد هذه الكلمات.. الأمر يبدو كالجنون.. أما الجنون الحقيقي، فهو أن رشاد ونجيب اختفيا وقبلهما أمجد. إن لم يكن الأمر صادقًا بالكامل فهناك جزء من الحقيقة، ثم من يصدق أن رشاد يتحول إلى سفاح ويفتك بثلاثٍ وعشرين امرأة في أقل من أسبوعٍ.

لا يمكن اتهام الجنون بهذه التهمة.. لابد أن هناك شيئًا ما أقوى دفع رشاد إلى هذا التحول المخيف. شيء ما شيطاني.

هل أصابه مس ؟!

لابد وأن ذلك ما حدث بالفعل.

لقد أخطأنا بزج أنوفنا، في أمور الشيخ ياسين. وها هي النتيجة، اللعنة على اليوم الذي قابلت فيه أي من أفراد شلتي. اللعنة على أمجد وسماح ألف مرة.

****

في المساء ذهبت إلى زياد.. لا أعرف لماذا أشعر بالقلق إلى هذه الدرجة.. تلك المخبولة المسماة سهيلة سممت حياتي بالفعل. أصبحت أخشى أي تجمع لأطفال الشوارِع، أشعر أنهم في أي لحظة سيفتكون بي.

تلك السيارات المندفعة.. لابد وأنها كانت تقصد دهسي.

لا لا يمكن أن أطيع سارة صديقتي.. إنها تحاول الإيقاع بي بالتأكيد.

لا إن الوضع يتطور ويسير من سيء لأسوأ..

لعنك الله يا سهيلة.

أخبرت زياد أثناء تبادلنا أنفاس السيجارة المحشوة التي قررت أن تكون الأخيرة، أنني سأتوقف عن أي نشاط كنت أمارسه حتى تمر هذه الغمة، حتى الطعام والشراب لن أسرف في تناولهما، سأشتري نفسي.. صحيح أن هذا سيصنع لي مشاكل جمة، ولكن الحياة أثمن من أي نقود، والخسارة القريبة قد تعني ربحً قادمًا.

حاول زياد أن يهوّن من فداحة الأمر، ولكنّ الموضوع لم يكن بالبساطة المنشودة.. فبعد غد أعرف يقينًا أن الموت سيتربص بي، وأنني إلى الجحيم ذاهب.. يحتاج الأمر لأعصاب غير عادية لأتجاهل الأمر.

ثم لماذا ستقلق يا زياد، ربما ستُكسر اللعنة قبل أن يحين موعدك.. أما أنا فقد صدر ضدي حكم الإعدام دون استئناف.

****

أصبح هاتفي المحمول كالسنترال.

القلق أصبح كالوباء.. والأحداث غير الطبيعية تنهال على رؤوس الجميع.

ليس أقلها الدماء التي تلطخ الجدران في منزل زياد ولم تنجح أي مساحيق أو منظفات لإزالتها، أو تلك الفتاة التي تطارد أمين وتتلاشى كلما اقترب

منها، والكلب الذي يتبع شحتة في كل مكان، دون أن تلمس قدماه الأرض.

إذن الجحيم قرر أن أن يرسل بمبعوثيه للجميع، دون أن يختصني وحدي، وهذا شيء مريح إلى حد ما.

ليس معنى هذا أني أتمنى السوء لهم، فقط أريد ألا أشعر بكوني وحيدًا في مواجهة الموت.

****

الوقت يمضي سريعًا كحصان بلا لجام.

الليل مضى والنهار تلاه، وها هو فجر اليوم الموعود يقترب والنوم يجافيني.

طرقات على النافذة.

أنتفض هلعًا وأقبض على سكين المطبخ، لن تتمكن مني الشياطين دون مقاومة، إن لحمي مر.. لقد قاتلت من أجل بعض الأوراق المالية من قبل وهُشم أنفي، فلن أستسلم لهم حتى يبتروا أطرافي.

الطرقات على النافذة من جديد.. ثم صوت (عدوي) اليد اليمنى لحمادة عكّوش.. لابد أن الشياطين تنظر نحوي بشماتة.إن حمادة عكّوش يريدني الآن. ومن يريده حمادة عكّوش، فهو في حكم الميت.

لقد أخلفت عدة مواعيد له، وهو لا يسمح بمثل هذه التسيب والإهمال، لو اقتلع عيني اليمنى اليوم فقد رأف بي.

هذا الموقف أنساني كل شيء، فلو قرر (عدوي) أن يقوم بالموكب المعتاد بالمغضوب عليهم (الزفة) فمعناها أني هالك.

الصدمة جعلت قرار الهروب يتأخر، فقد انتقلت الطرقات من الشباك إلى الباب.

هل أفتح ؟!

إن جلوسي بعد طلاء جسدي بالقار على ظهر الحمار سيدمرني، لا يمكن أن أستسلم لهم.

إن الإهانة ستكسرني أكثر من ضياع كل نقودي. إن حمادة عكّوش يذل من يكسر أوامره، وأنا لن أسمح بهذا..

أرى ابتسامة الموت على طرف السكين الذي أحمله، واللعنة بعيدة الآن.. إنني في هذه اللحظة أخشى حمادة عكّوش أكثر من الموت نفسه، فحمادة عكّوش لن يتورع عن تمزيقي وبيع أعضائي بعد إذلالي، إن سعري وأنا ميت أعلى بكثير من وجودي على قيد الحياة، لابد أنه سيعوض المبلغ الكبير الذي فقده بتهاوني في عملي.

لقد نسيت أو تناسيت مهمتي الأخيرة، كل ما كان عليّ أن أقوم به هو أن أستدرِج تلك الفتاة التي حددها الطبيب في المستشفى، والتي عرف أنها المناسبة للطلبية الحالية بعد أن خدعها بحقيقة مرضها وأجرى لها اختبارات الأنسجة.

نعم لقد كذبت عليكم في البداية، فأنا أقوم بذلك العمل البغيض، أستدرِج الفتيات إلى مناطق نائية، ويتكفل حمادة عكّوش ومن معه بالفتك بأعضائها.. لا أحد منكم آمن فسماسرة الموت في كل مكان.

عندما تهشّم رتاج باب شقتي لم أنتظر أن يبادرني القادمين بالهجوم، ألقيت نفسي بين أيديهم.

وتناثرت الأشلاء.

<u>تقول سهيلة :</u>

واحد آخر يلتهم أصابعه..

ما قصه زياد على أذنيّ كان بشعًا، لا يمكن تصوره.. لا يمكن أن أتخيل أن يكون خليل هو من قام بهذه المذبحة البشعة التي يخبرني زياد بوقوعها. إن الأجواء كلها غريبة.. ثم إن هناك آثار دماء ومخالب، ومادة صفراء عجيبة تحيط بكل شيء.

لقد أخبرني زياد، أن رجال المعمل الجنائي استعانوا بالجاروف لتجميع الأشلاء التي غمرت كل شيء. كما أن خليل لم يُعثر له على أثر، وتقرير المعمل الجنائي يقول إن هناك فصيلة دم تختلف عن كل الفصائل الأخرى.. وربما تعود إلى خليل لو ثبت تواجده وقت الحادث..

ما يحيرهم هنا هو العبارة التي خُطت على الجدار بالدماء :

– الرابع يتلاشى في اليوم الرابع.

ويقولون إن هناك رابطًا بينها وبين جريمة سابقة.. إن القاتل واحد وربما هما اثنان يكوّنان فريق عمل أو أكثر.

أما أنا فقد كانت عندي الإجابة، فخليل تلاشى وذهب إلى البرزخ وروحه تُعذب الآن.

٤٠
اللعنة الرابعة - الكسل

عرّفها دانتي : إضاعة الهبات والمواهب الإلهية الممنوحة للفرد.. مرتبطة بالشيطان بيلفيجور **Belphegor** شيطان الخداع والكذب، يزيد نشاطه في إبريل.. مرتبط باللون السماوي..

أنا الكسل.. لقد وُلدت على ضفةٍ مشمسة.. حيث أستلقي منذ ذلك الوقت.. وأنت سببت لي أذىً كبيرًا بإحضاري من هناك.. دعني أُحمل إلى هناك ثانيةً بواسطة الشره والشهوة.. إنني لن أتفوه بكلمةٍ أخرى ولو مقابل فديةٍ منك..

- خطيئتي -

قال الراغب الأصفهاني في كتابه (الذريعة) في ذم الكسل:

"من تعطّل وتبطل انسلخ من الإنسانية، بل من الحيوانية، وصار من جنس الموتى".

أن تكون بلا عمل، هذا هو الجحيم الحقيقي. ساعتها لا يهمّ مضي الوقت، ولا يهمّ النهار ولا يهمّ الليل. ولا تهمّ الحياة ذاتها..أنت ملك الظروف ورياح الحظ.

أنت في مهب كل الأعراض الجانبية للبطالة، أنت تمارس كل الأفعال التي من شأنها أن تدمر حياتك.. كأن تترك كل شيء وتقتحم منزل مشعوذ يمارس فنون السحر الأسود.. تنقطع عن الحياة وتوهم نفسك أنك منهمك في عمل أسطوري يغنيك عن كل شيء، وهو ملاحقة الفتيات.

أنت قد سئمت من العبارة المقيتة (لا توجد وظائف خالية) لقد بدأ الأمر معك بحماس طوال الشهور الأولى، أنت أنهيت السنة النهائية من كلية التجارة، أنت الآن تحلم بالعمل والزواج والسيارة.

أنت الآن تبدأ الرحلة التي سبقك إليها الآلاف.

رحلة البحث عن العمل.

حماس الشباب والتفاؤل يجعلك تعتقد أن حظك سيختلف عنهم بالتأكيد. إنه أنت.

وفي النهاية تستيقظ وكل أحلامك مهشمة، ونفسيتك محطمة، فتفتر همتك ويقل حماسك وتتعامل مع كل شيء بلامبالاة.

شيء ما تغير بداخلك، أصبحت أقل حماسًا لكل شيء. ليبقى بداخلك إحساس مقبض دائم وتساؤل لا ينتهي :

هل هناك ما يستحق الحماسة في هذا العالم ؟!.

يقول زياد :

لا شيء يجب القيام به في لحظتها، إن الوقت ممتد أمامي، وما لم أقم به الآن، فلينتظر للغد أو ليقم به غيري.

لست رئيس دولة فتكون قراراتي ذات تأثير قاتل على المواطنين، ولا أعمل حتى ليتسبب فتوري وكسلي في تعطيل عجلة الإنتاج التي لا ترحم ولا تشبع من العرق والدموع، ولست أحمق كخليل الذي ورطه جشعه مع عصابة كعصابة حمادة عكّوش لأهرع لأتمّ العمل خوفًا من العقاب.

أعترف لكم جميعًا أنني أكثر أفراد شلتي كسلاً، حتى الماء أنتظر أختي أو أمي لتناولني إياه، وإلا هو العطش.

وفي معظم الأحيان أنام جائعًا بدون طعام لمجرد ألا أحضره من المطبخ.

هذا كسل حميد لأن تأثيره ينصبّ على رأسي فقط، ولكنّ الشق الآخر من الأمر هو المخيف.

الكسل قاتل.. للأحلام وللآخرين.

الكسل هو لعنتي من قبل أن تطأ قدميّ منزل الشيخ ياسين، والكسل هو لعنتي الحالية..

أعرف أن هذه هي لعنتي المختارة، وأعرف أنني القادم، لقد أخبرني أمجد عن طريق سهيلة بهذا الخبر المثير.. قُضي الأمر إذن.

إن نهايتي قريبة، فاليوم الرابع ليس ببعيد.. ولكن كيف سيتسبب الكسل في موتي ؟!

هل أنا خائف ؟!

بالطبع لا.. فالخوف مرحلة أولى.. وأنا تجاوزت هذه المرحلة منذ زمن، إنني أنتظر الموت.. ترى ما هي مشاعر من ينتظر الموت ولا تفصله عنه إلا أيام معدودة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ؟!

كل شيء حولي مكتسي بالسواد، فأنا الوحيد الذي يعرف خطيئته ويعرف أنه مستحق للعقاب بجدارة، فكسلي تسبب في مصائب كثيرة، بل في مآسي.. أقربها يقطن في الغرفة السفلية في منزلنا العتيق المكون من طابقين متصلين على النظام القديم.. وهو أخي.

إن أخي الصغير هو ضحيتي الأولى والذنب الماثل أمام عينيّ إلى الأبد.

حدث الأمر في تلك الليلة الصيفية الكئيبة، كنت كالعادة مستلقيًا في فراشي منهمكًا في اللاشيء وغارقًا في عوالم العدم المتشابكة، عندما سمعت صراخ أخي الصغير ونحيبه، وكالعادة أيضًا لم أكلف نفسي عناء استكشاف الأمر، برغم صوت الارتطام المدويّ الذي سبق الصراخ.

أخي الصغير ملقىً أسفل الدرج، وقد تهشمت إحدى الفقرات بعموده الفقري، يتألم ويبكي لنصف ساعة كاملة منتظرًا النجدة من أخيه الأكبر. المنهمك في تدخين سيجارته اللف. والمتجاهل لأنين أخيه في لا مبالاة قاتله.

لم يتصور أخي (وحيد) أثناء امتطائه للدرج الداخلي، أن ينتهي الأمر إلى مأساة.. هرمونات الطفولة القلقة لم ترحمه، الجميع مشغولون عنه بمشاهدة المباراة ، وأخوه الكبير في غرفته التي لا يغادرها إلا لمامًا بصحبة خليل.

إنه يريد أن يلعب.

عقله الصغير يبحث عن وسيلة، يتأمل المكان في حماسة، ثم يلمح الدرج، لعبة الكبار الأثيرة التي تنهره أمه عنها طوال الوقت.

يتلفت وحيد حوله في حذر، لا يجد أحدًا، الكل منشغل عنه..إنها فرصته ليمارس لعبة جديدة.. يتسلق الدرابزين الخشبي، يقبض عليه بيديه وقدميه،

وينتظر تلك اللحظة المثيرة التي سيترك يديه فيها لينزلق فوق العارضة الخشبية للدرابزين.

الأمر ليس بالسهولة المتوقعة، المفروض أن يترك يديه ويتشبث بقدميه، ولكنه لم يستوعب هذه النقطة بعد، يباعد بين يديه وقدميه. يختل توازنه، يحاول أن يتشبث بيديه فوق الدرابزين الخشبي، ولكنه يفشل.

يسقط وحيد متدحرجًا فوق حواف الدرج القاسية، إنها ليست المرة الأولى التي يسقط فيها من فوق الدرج، ولكنها السقطة الحاسمة.

حافة الدرج لم ترأف بعموده الفقري الأخضر. سحقت له فقرة وحيدة، كانت كفيلة بكل شيء.

لم يسمعه أي من أفراد أسرته المنشغلين جميعًا بنهائي أفريقيا، بين مصر وفريق لا أذكره.

صوت التلفاز المرتفع، وضجيج الانفعال، غطى على صوت الصراخ الضعيف والأنين فلم يسمعه غيري.

وأنا استسلمت لخمولي وقنوطي، وتركت أخي الصغير يعاني وتتسرب من جسده العافية والحيوية، وحيدًا كاسمه ملقىً كدمية مهشمة أسفل الدرج، حتى أتت أمي المفجوعة من الخارج لتشاهد الكارثة.

الكذب والخداع كانا وسيلتي للنجاة.

ملامح الحزن والأسى على وجهي، الصدمة محفورة في ملامحي، أقف بينهم أمام أمي كحمل وديع، لو تنبّه لهرع لنجدة أخيه.

النوم كان عذرًا مقبولاً عند أمي التي فقدت أحلامها الخاصة بطفلها المفضل آخر العنقود.

سامحتني ولكنها لم تسامح أبي وإخوتي الذين تركوا وحيدا المصاب ليشاهدوا مباراة كرة قدم لعينة.

وبعدها تغيرت أمي هي الأخرى، وظلت ترتدي ثوب الحداد إلى الأبد.

لحظة اهتمام مني كانت من الممكن أن تبدّل كثيرًا من الأمور، وتوفر أموالاً طائلة احترقت بين أيدي الأطباء.

أنا السبب في معاناة أسرتي.

وفي أن يظل أخي يعاني ما بقي له من العمر فوق مقعد متحرك. يحرك ذراعيه بصعوبة ويعجز عن تحريك ساقيه ويحتاج لمن يعينه حتى في ذهابه لقضاء حاجته.

وهل اتعظت من الحادثة، هل زايلني الكسل، هل انتهجت الطريق السليم، هل تبدل في روحي المنكسرة أي شيء ؟!

بالطبع لا.. إن همّتي الفاترة لا تغيرها أحزان العالم ولا آلامه بل تعمّقها.

وللأسف لم تكن هذه هي الحادثة الوحيدة ولا الأخيرة.

الحريق كان فاجعتي الكبرى.

هل تذكرون حريق أغسطس منذ عام كامل ؟! لقد كتبت عنه الصحف لعدة أيام .هل تذكرون ضحاياه ؟! هل تذكرون عقب السيجارة المشتعل الذي بدأ الأمر ؟! هل تذكرون من ألقاه ثم لم يبادر بمساعدة جيرانه الواقعين في محنة، عندما صار الأمر جحيمًا واشتعلت بسببه ثلاثة منازل.

هذه هي صورته المعلقة على الحائط.

إنه لا يشبهني فقط بل هو أنا ومنذ عام كامل.

إنه أنا. أنا !!

إن سميرة تلعنني طوال الوقت دون أن تعرفني.. ألا تعرفون سميرة ؟ بالطبع لا تعرفونها، إنها جارتي.. ولن تجسروا الآن على معرفتها.

هي أصلاً لم تعد تختلط بأحد منذ تشوهت.. نعم تشوهت.. فالحريق الذي يلتهم ثلاثة منازل لن يكون رئيفًا أيضًا بقاطنيها.

أعرف أنها تلعنني في كل صباح ومساء وربما في كوابيسها التي لم تنقطع لحظة واحدة.

سميرة التي كانت تشبه الفاكهة الناضجة، والتي كان القمر يغازلها في كل مساء، لابد أنها تموت ألف مرة، وتتمنى لو أنها تفحمت مع من تفحم من إخوتها الآخرين. خاصة عندما تطالع وجهها وجسدها المشوه في المرآة.

لقد انتهت حياتها وذوى جمالها، وسط الزهرة البرتقالية القاسية. ذاب جمالها مع جسدها مع حقها في أن يكون لها حياة طبيعية.

ذاب بسبب وغد حقير لم يكلف نفسه عناء إطفاء عقب سيجارته لأنه سعيد بتمثيل دور الضحية.

هل عرفتم خطيئتي ؟!

أنا عرفتها منذ زمن، وحان وقت الحساب.

- الدماء على الحائط -

ليل اليوم الأول يمضي ومعه ساعات ثمينة كان من الممكن أن أمضيها في التعبد ودعاء الله القادر على نجدتي وغفران ذنوبي، ولكني أضعتها هباءً كعادتي وكأنني خلقت من صخر مصمت والدماء التي تجري في عروقي من هلام.. فمازلت أمارس دور الضحية وأستمتع به.

ثلاثة أيام.. اثنان وسبعون ساعة.. وقت لا يكفي لأي شيء نافع من وجهة نظري، ولكنه يكفي لمزيد من الخمول والاستسلام.

ماذا تفعل في أيامك الأخيرة، وأنت تعرف يقينًا أن الخيط الذي يربطك بالحياة على وشك التمزق، وأن شمعة عمرك التي كانت ساطعة، تحتضر وتذوي، وأن الموت يتربص بك.

أولوياتك ستختلف بالتأكيد. ستضع مئات الخطط، ستطلب الصفح من كل من أسأت لهم ومن ظننت أنك أسأت لهم.. ستنفض عنك غبار الكسل وتقرر أن تكون خاتمتك مشرّفة.

هذا بالفعل ما يقوم به كل من يملك فطرة سليمة، أنت ستفعل ذلك. لن تستسلم لهمّتك الواهية، الدماء التي في عروقك ستتحول إلى أدرينالين يجبرك على التغير، إن نهايتك قريبة ولو لم يحركك هذا السبب، فأنت نسخة بشرية مشوّهة. بل أنت ميت منذ زمن طويل، وأنا كنت مشوهًا من الداخل، سناج اليأس يعبّق روحي، وربما أكثر من سميرة نفسها.

الدماء التي تجري في عروقي أصبحت كالحبر، وأكثر ثقلاً وقتامه من تلك الدماء التي تسيل على الحائط أمامي والتي توقفتُ عن محاولة إزالتها منذ زمن.. يا للسخرية، حتى شياطين الشيخ ياسين تقوم بعملها بكل ضمير ومستمرة في إثارة ذعري.

إن شياطين الشيخ ياسين لا تمزح، فقلبي يكاد يتوقف من الرعب بالفعل، فالحائط ذو الطلاء الباهت، يبدو كجرح مفتوح يلطخ من حولي كل شيء بالدماء، مصحوبًا بتلك الخربشات الحادة التي تأتي من خلف الجدران، ولا شيء ينجح في إزالة هذه الدماء أو يمحو آثارها.

شعر جسدي يقف من الرعب، ما هذه الأصوات المخيفة، إنني أكره الفئران وصوتها الباعث على القشعريرة.

ألهذه الأصوات علاقة بالفئران حقًا، أم هي صوت مخالب الجني المكلف بعقابي ؟!

إنها أصوات مزعجة، وتثير جنوني.. ولكن الوقت مازال أمامي.

لا شيء سيحدث قبل ثلاثة أيام.

فلتصرخ الفئران ولتغمر الدماء العالم كله. مازال أمامي ثلاثة أيام كاملة.

الصراخ يرتفع، والخمشات تتزايد، والدماء تتلوى كثعابين مفترسة، وبعد لحظات كانت روحي قد بلغت حلقي عندما بدأت الدماء تمارس لعبتها الأثيرة، وتتحول لكلمات.

– أنت القادم.

الدماء تشكل الجملة على الحائط فتتجمد الدماء في عروقي.

– أنت القادم.

أعرف أعرف.

لا داعٍ لتذكيري في كل لحظة.

– أنت القادم.

الأصوات المزعجة خلف الجدران لا تتوقف..

أستخدم جهاز التحكم عن بعد لأشعل التلفزيون الملون ذو الأربعة عشر بوصة، الصوت الصادر منه سيمنحني بعض الونس وسيشوش على تلك الأصوات المزعجة التي تؤذي أذنيّ عبر الحائط.

لماذا لا أغادر الغرفة ؟!

الجواب معروف مسبقًا، لأني مهما غادرتها عائد إليها ولمصيري، ولا فائدة من نقل اللعنة لمكان آخر.

قناة الإم بي سي، تعرض أفلام رعب مخيفة. إنه الاثنين. ليلة الرعب كما يطلقون عليها.. الأفلام تبدو تافهة جدًا أمام الواقع الأسود الذي أحياه الآن..

إن القاتل ذو المنشار يمزق الضحية، هل تكون هذه نهايتي ؟!

المنشار المسنن يخترق أحشاء الضحية عبر مقعد السيارة من الخلف، ممزقًا في طريقه عمودها الفقري.

ثم ينتهي الفيلم.

إذن الشر ينتصر في النهاية !!

****

اليوم الثاني.

لا نية لي للقيام بشيء.. إن روحي نفسها مجمدة.. وأعصابي لم تعد تستجيب لشيء.. ألاعيب الدماء على الحائط أصبحت سخيفة حتى إني التقطت لها عدة صور بهاتفي المحمول.

لو أردتم مطالعتها، يمكنكم طلبها من أخي بعد موتي.. لست باردًا، ولكني اعتبرت نفسي ميتًا منذ عجزت عن تحقيق حلم واحد من أحلامي.

شاب في مثل عمري مازال يأخذ مصروفه من أمه.. الحياء يمنعني من طلب النقود من أبي، يكفيه ما يقاسيه طوال اليوم من أجل توفير لقمة العيش والدواء لي ولأخوتي.

غرفتي أصبحت معبقة برائحة التبغ المحترق، لابد أن رئتاي قد اكتسيتا باللون الأسود، إن خمس علب في اليوم انتقام وليست تدخينًا. بعد موتي ستفاجأ أمي بكل علب السجائر التي طلبتها من البقال على الحساب. إنه الدين الأخير.. وتسديده لن يمثل لي مشكلة وقتها.

سهيلة تواصل رجمي بالأخبار السيئة والنصائح، وأنا معتكف في غرفتي لا أقوم بأي رد فعل يوحي بوجود كائن حي بالداخل. ربما لو ظهر حل ما لنفضت الكسل عن جسدي وقاتلت.. ربما.. لقد رفضت أن أتواصل مع الجميع، فقط تلك الحرباء سهيلة هي الوحيدة التي أجيب اتصالاتها لعلها تخبرني في لحظة ما، أن كل شيء قد انتهى. وأنني حر.

لم أعد أستجيب لأي اتصال يأتي من أي شخص من أفراد شلتي، فما الفائدة من تبادل كؤوس اليأس والقنوط ؟

كل شيء ثابت منذ ساعات كلوحة في قبو مهجور، لولا أدخنة التبغ لتحوّل المكان لقبر مغلق. التغير الوحيد الذي يتمّ في الغرفة غير سحب الدخان التي صارت كالضباب، هو حركة الدماء التي لا تتوقف، فها هي الدماء تسيل طامسة لجملة أنت القادم، لتتجمع في بؤرة واحدة.

هناك شيء جديد سيحدث. بل هو يحدث الآن، فالكلمات تتشكل من جديد. ليست الجملة المعتادة المبتذلة، إنها جملة جديدة ومفهومة، جملة تشكل طوق النجاة. الحل يأتي إليّ عبر الدماء.

هناك قوة ما تؤازرني، وتطالبني بالتحرك السريع. إنها اللحظة الموعودة. والمهلة ثلاث ساعات.

هل استجاب الله لدعائي ؟! أم هي ألعاب الشياطين التي لا تنتهي.

ارتديت ملابسي على عجل، ووضعت بجيبي المطواة الحادة التي لم تعد تفارقني بعد أحداث الانفلات الأمني الكبير. نظرة أخيرة للحائط كي أتأكد من عدم كوني واهمًا. أردد العبارة بصوت عال لتلتصق بذاكرتي، إنها عقدي الجديد مع الشيطان.

" أُقتل الوسيطة تنجو".

لا يوجد أبسط من هذا.. !!

- جريمة قتل -

كي تقتل لابد أن تكون بارد الأعصاب.. تضع خطة جيدة.. تختار الوقت المناسب والسلاح المناسب. ثم تترك توترك خلفك وكل معتقداتك.

إنك ستقوم بالجريمة التي يهون أمامها هدم الكعبة، ولكنك منذ زمن لم تعد تتعلق بهذه المبادئ والمعتقدات.

أنت شخص نكرة، حجر من تلك الأحجار التي يدهسها حذاء الوقت، فلو تم محوك من المجرى الزمني لن تتسبب في تغير يذكر. وبرغم كل مساوئك وتفاهتك، فأنت تتمسك بهذه الحياة، وتنتظر مارد المصباح الذي سيحقق لك كل أمنياتك.

اليوم ظهر لك مارد المصباح في هيئة دماء تنبثق من قلب الحائط، ومنحك الحل السحري، ولكنه يطلب منك أن تقوم بالفعل الإنساني الوحيد الذي تمقته.. أن تعمل.

وهذه المرة ستنفض الكسل، ستستعيد حماس المغامرات العاطفية، الشيء الوحيد الذي يجبرك على ترك رداء كسلك في منزلك.

تنتهي من ارتداء ملابسك الداكنة، حتى تستطيع الاختفاء والامتزاج بالظلام. فجرائم القتل لا تتم إلا في الظلام.

كل القتلة يعرفون هذه القاعدة البسيطة وأنا لن أختلف عنهم.. والشمس قد ماتت منذ ساعات.

هل أقوم بحلاقة ذقني ؟!

لا داعي للمبالغة ولا لإضاعة الوقت.

تبقى المشكلة الأخيرة.

السلاح.

المطواة التي معي برغم كفاءتها وإجادتي لاستخدامها، إلا أنها أداة غير عملية فهي تحتاج لالتحام مباشر مع الهدف، والهستريا قد تجعلني لا أتم مهمتي، وقد أتركها في مسرح الجريمة، فتقودهم إليّ.

لذا فإن المسدس هو السلاح المناسب للمهمة.

التدريب.

لا داعي للقلق من ناحيته لأن فترة التجنيد كانت كفيلة بإجادتي للأمر.

إذا فالحل عند شحتة.

****

لا يوجد شيء في هذا العالم يمكن أخذه كشيء مسلم به.

وهذه المقولة تنطبق على شحتة وبشدة. فشحتة هو الشخص الوحيد الذي يجب تواجده في كل شلة.. كتلة العضلات المتحركة التي تثير الرعب وتجلب الاحترام. ولأن الظواهر تخدع، فدعوني أحدثكم قليلاً عن شحتة.

شحتة طيب القلب، لا يغرنكم هيئته المخيفة، ربما هو سريع الانفعال وهذا مايجعله يبدوا شريرًا، كما أن ملامحه الغليظة تستجلب النفور له. ولكنه برغم كل شيء يتمتع بقلب رقيق يختلف عن هيئته تمامًا.

لقد تجاهلت اتصالاته طوال اليومين الماضيين، ولكني أعرف أن مجرد ذهابي له سيمحوا كل جفوة..

يؤمن شحتة بكل الخرافات الموجودة في الدنيا، وإن كان لا يخشى أي كائن حي له وجود وكيان مادي.

يخشى أشباح الأماكن المهجورة، وينفر من الكلاب والقطط السوداء، يرتدي خرزة زرقاء وكف ذهبي على صدره اتقاءً للحسد، ولا بأس من إطلاق والدته للبخور في المنزل. صباح كل جمعة مع حرق عروس ورقية تأخذ معها شر العيون.

شحتة هو أحد أعمدة الشلة فهو من يوفر لنا المزاج، ورشاد من كان يدفع معظم الوقت ونحن كنا نساهم على فترات بعيدة. إن شحتة هو هدفي الآن. شحتة هو من سيوفر لي السلاح الذي أحتاجه.

****

– اليوم الثلاثاء. وأنا لا أعمل يوم الثلاثاء.. إنه يوم نحس.

كانت هذه هي إجابة شحتة على طلبي، ولكني ألحيت عليه وذكرته بالخطر الذي يحيط بي وبه، وكيف أن هذا السلاح مجرد حماية، وخدمة من أخ لأخيه.

– الثلاثاء شؤم.. وأنصحك ألا تقوم فيه بأي عمل كي لا ينقلب إلى العكس، ثم لا أحد يقاتل الجن والعفاريت بالسلاح.

قالها ثم تلفت حوله بحثًا عن خطر وهمي.

ساعة وعشر دقائق أُهدرت منذ خطت الدماء جملتها الأخيرة، الوقت لن يكفي لهذه المهاترات.. خبطت بقوة فوق المنضدة التي تفصل بيننا في ذلك المقهى الذي جمعنا.. لتسقط الأكواب مهشمة ساكبة كل سوائلها الملتهبة فوق أحذيتنا، ثم نعته بالنذالة والجبن، وكان هذا يفوق تحمله.

لكمة هائلة كادت تفتك بفكي. ألم أخبركم من قبل بعصبيته الشديدة ؟

ساعة ونصف تبخرت، حتى انتهت المشادة وتصافينا، وإمعانًا في التصافي ذهب معي إلى صديق آخر قام بالمهمة ومنحني السلاح على سبيل الإعارة. فمن أين لي بثمنه ؟!

وقبل أن أغادر نصحني ألا أتهور وأثق في السلاح، لأن هذه الأشياء لا تؤثر بها ما يؤثر في البشر. وأنه كان يتمنى خدمتي، ولكن الجن لا يتأثر بالكلمات.

غادرته ثم انطلقت بعدها لأقابل سهيلة التي حدثتها من تليفون عمومي، وحددت معها الموعد. فأنا لست بهذا القدر من الغباء الذي يجعلني أكون آخر رقم يتصل بها قبل مقتلها.

آخر مبلغ معي من المال أنفقته على سيارة الأجرة. التي أقلتني إلى المقطم، وجلست بعدها لأحصي الدقائق المتبقية على حضور سهيلة. إن المقطم هو المكان المناسب لما أرغب في فعله، إنني جاهز تمامًا.

النية انعقدت، والمسدس المصنوع يدويا ممتلئ بالطلقات، وهذه المنطقة التي اخترتها مهجورة إلى حد ما.

كنت أتمنى الحصول على سلاح بكاتم للصوت لا ضجيج له، ولكن من لا يملك النقود، لا يعتد بأمنياته.

دقائق ثم ظهر الكشافان الساطعان.. ثم توقفت السيارة الأجرة على مقربة من المكان، وترجلت منها سهيلة وعلى وجهها تبدو ملامح القلق، لأتوارى أنا خلف تل كبير من القمامة كريه الرائحة والتي ينبعث منه الدخان الأسود الناتج عن الاحتراق..

السيارة الأجرة لم تنصرف.. تلك الخبيثة..

أصوب المسدس إلى صدرها بإحكام.. لابد أن تصيب الرصاصة الأولى الهدف، فقد لا يكون هناك مجال لرصاصة أخرى، بعدها سأعدو من هذا الطريق المختصر الذي يقود صوب الطريق الرئيسي وبعدها ليكن ما يكون.

المسدس يهتز في يدي.. قلبي لا يطاوعني.. ما ذنب سهيلة حتى تستحق هذا المصير ؟

إنها تقترب وهي تتلفت حولها.

المكان الخالي من البشر يثير ريبتها، ولكنها تتقدم صوبي رغم ذلك.

أصابعي متجمدة على الزناد.

الدخان الناتج من أسوأ طريقة للتخلص من القمامة يتراقص أمام عينيّ، ويتحول إلى عد تنازلي يبدأ من الرقم مائة..

تسعة وتسعون.

ثمانية وتسعون.

....

سبعون..

سهيلة تقترب أكثر، لو خطت سهيلة خطوة أخرى لرأتني..

دموعي تهطل من الضغط العصبي والنفسي.

سهيلة رأتني ورأت المسدس المشرع في يدي والموجه لجسدها.

تلاقت أعيننا للحظات..كهرباء الرعب تسري في جسدها.

عينا سهيلة تتسع في ذهول ويبدو على وجهها آثار الصدمة.

سهيلة فهمت ما هي مقبلة عليه..

إنها تتقهقر في خطوات مرتبكة. تهز رأسها غير مصدقة.

الوقت يمر وفرصتي تتضاءل. العد التنازلي وصل للرقم خمسة.

خمسة..

أربعة..

ثلاثة..

اثنان..

أدير المسدس لرأسي..

صرخة عاتية من سهيلة.

تل القمامة يشتعل..

لا...................

****

سهيلة تندفع نحو سيارة الأجرة، والتي لا يبدو أن سائقها قد سمع الصرخة أو رأى ما حدث مع كاسيت السيارة المرتفع.

تدخل إلى المقعد الخلفي.. تضع وجهها بين كفيها لتنهمك في وصلة بكاء حار، والسائق ينظر نحوها عبر مرآة السيارة في تعجب، فلم يرَ ذلك الوجه المخيف الذي صنعه الدخان فوق تل القمامة.. إن بلفيجور لا يمزح حتمًا.

وبسلاسة عجيبة خط الدخان جملة سرعان ما تلاشت في الهواء بعد انصراف السائق :

– الخامس يتلاشى في اليوم الثالث.

٥.

اللعنة الخامسة ـ الحسد

عرّفها دانتي : حب الشخص الطبيعي لنفسه تحوّل لعاطفة آثمة تتمنى زوال الخير عن الآخرين.. مرتبطة بالشيطان ليفياثان Leviathan شيطان البحار.. واللون الأخضر..

أنا الحسد.. ولدتُ من منظف مداخن وبائعة محار.. أنا لا أعرف القراءة.. لذلك أتمنى لو تحترق الكتب جميعها.. إن رؤية الناس يأكلون تصيبني بالهزال.. آه لو تحل مجاعةً على العالم بأجمعه.. فيموت الناس كلهم وأعيش وحدي.. عندها سوف ترى كيف أُصبح بدينة.. لكن هل يجب أن تجلس أنت وأنا أقف ؟ هيا للانتقام..

- العين الشريرة -

يقول شحتة :

كنت أتمنى لو أن هناك وسيلة مادية، لمقاومة الحسد والعيون الحارة، والتي تكفي نظرة واحدة منها لإلحاق الأذى والضرر لمن يقع في نطاق مداها القاتل.

جدتي تخبرني أن اليهود في وقت الإحصاء السكاني كانوا يدفعون شيكل عن كل فرد من أفراد الأسرة، بديلاً عن كتابة أسمائهم كي لا يصاب أحدهم بالحسد خاصة لو كان تعداد الأسرة كبيرًا، لقد أخبرتها صديقة جورجيت وهي عجوز كانت تقطن حارة اليهود وغادرتها قبل سنوات بعيدة عندما كانت جدتي في شرخ الشباب، وكان اليهود أصحاب ديانة فقط ولم يتحولوا لذلك الإخطبوط المتعصب المسمى الصهيونية .

صديقتها أخبرتها أيضًا أنه من الشائع أن يبصق اليونانيون باتجاه شخص يطري عليهم خوفًا من الحسد.

وأحيانًا يتكرر البصق عدد مرات بشكل مقزز ! وهي وسيلة لا يمكن أن تنجح في مصر ذات الدماء الحارة، فالبصق قد يمنع الحسد، ولكنه لن يمنع من تبصق عليه من تهشيم وجهك وتحويله إلى عجة.

وتخبرني أيضًا أن ارتباط الحسد بالجفاف معروف منذ زمن الأجداد. فالعين الشريرة تصيب الضحية بالجفاف، الذي يتبعه كل شيء سيء من مرض

وموت وخلافه، والحسد لا يقتصر على البشر فقط، بل يمتد للحيوانات والنباتات.

الأسماك فقط هي المحصنة لأن الماء يغمرها.

وكانت تخبر النساء اللائي على وشك الوضع أن يرتدين التمائم الزرقاء و(الخمسة وخميسة) وهي قلادة على شكل كف بها عين كبيرة في المنتصف وهي عين الإله حورس الفرعوني، وأيضًا (الماشاء الله) وهي قلادة من ذهب أو فضة كتب عليها بالعربية ما شاء الله لتخطف بصر الحاسد فيتم اتقاء شره.

هذا غير إطلاق البخور الجاوي، وصنع العروسة الورقية، وثقبها بإبرة حادة كل ثقب يمثل اسم لحادث متوقع.

كانت جدتي رحمها الله تنهرني بشدة لو اكتشفت أني لا أرتدي ثيابي الداخلية بالمقلوب، أو أن الحجاب المعلق في صدري غير موجود، إنني منذ صغري وأنا معرض للحسد، فقد ولدت ووزني أربعة ونصف كيلو جرام، وعيناي الخضراوان التي حصلت عليها من خالي عبر الجينات كانتا مسارًا آخر للحسد.

نهمي للرضاعة والذي أجبر أمي على إطعامي مبكرًا جدًا كان سبيلاً آخر للحسد. كما كانت جدتي تحرص على عدم ارتدائي لأي ملابس جديدة أو ملفتة وهي من أطلقت عليّ اسم شحتة، كي تقيني من العين.

أخشى العيون.. وخاصة العيون الزرقاء، لأنها عيون غير أصيلة، أتت عبر البحار، ومن نسل الأجانب، وهذه العيون شرها مستطير ولا يمكن مقاومته.

في السابق كنت أزور الشيخ ياسين مع جدتي، طلبًا للبركة، ولأن جدتي كانت تشعر في بعض الأوقات بأن روح جدي قلقلة وغير مستريحة، فكانت تأتي للشيخ ياسين لتطلب منه النصح والإرشاد.

وذات مرة طلبت تحضير روحه، ولكن الشيخ ياسين نهرها، وأخبرها أن الروح القلقة لا يجب إزعاجها أكثر، وقال لها إن هناك روحًا نجسة تسكن القبر الذي دُفن فيه جدي، إما أن تُنقل عظام الجد لمدفن آخر أو تنُقل الجثة النجسة من هذا القبر.

لم يكن الأمر بالسهولة المتوقعة، وهذه لعنة المقابر المشتركة، أنت لا تنتهك مقبرة عائلتك فقط، بل مقبرة عائلة أخرى، وهذه الأمور لا تفاهم فيها، فعائلتنا لم تواري أحدًا التراب منذ زمن، فالجثة المقصودة تخص العائلة الأخرى، وبالتالي لا يمكنك أن تمس جثة لا تخصك، ناهيك عن حرمة الميت والقبر.

لا أعرف ماذا فعلت جدتي في هذه المعضلة تفصيلاً ! فكل تحركاتها اتسمت بالسرية والغموض، ولكنها عادت ذات مساء ووجها مبتسم، وساطع من الفرحة وأخبرتني أن روح جدي لابد وأنها استراحت أخيرًا.

لا أعرف التفاصيل الكاملة لنبش القبر ولا أي الجثتين نُقلتا خارج القبر ولا مصير الجثة المنقولة. والعجيب أن ما فعلته جدتي، جعل الكوابيس تنقطع عنها وتوقف جدي عن إزعاجها في المنام، وصار نومها أكثر هدوءًا، وإن لم تتوقف عن زيارة الشيخ ياسين تمامًا.

هذه الزيارات المتكررة للشيخ ياسين، كانت سببًا لأعرف الشيخ ياسين وكراماته، وأُصبح من مريديه طلبًا للبركة وعدم زوال القوة، خاصة وأن جسدي الضخم، مسار لحسد الجميع.

****

عندما أُصيب أخي الصغير بالمس، وأصبح يصاب بحالات صرعية عنيفة، لا يتوقف فيها جسده عن الارتجاف وفمه عن إفراغ الزبد، ومع الصراخ والألم الشنيع الذي كان يجعل وجهه يتقلص وكأنه في النزع الأخير، لم أجد يومها إلا الشيخ ياسين لينجدني، صحيح أنه طلب مبلغًا فادحًا لأن الجن الذي مس أخي من قبيلة الجن الأزرق، وسيحتاج لمجهود مضاعف وأنواع معينة من البخور والزيوت والعقاقير، إلا أني لم أفكر مرتين، فالجن الذي مس أخي قادر أيضًا على مسي، وهذا ما لن أقبله أو أتحمله أيضًا.

جلسات العلاج امتدت لخمس جلسات كاملة، حضرت الأولى ولكني لم أتحمل أن أحضر التاليات.

إن مشهد انقلاب عين أخي وتحولها للون الأحمر، وتساقط الزبد من بين شفتيه، مع ذلك الصوت الغليظ القادم من أعماق الجحيم الذي كان يجيب به على تساؤلات الشيخ ياسين، وسط البخور الكثيف، ومع حركة الموجودات من حولي، كاد أن يوقف قلبي، إن هذا ليس مضماري، العالم الذي تفصله عنا الطلاسم والتعاويذ هو عالم لا يمكن أن أطرق أبوابه، أنا لا أخشى الموت ولكني أخشاهم، أخشى سكان هذا العالم الذين يتعايشون على عظام الموتى وروث الحيوانات.

بعد شفاء أخي التام، ذهبت للشيخ ياسين لأشكره ولأمنحه الدفعة الأخيرة من المبلغ، وفي هذا اليوم قابلت أمجد.

شيء ما كان يدفعني للتقرب منه برغم سنه الصغير، إنه مغرور، ومشاكس وعنيف ولا يأبه بكبر أو صغر من أمامه، لهذا راق لي، أو هكذا خيل لي وقتها، فلحظات التعارف والتقارب بيننا مشوشة في ذاكرتي.

تعرفت على أمجد وعلى نجيب في لقاء واحد، ثم عرفنا نجيب على خليل وخليل على رشاد وأمجد عرفنا على أمين، وأمين على زياد.

شلة غريبة متباينة، لا تعرف ما الذي يجمعهم حقًا للوهلة الأولى، لو كنا أقارب لغُفر لنا فارق السن وتباين الثقافات، ولكن يبدو أن الموت هو من جمعنا، خطايانا هي التي لضمتنا في خيط واحد.

ربما جمعتنا في وقت لاحق جلسات المزاج وتدخين الحشيش. ولكن البداية كانت مريبة، لقد كانت هناك قوى جهنمية تعدنا لنصبح مخلب القط الذي سيقضي على الشيخ ياسين، ثم تستعملنا في وقت لاحق كقرابين بشرية، لذلك وفي وقت قياسي ارتبطنا جميعًا، ولا أعرف كيف تحول أمجد الصغير لقائد للشلة، يحركنا كما يريد.

لم تكن عيون أمجد زرقاء ولكنها كانت مخيفة ككل شيء يخصه، شيء ما بداخلها كان يجبرك على عدم إطالة النظر إليها وطاعتها.

عندما قرر أمجد اقتحام غرفة الشيخ ياسين، كنت من أشد المعارضين له، وحاولت التملص بأكثر من طريقة، ولكنه استعمل سحره، فقط طلب لقائي وعندما نظرت لعينيه لم أستطع المقاومة.

إن عينيه شريرتان.

- قلب حاقد -

شيء ما شرير يسكن عين أمجد ويجبرني على طاعته، أنا الذي أقدس الشيخ ياسين أكثر من أبي، أنا الذي أعتبر منزله منطقه محرمة، أنا الذي أرتدي ثيابي الداخلية مقلوبة إتقاءً للحسد والعين، مطلوب مني اقتحام عرين الشيخ ياسين.

الشيخ ياسين الذي استحضر الجن أمامي، وحاوره، ثم هزمه وأخرجه من جسد أخي.

فلتحترق سماح وليحترق أمجد ولتحترق الصداقة.

لو أنني كنت أكثر حزمًا وصرامة، وأنا أواجه أمجد الذي يماثل أخي الصغير في العمر، لما تورطت في هذا المستنقع الشائك.

لا أعرف كيف اقترفت هذه الجريمة الشنعاء، لا أعرف كيف طاوعت أمجد لحظتها، فقط كان هناك شعور طاغٍ يبث حولنا ويسيطر على عقولنا بأن ما نقوم به مقدس، ربما كان نوعًا من السحر، بل هو السحر ذاته. لم يكن أمجد ساحرًا ولكنه كان ممسوسًا، لقد استغلته تلك الشيطانة التي تجسدت له في شكل سماح، والتي أحمد الله أنه هو الوحيد الذي كان قادرًا على رؤيتها.

في النهاية وقعت الكارثة، واحترق منزل الشيخ ياسين، والشيخ ياسين نفسه كما علمت في وقت لاحق، ثم بدأ الانتقام.

الجميع يختفون.. يتلاشون.. وسهيلة تلك المخبولة التي اقتحمت حياتنا دون استئذان، تخبرني أنهم في مكان ما أحياء ولكنهم يُعذبون.

سهيلة هذه نذير شؤم هي الأخرى.

لا أعرف كيف ظهرت في حياتنا فجأة هكذا، إنها مريبة بما يكفي لأبتعد عنها، لا يمكن لفتاة عادية أن تقوم بما تقوم به سهيلة بهذه الأريحية. زياد نفسه قبل أن يختفي حاول أن يقتلها، هي أخبرتني بذلك وهي تصرخ لأنها تعتبرني شريكًا معه في الجريمة لأني منحته السلاح الذي حاول قتلها به.

تقول إن أمجد يرى كل شيء، وهو من أخبرها عن زياد وعن السلاح، وهو من أخبرها بالمصيبة التالية.

أنا القادم :

– فالخامس يتلاشى في اليوم الثالث.

هكذا أخبرتني وهي تتمنى لي كل شر، إنها شؤم شؤم.

لو كانت جدتي حية للجأت إليها، إن لديها الخبرة ولديها المعرفة، ولو لم تكن تعرف الحل لكانت ستعرف من يعرف الحل، ولكني الآن وحيد، لو أخبرت أحدًا من معارفي أو من يتعاملون معي لسخروا من ذلك الثور الذي له عقل العصافير.

كل الناس تخشى ما أخشاه بدرجات متفاوتة، ولكنهم ينكرون.

لم يتبقَ أمامي إلا أمين وسهيلة، رسام خجول وفتاة شؤم، أين يمكن أن أعثر على من يساعدني.

هل ألجأ لشيخ المسجد ليحصنني من العيون ؟! هل أسافر إلى بلد بها بحر وأقضي الأيام الثلاثة على ظهر مركب ؟!

لا أعرف حقًا كيف ستأتي النهاية، هل يجب أن أعترف أنا الآخر بخطيئتي؟! هل يفيد الاعتراف بعد أن صدر الحكم. بالطبع لا شيء سيتغير، وسيمضي نهر الحياة جارفًا ما تبقى لي من ساعات معه.

إن خطيئتي هي الحسد.

لماذا هذا الذهول. نعم الحسد ماذا توقعتم إذن ؟!

ربما أنا لا أملك تلك العين الحارة التي تصيب من تراه بالأذى، ولكني أملك القلب الذي يكره ويحقد ويحسد.

لن أخفي عليكم تفاصيل القصة، فإخفاء الأمر لم يعد يجدي، إنني قاتل ويداي غارقتان في الدماء، لا تتعجبوا وتتسع عيونكم، ألا تعلمون أن الحسد قاتل.

هذا ما يعرفه كل من يحيطون بي أو يتعاملون معي، ولا يفصحون عنه، إنها قواعد العالم الذي نعمل به، لا أحد في عالم تجارة المخدرات يشي بالآخر، كما أن القتل يجلب المزيد من الاحترام.

أنا لست أحد أباطرة هذا العالم، أو معلميه ولكني أدير الدولاب الرئيسي للمعلم (حسونة العترة)، وأُعتبر أحد أياديه اليمنى، فاليد اليمنى للمقربين وموزعي الصنف، أما اليسرى فهي اليد الباطشة، اليد المختصة بالعقاب، إنها اليد التي تحمل الموت، وأنا لم أكن أنوي أن أنتمي لجماعة اليد اليسرى، فأنا أوزع المخدرات ولا أقوم بعمليات القتل ولكن الحقد يعمي والحسد يفتح هويس الدماء.

من يدير الدولاب يعرف أسرار العمل بالكامل وبالتالي سيصير في يوم ما معلمًا يشار له بالبيان، وله صبيانه وأتباعه، وكي تحافظ على مكانتك في هذا العالم، يجب أن تكون قاسيًا، وغليظًا، أكثر من كونك قويًا، ولكن قلبي لم يكن بالصلابة المطلوبة مما جعل نجم (سماحة الدوجري) يعلوا ويظهر عند المعلم (حسونة العترة).

وسماحة الدوجري كان صعيديًا، وسيمًا، غليظ القلب، يعامل الجميع بصلف وتجبر وكأنه يثأر من الدنيا كلها، انتقامًا على مغادرته بلدته هاربًا من الثأر.

كنت أكره ملامحه الوسيمة، وعوده الصلب المتوتر، ونشاطه الزائد، لقد حضر إلى هذا المكان وفي نيته أن يصير معلمًا وأن يسحق كل من يقف في طريقه.

إن لديه نظرة، تجبر الجميع على احترامه والخوف منه.

إنه يملك ما لا أملك وما يؤهله لأن يستولي على إدارة الدولاب في وقت قياسي، وهذا ما كاد يتم بالفعل. فخلال شهر واحد من التحاقه بخدمة المعلم حسونة أزاحني من فوق عرشي، ورويدًا رويدًا أصبحت الأعمال التي كان يكلفني بها المعلم تنتقل إليه، إنه أكثر قسوة وغلظة كما أنه لا يتشاءم من العمل يوم الثلاثاء.

في عالمنا من يرتفع درجة لا يجب أن ينزل عنها، لأن نزوله لن يكون نزولاً سهلًا.

بل سقوطًا.. انهيارًا كاملاً. لو أزاحك فلن تنال الاحترام يومًا.

لا أعرف اللحظة التي قررت فيها إزاحته من طريقي، ربما عندما أهانني أمام صبياني، ولم يتحرك المعلم حسونة دفاعًا عني.

كيف يكره القلب ؟!

كيف يتحول في لحظة واحدة ويستحيل حاقدًا وأسود.

لا أعرف.

كان من الممكن أن أتخلص منه وأقتله برصاصة أو بطعنة ليخلوا لي الجو وأنول الاحترام من جديد، ولكني كنت أنوي أن أجعل منه عبرة كي لا يجرؤ أحد على تكرارها، وليُشفى غليلي يجب عليه أن يتألم حتى يتمنى الموت بنفسه.

يجب أن ينال عقاب الخائن.

المعلم حسونة لا يرحم من يخونه، ولا يتردد مرتين في الفتك به، ولديه طريقة طريفة لمعاقبة الخائن.

الجير الحي.

طريقة بشعة للموت خاصة عندما يسكب الماء على الجسد العاري، ثم يرش بمسحوق الجير الحي.

آلام بشعة تفوق آلام الاحتراق.. عذاب مخيف لم يقم به إلا النازيون.

إنه عقاب أسطوري رهيب، لذا لا يجرؤ أحد على خيانة المعلم حسونة.

لقد كان (سماحة الدوجري) أقسى مني وأمهر مني في كل ما أسند إليه، كان التلميذ النابغة، الذي فاق جميع التلاميذ الآخرين.

لقد أشعل بداخلي شعلة الحقد المقدس، وحوّل الحسد قلبي لمضغة سوداء تفوح بالعطن.

إنه يختلف عني في كل شيء، وسيم، ذكي، له سرعة الغزال وخبث الثعلب.. إنه الحظ السيء حين يقابلك.. إنه ما تمنيت أن تكونه ولم تستطع.

ساعدني أمين شرطة فاسد في أحباك خطتي، وفي إحدى العمليات الكبرى، هجم رجال الشرطة وقبضوا على نصف رجال المعلم حسونة وأصيب المعلم

حسونة نفسه برصاصة في كتفه، مما جعله بركانًا ثائرًا على وشك الانفجار وإحراق كل شيء.

المصادفات التي جمعت أمين الشرطة وسماحة كانت مريبة، وتم رصدها عن طريق عيون المعلم، وجاءت الصفقة لتؤكد الشائعات، هناك عصفورة تنقل الأخبار.

ليلتها عقد المعلم المحاكمة على الملأ، وحضرها كل رجاله وأنا أولهم بالطبع.

لم أكن قد رأيت تنفيذ هذا العقاب من قبل، وربما معظم من حضر اليوم.

كنا جميعًا نسمع به.. نخشاه.. نتقي شره.

ولكن اليوم كان اليوم الموعود.

في البداية قام المعلم حسونة بشرح سبب التجمع، والذي لم يكن يخفى على أحد.

صرخ سماحة، أنكر وأقسم، وترجى، وطلب الرحمة، ولكن الغضب المستعر بقلب المعلم حسونة كان يجب أن يلتهم بعض الضحايا.

ثم أصدر حكمه.

لقد نجحت خطتي تمامًا.

فتم تجريد سماحه من ثيابه، إن هذا الوغد يمتلك جسدًا متناسقًا مكتمل العضلات، لابد أن النساء تهيم به حبًا. ثم تم تقييده من يديه وقدميه وإلقاء الجير الحي فوق جسده العاري، ثم سكب عطوة مساعدي سطلاً من الماء فوق الجسد

والجير الحي. وارتفعت سحابه هائلة من الغبار الأبيض القاتل، غمرت كل شيء ثم سمعنا الصراخ.

أي جزء من جسده ذاب أولاً.

هل ظل يصرخ لألف عام.

هل كان يستحق العقاب ؟!

لا أعرف.. المهم أنني في النهاية لم أشعر بالراحة المرجوة، وظل شبحه يطاردني في المنام، ليل نهار، حتى أنقذني منه الحجاب الذي منحه لي الشيخ ياسين.

لقد اعتقدت أن جريمتي الكاملة قد تمت، وذاب كل أثر لها بقلب الجير الحي.

ولكن الخطايا لا تمحى كما يبدو ولا تمر دون عقاب. وهاهو الذنب يطاردني، ويطلب القصاص.

لم أكن أكره سماحة لأنه تفوق علي، بل كنت أحسده لأنه يمتلك كل ما ينقصني، الحسد تحول إلى حقد ثم إلى جريمة بشعة.

أنا أستحق العقاب، إن حبل المشنقة لن يثير في جسدي أكثر من الرجفة التي تسببها رياح أمشير الباردة.

أنا مستعد تمامًا للعقاب، ولكن فليعاقبني بشري مثلي، لا مخلوقًا قادمًا من أعماق الجحيم.

- كلب أسود -

يبدو أن الأيام الثلاثة المتبقية لي في هذه الحياة لن تمر على خير، فتلك الشياطين التي أغضبناها بمقتل الشيخ ياسين لا تبدو أنها ستتركني لأموت في صمت ودون عذاب كافٍ. والدليل على هذا، هو ذلك الكلب الأسود المخيف الذي يتبعني في كل مكان.

لا باب يصده ولا حائط يمنعه، أنا لا أحب الكلاب، وخاصة السوداء منها، لأنها دائمًا ما تكون شياطين متجسدة في هيئة كلاب كما أخبرتني جدتي.

والكلب الذي لا تلامس قوائمه الأرض والذي يتلاشى الزبد المتساقط من شدقيه في العدم هو كلب غير طبيعي. بل هو شيطان..جن متحول، إن أعصابي على وشك الانهيار، فهذه الأجواء تدمر روحي.

إن هذا الكلب المخيف، يظهر لي في كل مكان، لا أحد غيري يراه، ولكن الكلاب الأخرى تشعر بوجوده، فتضع ذيلها بين فخذيها وتنطلق مبتعدة وهي تعوي.

وأنا لا يمكن أن ألازم غرفتي كما فعل زياد، إنني لست ملك نفسي مثله، إن ورائي مسئولية كبيرة ودولابًا أشرف عليه، ومع سفر المعلم حسونة لأداء العمرة لابد أن أتابع كل دولايب العمل الأخرى، وأُحصّل الإيراد وأسلمه له عند عودته.

كم أنت مسكين يا شحتة حتى والموت متربص بك، لا تستطيع الهرب من مسئولياتك تجاه المعلم حسونة. فالجير الحي لن يرأف بمأساتك، والتهاون في العمل يفوق الخيانة عند المعلم حسونة.

****

قبل الفجر انتهيت من آخر أعمالي وانتهى معي يوم كامل، سلاحي لا يفارقني، ورجالي حولي، وانطلقت أخترق الشوارع القريبة من المنزل، وأنا أحمد الله أن ذلك الكلب لم يظهر بعد.

الموكب يتحرك ببطء شديد، مع ضيق الشارع وأعمال الحفر التي جعلته أشبه بالفخاخ.

أصرخ في عطوة مساعدي :

– لتعرف في الصباح من المسئول عن هذه الأعمال وتجبره على إنهائها.

إنني متوتر وأحتاج لإفراغ توتري.. الكل يتوقع أنني سأقوم بانقلاب على المعلم حسونة، فمنذ متى وأنا أتحرك بهذا الموكب.

وأنا لا أجرؤ أن أخبرهم بحقيقة ذلك الكلب الجهنمي. ولا بحقيقة خوفي.. فالمعلم لا يجب أن يخاف وإلا فقد احترام الجميع.

اخترقنا الشارع المظلم، ومن بعدنا كل الأبواب والنوافذ تغلق. لا أحد يجرؤ على تتبع الموكب، فالكل يتوقع الشر. والشر كان متربصًا في كل ركن.

كل شيء كان يسير جيدًا حتى ظهرت الكلاب.

هذه المرة لم يأتِ الكلب وحده، لقد أحضر معه قطيعًا آخر من الكلاب التي تشبهه تمامًا.

يبدو أنها الليلة الموعودة.

الكلاب تقطع الطريق بشكل هرمي، كلب يليه كلبان يليه ثلاثة وهكذا. حتى نهاية الشارِع والضياء.

العيون مشتعلة وتضوي بقلب الظلام.

أنظر لمن حولي فلا أشاهد إلا الظلام، أين ذهب رجالي ؟!

أصرخ وحيدًا بقلب الظلام والكلاب تتقدم وأنيابها الحادة تستولي على كياني، ونظراتها الخرساء تجمدني في مكاني.

وفي لحظة واحدة هجمت الكلاب.

أغمضت عينيّ في قوة، لقد طفح الكيل، لن أستطيع التحمل أكثر، وبجسد مرتجف وأقدام مرتعشة انتظرت شعوري بالمخالب وهي تنغرس في لحمي والأنياب وهي تمزقه.

الكلاب تقترب بسرعة مخيفة.. أقدامها لا تلامس الأرض.. عيونها تشتعل كالجحيم، تقترب مني فتسحب معها كل لمحة من الضياء، الظلام يطبق على روحي ونباح الكلاب يصير مدويًا كالأجراس.

الظلام اكتسح كل شيء في طريقه. الأنياب تخترق جسدي، فتمزق لحم ذراعي. وصدري. المخالب تقترب من قلبي.

وفي اللحظة التالية أحسست بصدمة قوية، وكأنّ هناك من صعقني بتيار لا يقل عن ألف فولت. تجمد كل شيء للحظة. ألم حاد يعتصرني، هناك شيء ما يطبق على صدري، ألم تنتهي الكلاب مني بعد. ثم شعرت بقبضة قوية تثبت رأسي إلى الأرض، وبثقل يجثم على أنفاسي، ثم سمعت صوت عطوة الغليظ :

– احملوه لا يجب أن يراه أحد في هذه الحالة !!

صرخت بقوة :

– أي حالة لماذا تحملونني كالشاه المذبوحة ؟

ولكن صوتي لم يغادر حلقي.

كل شيء حولي مشوش وغريب.

وقبل أن أغيب عن الوعي سمعت صوت أحد رجالي :

– لقد أصيب بالصرع.. يجب أن نحضر له طبيبًا.

وأظلم كل شيء.

- هلاوس -

يوم آخر قد ذهب.

الغيبوبة التهمت يومًا كاملاً، وقربتني من الموت ليوم آخر، وما تبقى لي هو يوم واحد فقط. يوم يفصلني عن الأبدية، وعن السر الأعظم، وعن المكان الذي يذهب إليه الآلاف كل يوم، ولا يعودون ليقصوا علينا ماذا وجدوا هناك.

أهو يوم موتي حقًا !!

وإذا كان.. هل سيكون سريعًا حاسمًا أم بطيئًا وممتدًا ؟!

أغادر غرفتي شاعرًا بنوع ما من الانكسار، لا يجب على القادة أن يظهروا ضعفهم أمام رجالهم، القادة يجب أن يكونوا في منزلة أعلى من البشر، القائد الذي يشعر بالمرض ويصاب بالصرع أمام رجاله، لن ينال أي احترام منهم فيما بعد، خاصة وأن الصرع مرتبط في الأذهان بالجنون، فهو الطريق المُعبّد الذي يقود إليه.

ولكن لماذا أهتم ؟!

عندما تشرق شمس الغد، سأكون مشغولاً بقضايا أعمق وأخطر.

أتحرك بصعوبة. ماذا حدث لجسدي، أشعر وكأن شاحنة مرت فوق عظامي فهرستني. أم هي أولى مراحل المس.

عطوة صرف جميع الرجال وبقي معي وحده، إن مصيره من مصيري، وانتهائي يعني انتهاءه، فالصبي يتبع معلمه كما تتبع الحكومة الرئيس المنتهية ولايته.

لم أشعر برغبة في الكلام، فشكرته وصرفته، وكلفته بكل الأعمال التي كنت أقوم بها، فعندما سيعود المعلم حسونة يجب أن يجد كل شيء على ما يرام، فالسيرة الحسنة تبقى بعد الموت، وبعد موتي لن يذكر أحد نوبة الصرع، فقط سيذكرون أنه الموت.

كم أحسد هؤلاء الأصحاء الذين...

لا..

لن أرتكب الخطأ مرة أخرى.. لا حسد بعد اليوم.

فتحت كل النوافذ، ثم أخذت أتطلع للمارة المتجمعين عند عربة الفول.

الحياة تسير برغم كل شيء.

كل شيء طبيعي ماعدا ذلك القرد العملاق الذي يشير لي من نافذة الجيران بإشارة الذبح.

لابد وأني أهذي.

فبجوار القرد ظهرت (حياة) فاتنة المنطقة الشابة وزوجة المعلم (رضا) والسبب الوحيد في عدم زواجي حتى الآن. كم أحسد ذلك العجوز عليها،

إنني أنتظر موته منذ عدة سنوات لأحظى بها، ولكن ذلك الوغد مازال متشبثًا بخيوط الحياة.

إنها ترتدي قميص النوم الأحمر الذي تمنيت دائمًا أن أراها به. ولكن ماذا تفعل تلك المجنونة مع القرد ؟!

لماذا تمسح على رأسه بهذا الحنان ؟!

يا إلهي..

ماذا يحدث ؟!

إنها تميل عليه وتقبله في شفاهه الغليظة. أي جنون هذا ؟!!

إنني أهذي، أهذي. وبرغم هذا أحسد القرد.. الذي اقتطف من أشجار الجنة قبلة.

قدماي ترتجفان، الرؤية تغيم.

إنني أسقط في الماء.

ولكن من أين أتى هذا الماء.. إنه شلال.

الماء يجرفني وجسدي يصطدم بالصخور، أشعر بآلام عاتية.

القرد يلتهم رأس (حياة).

القرد يقفز إلى الماء ويطاردني.. أحاول أن أسبح.

القرد ينقض عليّ، يحاول التهام رأسي كما التهم رأس (حياة)، لا بل هو يحاول أن يقتلع عينيّ.

الرحمة، لن أنظر إلى (حياة) مرة أخرى.

القرد يلطمني بيده.

سأسقط عبر النافذة.

ولكن نافذتي لا تطل على الشلال.

لالالالالالالالالالالالالا.

لا أريد أن أموت. لا..........

****

استيقظت من غفوتي غارقًا في بحر من العرق والقيء.. الظلام عبر النافذة حالك والقمر يسطع في حياء.

لقد انتهى اليوم. وانتهت فرصتي في أن أصنع تغييرًا حقيقيًا، يوقف اللعنة.. لا فائدة من أي شيء.

ثم من هذا الذي يقف في الظلام ويشير لي أن أتبعه.

لا لن آتى معك.

لن..

النار تشتعل في كل شيء حولي، وذلك الشيطان يقف أمامي مبتسمًا.

– إنك لي.. لي..

– لالالالالالالالالالالالالالا.

وعلى الحائط لمحت الجملة المخيفة :

السادس يتلاشى في اليوم الثاني.

ولم أعد أشعر بشيء.

٠٦

اللعنة السادسة ـ الغضب

عرّفها دانتي : حب الشخص الطبيعي للعدالة تحوّل إلى عاطفة آثمة حاقدة وساعية للانتقام الأعمى.. مرتبطة بالشيطان أمون Amon وهو ملاك ضال قائد أحد ألوية شياطين إبليس.. الغضب مرتبط باللون الأحمر.

أنا الغضب.. لم يكن لي أب أو أم.. قفزت من فم سبع عندما كان عمري لا يكاد يتجاوز ساعة واحدة..

ومنذ ذلك الوقت وأنا أجري حول العالم بزوجِ السيوف هذه، وأطعن نفسي عندما لا أجد من أقتله..

لقد ولدت في الجحيم.. ولا أزال أراقبه.. لأن أحدكم سيكون أبي..

- الموسوم -

يقول أمين :

استيقظت اليوم على ألم شنيع يجتاح صدري، ألم مفاجئ عنيف، لم يكن يشبه أي ألم آخر شعرت به من قبل. حتى في ذروة أزمة الربو لم يكن الألم بهذه القسوة والحدة.

أضغط على أسناني حتى أكاد أهشمها.. ثيابي نفسها أشعر بها تشتعل ولا أطيق ملامستها لجلدي. الألم الشنيع يعتصر صدري، وكأن هناك من يخترق الجلد والعظام بمثقاب ملتهب. والمفزع أن هناك رائحة شواء تزكم أنفي.

هل جلدي يحترق بالفعل ؟! هل أمارس تلك العادة المخيفة ؟!.. هل أحترق ذاتيًا ؟!!!

صفعني الألم فنزعت المنامة في سرعة، وألقيت بها بطول ذراعي، ومعها شعرت بألم إضافي عنيف، وكأنني نزعت مع المنامة جزءًا من جلدي أو أن هذا ما حدث بالفعل، فهناك قطع من جلدي المحترق ملتصقة بالأجزاء المحترقة من المنامة.

إن جلدي يحترق بالفعل، أي مخبول جرؤ على إتيان تلك الفعلة معي ؟!

من يكرهني إلى هذه الدرجة ؟! وأين هو ؟!وكيف لم أشعر به؟

إن الجرح طازج، فمن قام به لابد وأنه قريب.

مسحت المكان ببصري ولكن لاشيء.. غرفتي كما هي لا إضافات فيها ولا نقصان.

كهرباء الألم تفتك بعقلي، فانتفضت ووقفت أمام المرآة الكبيرة المعلقة على الجدار بجوار الباب، وحدّة الألم في تصاعد.. ثم وقع بصري على موضع الألم، واتسعت عيناي في ذهول، فعلى صدري ندبة ضخمة قبيحة الشكل، على شكل دائرة من الجلد المحترق بل المتفحم، وبقلبها نقش أسود بارز خط بحروف عربية كبيرة وواضحة :

– أنت التالي.. !

وعندما رددت هذه العبارة بصوت عالٍ وبطريقة لا إرادية،كسا كل شيء حولي ضوء أحمر متألق، سطع كضوء برق لحظي، قبل أن ينحسر من فضاء الغرفة،ويتركز حول حواف المرآة قبل أن يتلاشى تمامًا. ليجتاحني بعدها رعب عاتٍ. مما جعل طوفان من الأسئلة يتفجر بداخل عقلي.

يا إلهي.. هل حان الوقت.. هل اقتنصوا شحتة.. ؟! هل سأموت حقًا؟!

نظرت لصدري غير مصدق، وعيناي تكادان أن تغادرا محجريهما.. لقد وسمت بخاتم الموت.

الأمر حقيقي إذًا!.

وحسب المتتالية الشيطانية، أمامي اليوم وغدًا على أقصى تقدير قبل أن تنتزع مخالب الموت روحي ولأغادر قائمة الأحياء.

حاولت أن ألمس موضع الحرق بيديّ، فسرت في جسدي صاعقة حادة من الألم. جعلت جسدي ينتفض في عنف.. مع دوار حاد ورغبة عارمة في القيء.

لابد وأن أرى طبيبًا حالاً.. ولكن أي طبيب سيقبلني في هذه الحالة، دون أن يطرح الأسئلة ويستدعي الشرطة. وأنا لن أضيع وقتي الثمين في تحقيقات الشرطة وسخافتهم، لابد إذن من حل فأنا أكاد أفقد الوعي من شدة الألم.

فتحت درج (الكومود) المجاور للفراش، وأخرجت منه علبة دواء مسكن كان الطبيب قد كتبه لي عندما شعرت بآلام في أسناني الشهر الماضي، حبتان مرتا المذاق، مع حبتين أخرتان من المضاد الحيوي.

ستمر دقائق ثمينة قبل أن يبدأ مفعول هذه الأدوية.

الأمور تزداد سوءًا، فالألم عنيف ومكان الحرق مشوه للغاية، وعقلي يكاد ينفجر من التفكير.

إن كانت هذه هي البداية، فماذا سيحدث لي لاحقًا ؟!

****

مرت ساعة كاملة وأنا في غرفتي، أقطعها ذهابًا وإيابًا كليث جريح، عقلي يشتعل من التفكير وقلبي منقبض من هول ما سيحدث. والمسكنات التي تناولت منها أربع حبات تكافح كي تسيطر على موجات الألم.

إن الأمر بأكمله مخيف.. فأنا لا أعرف المصير الحقيقي الذي تخبئه لي الشياطين، وأملي ألا يطول عمري حتى هذا الوقت. وبرغم كوننا سبعة أشخاص يتعرضون لنفس المشكلة، إلا أن هناك نقصًا حادًا في المعلومات بيننا، لماذا جبن كل منا على الاعتراف بخطيئته، لماذا لم نتحد ونصبح يدًا واحدة أمام هذا الخطر الجهنمي ؟! لماذا تركنا تلك اللعنة تنفرد بنا واحدًا بعد الآخر ؟!

حقيقة أن عقلي غير مستوعب تمامًا لتلك النقلة العنيفة في مجريات اليوم، ولكن ما يحدث يبين وبشدة أن الشياطين موجودة ولديها قدرة هائلة على الإيذاء.

إن الندبة الغائرة في صدري خير دليل على ذلك، هذا لو تجاوزنا عن حالات الاختفاء التي طالت جميع أصدقائي.

طوق النجاة الوحيد يكمن في قدرتي على مقاومة شهوتي الكبرى، ولكن ما هي ؟!

ما هي شهوة مدرس رسم في مدرسة ابتدائية ؟! لا أعتقد أن الرسم شهوة يعاقب عليها بالموت. هل هو التدخين ؟! ماذا عن الإهمال ؟!

ما هو الشيء الجديد الذي اقتحم حياتي ؟! ربما هو العشق.

هل ستكون سهيلة مبررًا جيدًا لموتي ؟!

لا أحد يقنعني بموضوع البرزخ أو الجحيم، فالجحيم لن يوجد إلا يوم القيامة بعد أن يحاسب الخطاة والزناة والطغاة.

إنه الموت ؟!

هذا هو المصير الذي ينتظرني.

ولكن ما يسبق الموت هو ما يقض مضجعي، كم مرة سيقومون بوسمي وبحرق جسدي بالنار.

هل ستنتهي حياتي تحت إطارات حافلة.. أم سيكون انفجار غاز أم سقوط من علٍ أم....

إن العقل البشري مخيف عندما يستسلم للخيالات.

اجتاحتني مشاعر مقبضه فقبضت على كوب ماء فارغ بجوار الفراش وألقيته إلى الحائط ليتحول إلى شظايا.

إنني غاضب.. الموت ليس مخيفًا لهذه الدرجة.. طريقة الموت هي المخيفة.. وأنا لن أستسلم.. فماذا هناك بعد الحياة ليقاتل المرء من أجلها!

لابد من حل.

لا يمكن أن أقاوم وحدي. لا يمكن أن أرتكب الخطأ مرتين.

لقد سمعت عن ذلك الساحر الأفريقي من رشاد، ورغم أنه كان يسخر من نبوءاته، إلا أن الأمور توحي بأنه لم يكن هذا النصاب الذي أوحى إلينا به رشاد وأن لديه بعض العلم.

إن عنوانه على الإنترنت، وهم يقولون عنه أنه بارِع، فهو لا يستخدم السحر فقط، بل يستخدم النصوص المقدسة أيضًا، إنه بارِع... كما يقولون. وسأستعين به دون شك.

طق طق طاااااااق.

طق طق طاااااااق.

طرقات عنيفة لفحت أذنيّ ووترتني، لابد وأنه أخي السخيف. ألا يمكن أن يتركوني لحظة دون إزعاج.. لو كان هو سأحطم عنقه وليكن القتل هو خطيئتي.

أتوجه نحو الباب ثم أسند ظهري إليه. أحاول الحديث بصوت طبيعي لكن الألم المتصاعد من صدري كاسح.

– ماذا تريد أيها السخيف ؟!

الصوت الدافئ يشع عبر مسام الباب ليداعب مشاعري، فأشعر به يحيط بكامل الغرفة :

– أنا سهيلة اسمح لي بالدخول.. أرجوك.. أنا بحاجة للحديث معك.

– سهيلة.. !!

قلتها في لهفة فخفق قلبي في قوة، وتغلب شوقي على كل إحساس بالألم.. الألم الذي أخذ في التراجع بالفعل.. وكأن ذكر اسمها كان هو الدواء والبلسم الشافي..

وفي تلك اللحظة التي فصلتني عن فتح الباب.. حلمت بمستقبل كامل معها.. عرس في أحد الفنادق.. شهر عسل نقضيه على شاطئ البحر.. سيارة حديثة أتنقل بها عبر شركاتي وهي بجواري.. سبحت في عالم الأحلام الساحر وكدت أن أنجرف معه.. قبل أن يعود لي تفكيري السليم. وتحتل صورة أمي عقلي بالكامل.

كيف سمحت لها أمي بالدخول ؟!

لابد وأنها ستسلخ ما تبقى من جلدي بعد انصرافها.. إن سهيلة لا توحي بالكثير.. ولكنها فتاة.. وهذا يكفي لبناء قصة مخيفة عن سلسلة الانحرافات التالية.

الفتاة التي تأتي لمنزلك دون أن تكون زوجتك، لن تكون فتاة جيدة بأي حال من الأحوال، ولن تكون الأم صالحة لو أنها لم تفكر بنفس الطريقة.

استجمعت قوتي، وانتقيت قميصًا حريريًا واسعًا لن يتسبب في أي احتكاك مع جلدي المحترق وارتديته بسرعة، ثم فتحت الباب متوقعًا أن أراها لأشعر بأني لست الوحيد في هذا الكون.

ولم أجد أحدًا..

المكان أمام الباب كان خاليًا.. والدتي في الصالة غير منتبهة لي تعد مائدة الإفطار، هل كنت واهمًا ؟!

صفعة من الألم تجبرني على غلق الباب من جديد..

صفقت الباب ثم استدرت متوجهًا صوب الدولاب، أحتاج لجوارب نظيف كي أغادر..

الساحر الأفريقي هو الحل.. أو يعرف ما هو الحل للنجاة من هذا الفخ الشيطاني.

ماذا كان اسمه ؟!

(ريحان).

نعم هو (ريحان).

أحضرت الجوارب وعندما هممت بارتدائها، خيل إليّ أني لمحت بطرف عيني وجهًا يطل عبر المرآة.

استدرت بجذعي في نصف دورة، وحدقت في المرآة بذهول، وهالني ما رأيت.

كانت سهيلة هناك.. تنظر لي عبر المرآة.. وعلى وجهها إمارات خوف مروِع.

لم يستوعب عقلي الأمر لأول وهلة فالتفت إلى الجهة المقابلة للمرآة متوقعًا وجودها.. دون أن أعرف كيف دخلت إلى الغرفة وكيف لم أشعر بها، ولكن لاشيء.. المكان خالٍ. والصورة عبر المرآة ليست انعكاسًا لجسد حقيقي بداخل الغرفة.

إنها هناك.

خلف المرآة.. بل هي بداخل المرآة.

أي جنون هذا.. !!

_تجمدت أمام المرآة للحظات.. لا يمكن أن يكون ما أراه حقيقيًا.. إنها سهيلة دون شك.. ولكن كيف عبرت إلى هناك.. هل يوجد بالفعل عالم آخر خلف المرآة ؟.

المشهد يفوق كل تخيلاتي، وينافي كل منطق، ورغم ذلك أبصره، وأوقن من وجوده. إنها سهيلة بكل تأكيد - إذا لم تتلف شبكيتي أو أصاب بالهلاوس- تقبع هناك عبر المرآة كسمكة باهتة بداخل حوض زجاجي يخلو من الماء.

المشهد كله يدير الرؤوس. لذلك لا يمكن أن يكون حقيقيًا. أما الأمر الذي أثار ذهولي أكثر من وجود سهيلة أو وجود طيفها بداخل المرآة، هو ما يوجد وراءها، ذلك العالم المخيف الذي يمتد إلى مالا نهاية عبر طبقات متتالية من الظلام.

لا أعرف كيف أصف الأمر، ولكن الظلام خلفها كان متدرجًا إلى ما لانهاية، مع وجود وجوه ضبابية معذبة تتماوج عبر الظلام، ووجوه مخيفة لزبانية تنهمك في تعذيب أصحاب هذه الوجوه المتألمة.. والمشهد كله يظهر كلقطات متتابعة من فيلم رعب قديم، تم التقاطها بكاميرا عتيقة تستخدم تقنية اللونين الأبيض والأسود.

صورة سلبية للجحيم ولكنها برغم كل شيء مخيفة.. جحيم خالص من اللونين الأبيض والأسود.

إنها تحدي جديد لفنان مثلي، ربما لو جاءتني هذه الأفكار أو الهلاوس في وقت مختلف، لأصبحت (جويا) العربي، ولفقد جمهوري رغبته في النوم لمجرد أن طالع أعمالي.

المشهد كله كان مروعًا لدرجة غير معقولة، ورسخ بداخلي ذلك الرأي الذي تبنيته والذي يقول أن أفلام الرعب الأبيض والأسود أكثر إفزاعًا من الملونة.

ندت مني صرخة لا تخرج من فم مراهقة اكتشفت أن اليد التي تداعب قدميها أثناء نومها هي أهداب فأر.

ارتجفت..

احتبست أنفاسي للحظات.. ثم تراجعت مبتعدًا عن المرآة.. إنها المرة الأولى التي أتمنى فيها لو لم أرَ وجه سهيلة في حياتي قط.

وجه سهيلة الذي لم يغادر أحلامي منذ رأيتها للمرة الأولى. وجه سهيلة الذي يطالعني عبر المرآة وهو يحمل أعنف المشاعر وأكثرها حدة..

الرعب.

كيف يسقط المرء منا في الحب ؟!

سؤال يحتاج لعشر مجلدات على الأقل ؟! خاصة وأن الحب الحقيقي لا يأتي إلا في الوقت غير المناسب، وربما أيضًا للشخص غير المناسب، إنه

المعضلة الكبرى التي تمنح الحياة نكهتها أو تحرمها منها.. وديدنه أن يختار أصعب الأوقات وأكثرها تعاسة ليظهر.

أعترف أن سهيلة ليست فاتنة ولا تمتلك ذلك الجمال الملفت الذي يجعل الرجال يتقاطرون عليها، ولكن لها وجهًا مريحًا ورائحة عذبة، وروحًا متمردة تستفزني.. في عينيها ذلك الشعور بالقلق الذي يشعل مشاعري. إنها اللوحة الحية التي لن أجرؤ يومًا على تقليدها بفراشاتي.

سهيلة الآن محتجزة في عالم غريب، عالم مخيف، عالم يتمتع بفيزياء خاصة وقواعد فوق الطبيعية.

محتجزة وتعاني.

محتجزة وتطلب مني أن أسمح لها بالدخول إلى غرفتي.

تقنيًا هي بداخل الغرفة ولكنها أيضًا ليست داخلها، فهل حقًا سأخالف حدسي وأسمح لها. إن عبارة بكامل إرادتي الحرة، تتخذ بعدًا مخيفًا ومقلقًا. قد لا تكون هذه سهيلة بالفعل، وقد تكون مخلب قط لاجتذابي نحو طريق الهلاك.

كم من أحمق خالف حدسه وفتح للموت بابه..

إن كتب التاريخ تعج بقصص الحمقى.. حتى لتعتقد أن التاريخ البشري قصة ممتدة للحماقة التي لا علاج لها.

ولكني لم أكن أحمق لهذه الدرجة. ففي اللحظة التي قررت فيها دعوة سهيلة لدخول غرفتي عبر المرآة، قمت بأغرب تصرف قد يقوم به عاشق على مر التاريخ يرى حبيبته في محنة وتستنجد به.

لقد سحبت أحد الكراسي، وأدرت ظهره للمرآة ثم جلست عليه وأشعلت لفافة تبغ، وأخذت أغني وأدمدم.

سلوك غير مبرر ولا مفهوم، ولكنه بدى لي وقتها منطقيًا إلى أقصى حد.

لماذا ؟!

بلا سبب.

إنني على وشك الموت، فأي شيء آخر سأخسره. ثم إن سهيلة لم تكن من السبعة المبشرين بالموت.

لذا فوجودها في هذا المكان المخيف مريب.

إن أكثر صفة تمتاز بها الشياطين هي التقمص واتخاذ هيئة البشر والحيوانات، فلماذا يكون الأمر مختلفًا ؟

عشر لفافات تبغ استهلكتها، مئات من الأغاني والألحان رددتها، وضعت سدادات الأذن الشمعية، أشعلت جهاز الإستريو بصوت مرتفع، وكل ذلك كي لا أسمع صوتها.

السؤال هنا لماذا لم أترك لها الغرفة وأغادر ؟!

والجواب بسيط أن باب الغرفة اختفى، الغرفة نفسها تلاشت ولم يبقَ إلا المقعد الذي أجلس فوقه وسط ستار كثيف من اللون الأحمر.

خاطر سخيف يطارد عقلي، وكأنني أجلس بقلب بطيخة.. هذه الكثافة من اللون الأحمر مفزعة.

وبرغم كل هذا تمالكت أعصابي وأعملت عقلي في الأمر..فلا داعٍ لأن أتهور أو أنجرف. فأنا ذلك الأحمق الذي يحذرون الجميع منه، ويطالبونهم بألا يثيروا غضبه لأن ردود فعله قد تفوق بكثير ما هو متوقع مما يجعل كل خطوة يخطوها تتسبب في كارثة.

اتق شر الحليم إذا غضب.. لأن غضبه عاتٍ.. غضب غير مروض.. غضب مستعر لا قيد عليه.

الغشيم يكون أكثر خطورة في المشاجرات من الشخص المحترف.. لأنه لا يعرف نهاية لغضبه أو اندفاعه.

وأنا لا أريد أن أغضب أو أتهور.. لأن الوضع سيكون مؤذيًا.. لي بالطبع.. إن آخر مرة فقدت فيها أعصابي تسببت في تحطيم ذراع ذلك الطفل الذي لم يتجاوز التاسعة والذي نسي علبة الألوان ثم لم يتوقف عن مضايقة زملائه.

بعض الأطفال يستحقون القتل.. ولكن لم يكن هذا رأي مديرة المدرسة التي استفزها الأمر، وخافت أن يصل إلى الوزارة، دون أن تكون قد منحتني عقابًا كافيًا.

شهرٌ خصم من الراتب وآخر إيقافٌ عن العمل.

أعرف جيدًا أن غضبي يومها لم يكن من أجل علبة الألوان ولا من أجل شقاوته ومضايقته لزملائه.. بل هذا الأمر هو القشة التي أضيفت لما فوق ظهر البعير فقصمته.

إن مهنتي.. مهنة غير حقيقة.. لا يعترف بها الآباء.. ولا التقييم.. لا تضيف درجات إلى المجموع الكلي ولا تنقصه.. ولا يأتي لها المريدون ليتلقوا الدروس الخصوصية.. إنها مجرد وقت ضائع في اليوم الدراسي.. مهنة لا قيمة لها ولا تدر أي نقود.. لن يضاف لهذا كله استهزاء الطلبة بها.. لذا كان العقاب أسطوريًا وهشمت ذراع ذلك السخيف..

من حق مدرس الرسم أن يكون قاسيًا كأي مدرس آخر.. فلنتوقف هنا.. إن تذكر هذا الموضوع يصيبني بالغثيان. كما أن هذا ليس موضوعنا الآن.

المهم أنني أخذت أشغل عقلي بآلاف الموضوعات، محاولاً التغلب على صوتها المستحوذ العذب.

....

توسلاتها لا تنقطع.

نحيبها لا يتوقف.

أنينها يتعالى ليمزق نياط قلبي.

ولكني أواصل دندنتي وغنائي وأردد دون توقف وبكافة النغمات :

– الأمر سينتهي الآن.. سينتهي.

ساعة كاملة ظللت فيها أقاوم تلك السيطرة العقلية المخيفة، حتى كادت روحي أن تزهق، وفي اللحظة التي كدت أن أستسلم فيها. دوت الطرقات من جديد.

– طق طق طااااااق.

ليظهر الباب من قلب العدم، وتتجسد الغرفة من حولي ويتلاشى الضوء الأحمر الثقيل، وكأن الطرقات أعادت للباب خصائصه الطبيعية ومحت ذلك السحر الذي سيطر على كل شيء حولي، فاندفعت كالغريق لأفتح الباب.

انفتح الباب بسلاسة مدمرًا كل توقعاتي بعصيانه.. وعلى عتبة الباب كانت تقف سهيلة بعيون منتفخة وهيئة زرية، وخلفها والدتي تحدجني بنظرات من نار.. إنها لا تسمح بمثل هذه الأشياء أبدًا.. فكيف أقنعتها سهيلة.

نقلت بصري بين سهيلة وبين أمي، وبحركة تلقائية جذبت سهيلة من ذراعها وأغلقت الباب في وجه أمي، وفي عقلي تخيلت صورة أمي، والدخان يخرج من أذنيها، ولكن في هذه اللحظة كان غضبها آخر شيء أفكر فيه.

لأن بداخل الغرفة أصبح هناك اثنان سهيلة.

سهيلة بشحمها ولحمها وقلقها.. وسهيلة أخرى تتعذب خلف المرآة.

فياله من وضع مقيت.

- الذي حضر -

الوضع المخيف لم يتغير قط، فقط أصبح هناك لغز حقيقي أجج الصراع بداخل عقلي.

من هي سهيلة الحقيقية ومن هي الزائفة ؟!

أهي التي تقبع خلف المرآة تتوسل، أم تلك الزهرة التي فقدت كل عبيرها ونضارتها والتي تشاركني غرفة نومي.

الاثنتان تحملان نفس الملامح، ونفس القلق ونفس الإجهاد ولا يبدو أن أيًا منهما تستمتع بوقتها هذه الأيام.

إن لعبة الأبواب المغلقة تغيرت قواعدها تمامًا، الأبواب الآن شفافة وما خلفها معلوم إلى حد ما.. فقط عليّ أن أختار. بين موت وموت.

لابد أن البعض منكم الآن متعجب، ويتساءل كيف أواجه كل هذا الضغط العصبي والأحداث فوق الطبيعية، بهذا الكم المريب من البرود. ولهم أقول:

– لا تتعجبوا إنها طبيعتي.. فبرودي وهدوء أعصابي.. هو ميزة اكتسبتها عبر الجينات.. ورسختها سنوات من الروتين والملل والقهر.. وهاهي الميزة تبرز قدرة هائلة مني على التكيف، ومواجهة أصعب المواقف.

بعض الأصدقاء وفي محيط العائلة يطلقون عليّ لوح الثلج، لأن انفعالي دائمًا يكون بعد فوات الأوان أو لا يكون أبدًا.

معظمنا تعرض لحادث سيارة أو أكثر في حياته ولكن كم منكم من خرج من السيارة المهشمة ليوقف سيارة أخرى دون النظر لباقي الضحايا أو لطبيعة ما حدث. متوجهًا صوب عمله وكأن شيئًا لم يكن.

الصدمة عندي تأتي متأخرة جدًا.

لذا فعند غضبي.. لا أنصح أيًا منكم أن يعترض طريقي. لأنني لا أكون أنا.. بل شيطانًا فقد كل ما يمت للبشرية بصلة.

أجلست سهيلة على المقعد الوحيد الموجود في الغرفة، ثم أخذنا نتبادل النظرات. قبل أن تنهمر دموعها وينطلق لسانها في الحديث دون توقف.

سهيلة رأت الموت بعينيها.. الموت القريب.. القريب جدًا والذي كان يطل من فوهة المسدس الباردة التي حملها زياد.

سهيلة لم تعد مستمتعة بما يحدث ولا بكونها وسيطة..

سهيلة خائفة وتبغي الحماية..

سهيلة تموت من منظر سهيلة الأخرى التي تحاول اقتناصها عبر المرآة.

سهلية تمنحني خريطة ساذجة يبدو أنها رسمتها بنفسها. تقود نحو مقبرة ما.. وتخبرني أن هناك يكمن جزءًا من حل اللغز. وأن أمجد من ساعدها في رسمها في إحدى رؤاها المشئومة.

وأثناء انشغالي بتفحص الخريطة البدائية، قامت سهيلة بأكبر حماقة ممكن أن تقوم بها من في مثل موقفها. لقد لمست سطح المرآة بطرف أناملها.. وفي لحظة واحدة وقعت الكارثة الكبرى.

أصابتها تشنجات عنيفة، وكأنها لمست سلك كهرباء عالي الفولت. مع كمية هائلة من الزبد أخذت تتساقط من فمها، صاحبتها كمية هائلة من الصرخات جعلت كل جيراننا بقلب شقتنا في لمح البصر.

وقبل أن أستوعب ما يحدث.. انتصبت سهيلة على قدميها واقفة وانقلبت عيناها بشكل مخيف.. وتحشرج صوتها في قوة.. وقبل أن تقفز من النافذة قالت كلمتها المخيفة :

– أنت التالي.

جمدتني الصدمة في مكاني للحظات، بعد أن رأيت كيف استولت شياطين المرآة على جسد سهيلة، وكيف تحوّل شكلها، وانقلبت عيناها، فصارت حمراء متوهجة.. قبل أن أندفع صوب النافذة متوقعًا أن أرى جسدها النحيل متوسدًا الأرض مهشمًا غارقًا في الدماء.. ولكن ما رأيته كان مخيفًا أكثر.

فالشارع كان خاليًا من أي جثث، ولا أثر لسهيلة.. لقد مُست واستحوذت عليها الشياطين. وفي لحظة غضب عاتية.. حملت المقعد وهشمت المرآة.. غير عالمٍ أن ما قمت به كان خطأً فادحًا.. لأنني قطعت الصلة التي تربط الشيطانة بعالمها. أو الكيان كما تحب أن تطلق عليه سهيلة.

سهيلة أصبحت هي الكيان.

****

"الشيخ ريحان قتل".

ومن قتلته فتاة تحمل كل مواصفات سهيلة، إن الشيطانة تصر على استكمال اللعنة وإغلاق كافة الطرق في وجهي مهما تكلف الأمر. إنها لم تعد تحفل بسرية الأمر ولا عقباته، لذا لم يعد هناك إلا الطريق الآخر المرسوم عبر الخريطة.

السؤال هنا : هل أذهب الآن أم أنتظر للصباح.. إن الزيارة الليلية للمقابر شيء غير مريح.. بل هو مخيف لو صدقتكم الرأي.. فقط هو الوقت الذي يجبرني على المخاطرة.

الآن أنا وحدي..

وربما أنا الأخير..

سهيلة استحوذت عليها شيطانة.. وأصدقائي قد فارقوا الحياة أو في طريقهم.. والموت متربص بي.. والحل يكمن بقلب مقبرة مجهولة.. لا أعرف كيف سأحمل الجرأة على نبشها، وصدري يؤلمني من أثر الحرق، وأمي غاضبة مني..

أي أن الموت هو أجمل الخيارات المتاحة .

****

قبل خروجي من المنزل، عرجت على المطبخ وحصلت منه على سكين حادة واريتها بين طيات ثيابي بالإضافة لكشاف يتم شحنه يدويًا.. وبعض الشموع ونسخة مصغرة من القرآن الكريم. وطوال الطريق لم أتوقف لحظة عن ترديد الأدعية.

وعلى مشارف تلك المقابر توقفت.

لم تكن تلك المقابر من نوع المقابر الخالية من البشر، بل هي ذلك النوع الحديث الذي تحول إلى سكن يقطنه عشرات الأسر، لا يمكن أن أخترق هذه الحشود دون أن يلاحظوني أو يستوقفوني.

راجعت الخريطة عدة مرات وأنا أجلس متواريًا خلف شاهد قبر متهدم، وأصوات لهو الأطفال يصل إلى أذنيّ ويشعرني ببعض الونس.

هناك طريق خلفي يمكن أن أسلكه لكي أصل للمقبرة المنشودة، ولكن ما العمل لو وجدتها مسكونة بالبشر هي الأخرى.. ماذا سأفعل وقتها ؟

عبرت من خلف سور المقابر إلى حيث الظلام وأكوام القمامة المتخلفة عن قاطنيها، الرائحة قاتلة.. ولكني استخدمت منديلي وبخطوات سريعة عبرت المنطقة المحتوية على القمامة، ثم سلكت طريقًا بين بعض الأطلال المتهدمة وفي النهاية دخلت إلى المقابر من الجهة الخلفية، وفي مساحة خالية تمامًا وجدت المقبرة، ولا يوجد أثر لكائن حي بالقرب منها.

يبدو أنهم عانوا عندما حاولوا سكناها، وفي النهاية تركوها.

الآن أقترب من باب المقبرة، والذي يبدو أنه فُتح منذ وقت قريب.. لن أعاني إذن في فتحه، آثار الأتربة من حوله توضح ذلك.

أرفع القطعة الرخام التي تسد المدخل وأنظر نحو الظلام ودرجات السلم الهابطة المتآكلة، قدماي لا تطاوعاني على الهبوط، ولكني أضغط على نفسي وأهبط..

فكرة الكشاف ذاتي الشحن سخيفة لأني سأستمر في الضغط المستمر عليه ليظل مضاءً.

أهبط الدرجات المتآكلة في تردد ورائحة الموت تصفع أنفي.. الظلام دامس والتوتر يجعل جسدي يرتجف كذيل عقرب تم قطعه.. أغمض عينيّ ثم أترك المصباح لأشعل لفافة تبغ.. أعيد الضغط على المصباح ثم أواصل الهبوط.

رائحة التبغ تطرد من أنفي رائحة الموت والجثث المتحللة إلى حدٍ ما.

أتجاهل تلك الأجساد الملفوفة في أكفانها والمرصوصة بجوار الجدران، وأتوجه صوب الجدار الذي توضحه الخريطة.

حمدت الله على كون المكان خالٍ، فلن أضطر لتحريك رفات أي جثة من موضعها.. أشعلت بعض الشموع بعد أن يئست من المصباح ذاتي

الشحن.. ثم أخذت في الحفر بالسكين الذي أحضرته معي في نفس النقطة المحددة على الخريطة بخطين متقاطعين.

دقات قلبي تتعالى وذلك الشريان النابض في رأسي لا يوحي بأن الأمور ستمر على خير.

الحفرة تتسع والوقت يمضي وأنفاسي تتلاحق.

من يصدق ما أفعله الآن !!

السكين يصطدم بجسم معدني، مما شجعني على الحفر بسرعة أكبر.. لحظات ثم ظهر الصندوق.. لم يكن صندوقًا بالمعنى المتعارف عليه، بل هي علبة معدنية من ذلك النوع الذي تأتي فيه الشيكولاته في المناسبات أصابها بعض الصدأ.

أُحرر العلبة المعدنية من بين تراب المقابر الذي لوث يدي ووجهي وأبصق ما كدت أبتلعه منه.. وما إن قبضت على الصندوق، حتى دوت الصرخة وانطفأت كل الشموع.

احتضنت العلبة المعدنية بيد وباليد الأخرى قبضت على السكين وأخذت أتلفت في الظلام.

الذعر تملك مني وقلبي يوشك على التوقف.

أبحث عن الكشاف فلا أجده.

أشعلت قداحتي بصعوبة، وعلى هدى الضوء المتسرب منها بدأت في صعود الدرج عندما شعرت بالقبضة المخلبية تنغرس في ظهري.

لقد استيقظ الموتى.

دفعت القبضة بيدي دون أن أعرف نوع العدو الذي يواجهني ثم عدوت خارج المقبرة..

جلست على الأرضية المتربة ألهث ويداي ميتتان على العلبة المعدنية التي لا أعرف محتوياتها. ثم زحفت على الأرض بصعوبة حتى جعلت ظهري لشاهد قبر، ثم – وبمجهود مضاعف – فتحت العلبة المغلقة، وكدت أتقيأ من محتوياتها.

جثة فأر محنطة.. ورحم أنثى مختلط بدماء طمس، عظمة ضلع طفل.. بعض الأوراق المكتوبة بسائل أحمر غير الدم، وخنجر يدوي الصنع له يد خشبية ونصله غارق في الدماء.

نظرت لكل هذه الأشياء بحيرة.. ما هي الخطوة التالية ؟!

لم أعرف ماذا أفعل غير حرق هذه الأشياء.

وضعت العلبة أمامي ثم رفعت ضغط الغاز بداخل القداحة، ثم أشعلتها فانطلق عمود من اللهب المركز ما أن لامس الأوراق.. حتى سرت النار في كل محتويات العلبة بسرعة رهيبة وأتت عليها في لحظات ليبدأ الهول.

ففي نفس اللحظة التي خبت فيها النيران.. لمحت ذلك الشيطان الذي انتصب أمامي كالمصيبة، مجسدًا أعقد كوابيسي وأكثرها بشاعة .

لا يمكن أن يكون هناك شيء مرعب أكثر.

العيون المشتعلة.. الجسد الحرشفي.. المخالب والأنياب.. القدم المشقوقة كقدم الماعز، وتلك الأدخنة التي تظهر من حوله مع رائحة الكبريت التي عبقت الجو.

الشيطان كما ينبغي له أن يكون ومن خلفه ظهرت سهيلة وقد لطخت ملابسها الدماء.. وشحب وجهها فصار كوجه الموتى.

توقف عقلي للحظات وكدت أفقد الوعي.. ثم أخذت أصرخ.

هذا ليس عدلاً ليس عدلاً.. .مازال أمامي يوم آخر.. لن يسلبني أحد يومي الأخير حتى ولو كان الشيطان.

هل حدثتكم عن الحماقة ؟!

هل حدثتكم عن الغضب ؟!

هل حدثتكم عن ذلك الغر الساذج التي يدخل معركة، يعرف دون شك أنه سيخسرها ؟!

إذن علمتم من أنا.

السكين في يدي، وبكل غضب الدنيا هاجمت سهيلة.. لم أستطع برغم كل شيء أن أهاجم الشيطان. ولم تمنعني سهيلة.

السكين في يدي.. أندفع كالمجنون صوب سهيلة ثم أطعنها في قلبها بكل ما في جسدي من قوة.. الدماء تتفجر من موضع الإصابة لتغمر كل شيء، وأنا أقف مذهولاً أتطلع إلى يدي وإلى السكين الذي غرس في صدر سهيلة.

يا إلهي.. ماذا فعلت ؟!

صرخة أخيرة من سهيلة تهتف باسمي بعد أن انتهى الاستحواذ عليها بالموت، قبل أن يسقط جسدها ليفترش الأرض، في مشهد حطم قلبي وأشعل غضبي..

الشيطان أيضًا صرخ في غضب.. عيونه تشتعل ومن فمه تصاعد بخار ملتهب لفح وجهي.. قبل أن تمزق مخالبه لحم صدري في نفس موقع الحرق ليمنحني ألم مريع .

لم ألتفت للألم ولإصابتي الفادحة.. ولا للشيطان الذي يستعد لانقضاضه جديدة.. فقط وقفت أموج بغضب هادر، وأنا أتطلع لجسد سهيلة المكوم على الأرض.. كنت أستمد منها طاقة غاضبة لو لمست قلب الأرض لصهرته ولو لامست مياه البحار لبخرتها.. لا يوجد ألم مثل ألم القلب.. صدقوني.. لا يوجد ألم أقسى من أن تفقد من تحب.

وفي لحظة تحولت لليث غاضب.. وانقضضت بسكيني على قلب الشيطان.. الذي يفوقني حجمًا وقوةً وغضبًا..

وكانت هذه هي حركتي الأخيرة، ففي اللحظة التالية لم أشعر إلا بالنيران التي اشتعلت حولي في كل شيء، ثم شعرت بألم هائل في كل خلية من خلايا جسدي. وأظلمت الدنيا للحظات، وعندما عاد الضوء.. وجدت أصدقائي جميعًا أمامي، ورأيت الشياطين التي تعكف على تعذيبهم. والجحيم المستعر الذي يلتهم كل شيء.

لم يكن الموت إذن.

وأمام عينيّ تجسد ذلك الشيطان الغاضب من قلب العدم وهو ينفث من منخاريه ذلك البخار الملتهب.. ومن عينيه الغاضبتين عرفت أنه حضر من أجلي.

من أجلي فقط.

٠٧

اللعنة السابعة - الغرور

عرّفها دانتي : الحب النرجسي للشخص والذي يخالطه كره الآخرين واحتقارهم.. ..كبرى الخطايا السبع وأعظمها، مرتبطة بلوسيفر **Lucifer** وهو النسخة المسيحية من إبليس عندما كان ملاكًا.. مرتبطة باللون البنفسجي..

أنا الغرور.. إنني أزدري أن يكون لي أبوان.. فأنا أشبه ببرغوث أوفيد ويمكنني أن أزحف داخل أي ناحيةٍ من جسم الفتاة.. أحيانًا.. بصورة شعر مستعار ..أتربع فوق جبينها.. ثم بشكل قلادةٍ.. أتدلى حول عنقها.. وبعدها كالمروحة من الريش.. ألثم شفتيها.. وأخيرًا أتحول إلى دخانٍ مُشكل فأفعل ما أشاء.. ولكن.. أف.. ما هذه الرائحة هنا !! لن أضيف كلمةً أخرى ما لم تُعطر الأرض وتُكسى بأقمشةٍ مزركشة..

- يقظة -

"لقد استيقظ المريض أمجد".

كان هذا هو صوت الممرضة البارد، والذي صفع سمعي بجفائه، ووشى بطبيعة الممرضة الملول غير المبالية، خاصة عندما بدأت أفيق وأشعر بالعالم الحقيقي يتجسد من حولي من جديد. وبدا وكأنني أعود من نوم عميق لا يفوقه عمقًا إلا نوم أصحاب الكهف.

لم تكن العودة هينة بأي حال من الأحوال، وظهر الأمر وكأن روحي التي غادرت جسدي قد ضاقت به، ولا ترغب في العودة إليه مجددًا. فقط هناك من يحاول حشرها حشرًا في جسدي دون جدوى.

رؤية العالم الواقعي كانت صادمة، بل أشد وقعًا على أعصابي من صدمة استيقاظي في ذلك الجحيم الجهنمي، الذي قضيت فيه الأسابيع الأخيرة المنصرمة أعاني وأتعذب وأرى أصدقائي يتساقطون في قبضة الشياطين واحدًا تلو الآخر.

الفرحة قاتلة كما يقولون.

جسدي يؤلمني وكأن قطارًا بكامل عرباته مر فوقه عدة مرات.. عقلي يترجرج وكأن بداخله كرة دوارة لا تتوقف عن هرسه طوال الوقت، عيناي جاحظتان منهمكتان في التهام كل التفاصيل المعتادة من حولي بنهم أعمى يرى الدنيا للمرة الأولى..

الدهشة تفوقت على الألم وبجدارة فاحتواني الذهول بالكامل، وإن ظل الألم ينشب مخالبه الحادة في روحي وجسدي كليث تمكن من فريسته التي فقدت كل مقاومة حتى ظننت أن الزمن قد تجمد إلى الأبد. فعودتي لعالم الأحياء كانت مفاجأة لي لم أتوقعها تحدث أبدًا.

فاستمرارية التعذيب والمعاناة والألم،جعلت الأمل بداخلي يذوب ويتبخر، بل ويتلاشى من عالمي كله. خاصة بعد أن عاصرت تلك المشاهد المروعة التي دارت أمام عينيّ بداخل ذلك الجحيم الصناعي الجهنمي، والذي أنشأته تلك الشيطانة الملعونة لإرضاء سادتها من الشياطين لدعمها في صراعها مع ذلك المخلوق الشيطاني الذي استحضره الشيخ ياسين، والذي لا يمت للشياطين التي نعرفها بصلة.

هل تفاجأتم ؟!

بالتأكيد.. فأنا نفسي تفاجأت.. بل صدمت بهذه المعلومة الرهيبة.. والتي لم ترد من قبل في أي كتاب تاريخ أو خوراق، وكأن هناك من حرص وبشدة على إخفاء كل أثر لهم، لهدف ما في نفسه، وحتى يذوبوا في عوالم النسيان.

هناك مخلوقات شيطانية، في ما وراء هذا الكون لا نعرف عنها شيئًا. وهي تتربص بنا. ولولا أن للكون قواعد صارمة في العبور والانتقال، لما كان هناك بشري في مأمن منها. لذا فإنني أكررها.. لأني نفسي أصدقها بصعوبة.. إنها

نوع من الشياطين لا تمت لجنس الشياطين التي نعرفها بصلة.. ولا تخضع لقواعده.

إنها أشد وحشية وقوة، من أي شياطين سمعت عنها من قبل، لأن لديها القدرة على إخضاع الشياطين أنفسها، واحتلال أجسادها النارية.. بل إن هناك نوع بدائي منها.. يستمتع بالتهام الجن والشياطين.

وعن طريق السيطرة على هذه المخلوقات الوحشية، يستطيع الساحر أن يخضع أي جن لإرادته..

التعامل مع هذه الكائنات الجهنمية ليس سهلاً أو هينًا كما يبدو، فهو يحتاج لتضحية عظيمة ولطقوس تصل لحد الكفر.. بل هي الكفر ذاته، وإلى دماء كثيرة تراق، وإلى تنازلات لا مثيل لها تُخرج الساحر بجدارة من عباءة الإنسانية.. والمخيف أن هناك من لا يتورعون عن قضاء ثلاثة عشر يومًا في هذا الجحيم الطقسي من أجل أن يصلوا لمأربهم..

ثلاثة عشر يومًا، كفيلة بأن تهشم روح الساحر وتصيبه بالجنون لو لم يكن بالكفاءة المطلوبة.

إن هذه المخلوقات لعنة أبدية، ولولا أنها تقطن في البعد السابع للأرض، ولا تملك القدرة على العبور لعالم البشر دون وسيط، وعن طريق طقوس وكلمات خاصة، عبر درب رهيب من دروب السحر الأسود، لاستعبدت البشر منذ زمن سحيق.

إن الشياطين التي نعرفها، تبدو بجوارها كالحملان الوديعة.. ألم أخبركم أنها المخلوقات التي يخشاها الجن والشياطين.. !

إن الجهل بهذه العوالم، جعلنا نضع كل ما هو مجهول في سلة واحدة، فلا نفرق بين الشر والشر الفائق المطلق.

الشيخ ياسين، سلك هذا الدرب المشئوم للمرة الثانية، والفترة الأخيرة التي انشغل فيها ولم يعد يغادر غرفته، كان يجهز فيها لاستعباد مخلوق آخر من تلك المخلوقات الجهنمية، سيستدعيه لمساعدته من أشد مناطق الكون ظلمة ووحشة، من البعد السابع للأرض.

لأنه علم عن طريق بردية قديمة، أن هناك دربًا خاصًا من سحر الظلام قادر على إعادة شبابه إليه وربما منحه الخلود أيضًا.. إن جسده يتداعى ولا سبيل آخر لإيقاف زحف الزمن عليه..

خاض الشيخ ياسين في الأمر، دون أن يضع أي اعتبارات لقدراته التي وهنت مع زحف الشيب والتجاعيد على وجهه.. خاض في الأمر لأنه يثق أنه قادر على كل شيء وأي شيء.. إنه الغرور البشري الذي لا سقف له، والذي قادنا من البداية لنخوض في هذه الدروب المظلمة..

سلك الشيخ يا سين دربه المظلم، وأراق دم ذلك الرضيع، الذي نتج عن علاقة آثمة كطفل سفاح، وأنهى الثلاثة عشر يومًا، ولكنه مات قبل أن

يكمل تعويذته، ويؤدي الطقس الأخير، بعد أن أهدى الأرض هدية ملعونة قد تتسبب خلال مدى قصير في خراب لا أول له ولا آخر.

وهذا الأمر لم يتوقف تأثيره عند الشيخ ياسين، بل امتد إلى مدى أوسع وأخطر، فقد أضعف قدرة (سماح) تلك الشيطانة التي استعبدها جدي والتي حاولت الإيقاع بي في وقت سابق، وجعلها لا تستطيع أن تكمل ما خططت له عبر السنوات، فلم تستطع أن تتم تعويذتها لتتحرر وتعود لعالمها.. وفشلت في أن تكمل تضحيتها وتزهق الأرواح السبعة.

لم يكن لي فضل في إنقاذ أصدقائي إذن، المخلوق الشيطاني كان هو المسئول ولكني كنت يده التي نفذت الأمر..

المخيف فيما حدث أن الشيخ ياسين استحضر المخلوق الشيطاني إلى العالم ومات دون أن يحكم سيطرته عليه ودون أن ينقل العهد لساحر آخر قادر على إكمال الأمر، مما أفسد خطط تلك الشيطانة، ومنح للكائن فرصة نادرة للانتقام.. وها هو الكائن الشيطاني يعبث بتلك الشيطانة ويفسد لها كل تخطيط تحاول به العودة إلى عالمها الذي منعت عنه..

إنها تجازف في كل مرة تحاول فيها، أن تستولي على جسد أحد الضحايا من أجل إتمام تعويذة العودة، يعاونها بعض شياطين الجن لتحقيق مأربها، دون أن تجرؤ ولو مرة واحدة على إخبارهم بحقيقة هذا المخلوق.

أعرف أن الأمر جنوني ولكنه حقيقي.. فأثناء غيبوبتي، وبطريقة ما، عبرت روحي البرزخ الفاصل بين الأبعاد وعرفت كل هذا، هناك صلة ما نشأت بيني وبين تلك الشيطانة دعمها الحب الذي كنت أكنه لها في قلبي، إن للمشاعر الصادقة قوة خاصة، من يملك علمها يملك سلاحًا لا مثيل له، وهي كانت تملك هذا العلم.

إن قدرات البشر غير المستخدمة تؤهلهم ليكونوا الجنس الأقوى في هذا الكون ولكن للأسف الغرور والجهل يعمي عيونهم.

سمحت لي هذه الصلة بأن أحيط بكثير من هذه الأمور التي كنت أجهلها، والتي تمنيت لو ظللت على جهلي الكبير بها، ولا أخفيكم علمًا أن ما لمسته بداخلها تجاه ذلك المخلوق، أورثني خوفًا يكفي كل سكان الأرض ليجعلهم يغادروا هذا الكوكب البائس في أسرع وقت.

فقوة هذه المخلوقات ووحشيتها لا مثيل لها، خاصة وأن الشمس المباشرة تضاعف قوتهم، فيصير المخلوق منهم بقوة مئات الشياطين أو أكثر..

لقد عبث الشيخ ياسين، في أسرار ما كان لبشري أن يحيط بها علمًا، لولا مساعدة الملعون الآخر صديقه الشيخ تهامي الحو، والذي بمساعدته عبرا كل الحواجز، وكسرا أختامًا قديمة قدم الزمن، ما كان لهم أن يقربوها. وها هي ذي النتيجة.. !!

- انتقال -

لم أكن أتخيل يومًا أن مجرد رؤية غرفة عادية كئيبة الطلاء، وبشر عاديين يمارسون عملهم في روتين ولا مبالاة، قد يمنحني ذلك الشعور المذهل بالراحة، كل تفصيلة صغيرة كانت تعيد تضميد جزء من روحي التي تمزقت، حتى أن طعم الدواء المر في حلقي كانت له نكهة الحياة.

الدهشة لم تكن نابعة من وجودي بداخل مستشفى القصر العيني متصلاً بكل تلك الأجهزة المخيفة التي لا تكف عن الهدير، والتي تعتبر الدليل الوحيد على وجودي على قيد الحياة، ولكن بسبب وجود ذلك الشخص الغريب الذي يجلس في أريحية على ذلك المقعد المجاور للفراش، وكأنه امتلك المكان، وعيناه المخيفتان مسلطتان على وجهي ككشافان ساطعان، تحصي عليّ أنفاسي.

كان أغرب شخص من الممكن أن تلتقي به في حياتك.. فهو يمتلك جسدًا ممشوقًا قويًا تشعر فيه بصلابة المعدن، لا تلك الصلابة التي تموج بالحياة في عضلات البشر العاديين.. رأس أصلع لامع وكأنه تم دهانه بملمع ثابت..عينان يتغير لونهما طوال الوقت ما بين الزيتوني والأرجواني والأزرق ثم تتوقف للحظات عند اللون البنفسجي.. عينان باردتان خاليتان من أي دفء أو أحاسيس آدمية، و تصيب من يركز فيهما بالدوار..

بشرة مشدودة كسطح طبل أملس مع لمسة غير طبيعية لا تعكس أي مشاعر أو انفعال، تجعله يبدو كتمثال شمعي بارد.. يرتدي رداءً من قطعة واحدة تتصل مباشرة بالحذاء في انسيابية عجيبة، ويغلف كل هذا غموض بلا حدود.

إن المعرفة مؤلمة، وكذلك الجهل، ولو تساويا في الألم فإن الجهل يتفوق بكونه غير مريح ويبعث على القلق.

لذا كان السؤال الذي ظلل يتردد بداخلي كصدىً مستمر.. من هذا الشخص المريب ؟!

دقائق قليلة مرت عليّ قبل أن أُلمّ بكل ما فاتني، وأجمع قطع البازل التي تتكون منها ذاكراتي، لأوقن تمامًا أنني لا أعرف هذا الشخص العجيب، وأوقن أيضًا أن وجوده بجواري ليس طبيعًيا أبدًا، فلا يوجد بشر طبيعيون يمتلكون هذه الهيئة الباردة وكأن وجهه وجه جثة لشخص مات منذ زمن.

تبادلت معه النظرات للحظات قصار فشعرت بغصة في حلقي، وشعرت بعدم راحة.. وتمنيت لو يغادر.

إن الأرواح جنود مجندة، ورؤية هذا الشخص آذت روحي بعنف.

الشيء الذي جعلني أرتجف، وأتمنى لو تبتلعني الأرض أو يسقط عليّ شهاب من السماء ليبخرني، هو تلك اللحظة التي عبرت الممرضة من

خلاله لتقيس لي حرارتي.. نعم العبارة صحيحة.. لقد عبرت من خلاله، كأنه طيف غير موجود أو صورة هولجرافية شفافة.

إذن فعيناي لا تخدعانني.. لقد حاولت أن أقنع نفسي منذ أول لحظة سقط عليه بصري.. أنها لعبة المخدر والظلال. ولكني لم أكن واهمًا.. كنت فقط مخطئًا في ظني.

عبرته الممرضة دون أن تشعر بوجوده ودون أن تراه، وعندما هممت بالتحدث إليها، دوى صوته الحازم في عقلي مقتضبًا ثقيلاً دون أن يصل إلى أذنيّ :

– لا تلفت الانتباه.

سرى في جسدي تيار كهربي من الرعب، جعل كل جسدي يرتجف، حتى أن الممرضة تساءلت متعجبة وهي تقرأ مؤشر ميزان الحرارة، الذي يخبرها بكون حرارتي في المعدل الطبيعي :

– هل أحضر لك بطانية إضافية ؟!

شكرتها بصوت خافت واهن لا أعرف إن كانت سمعته أم لا، وعيوني مثبتة على وجه ذلك الشخص المخيف الذي لا يراه سواي، فجمعت أشياءها ورحلت عن الغرفة وأغلقت الباب خلفها.

وما أن غادرت الغرفة حتى انتفضت من رقدتي وكأنما لسعني عقرب سام، وأخذت بيدي أستكشف كل أجزاء جسدي لأتأكد من حقيقة استيقاظي، وأن الأمر لا يعدو مجرد حلم آخر، أو طريقة جديدة للتعذيب في ذلك الجحيم الجهنمي.

قرصت نفسي عدة مرات فشعرت بالألم..

إنني يقظ بالفعل.. يقظ إلى درجة أني أرى مخلوقًا شفافًا بارد الملامح لا يراه غيري.. بل وأسمع صوته يتردد بداخل عقلي.

يقظ لدرجة استيعابي أن وجوده لن يعني إلا المزيد والمزيد من الألم.

وكأنما قرأ ذلك الشخص ما يدور في عقلي فقال بنفس الصوت العقلي الكئيب الذي حفّز روحي كي تغادر جسدي :

– لن يراني أحد غيرك.. تمالك نفسك فبيننا حديث طويل.. ولابد أن تكون بكامل تركيزك لتسمعه.

ثم أدار كامل وجهه في المكان وعيناه المتقلبتان ثابتتان كماستين معلقتين في تجويف وجهه واستطرد بصوته العقلي الكئيب، والذي لم يصل لأذنيّ :

– وهذا المكان لن يصلح لإتمام الحوار.

ثم نهض كتمثال معدني ينفض عن عاتقيه غبار القرون، وتحرك نحو الحائط.. فبدا وكأن الحائط هو من يقترب منه، وقال كلمة واحدة جمدت الدماء في عروقي :

– اتبعني.

وكأنما جسدي يمتلك إرادة ذاتية خاصة به، وجدت نفسي أزيح الغطاء وأخلع كل الإبر والخراطيم التي تصب سوائل الحياة في جسدي، ثم أتبعه بخطوات واهنة ثابتة نحو الحائط الذي اخترقه ببساطة وتبعه جسدي وأنا أتابع ما يحدث معي بذهول وكأنه يحدث لشخص آخر.

****

كان الانتقال سلسًا ومريحًا، فقط أغشى الضياء عيني للحظات قليلة، وعندما صفت الرؤيا كان ما رأيته مدهشًا.. لم يصطدم جسدي بالجدار الصلب، ولم أعبر خلاله إلى الممر المجاور للغرفة كما توقعت، بل عبرت من خلاله إلى عالم مذهل من الضياء والكائنات، وكأن الجدار صورة وهمية لبوابة تقود عبر الأبعاد.

المكان كله عبارة عن فضاء هائل زجاجي تتماوج فيه كائنات نورانية شفافة تتحرك في انسيابية عجيبة، منهمكة في أداء أشياء لا أدري كنهها بنفس حماس النحل الشغّال في الخلية.

لم يستوعب عقلي ما يراه للمرة الأولى، وتقلصت حدقتاي من تدفقات الضياء التي توحي بعمل عظيم يُنجز لا أحيط به ولا أدركه، الأمر كله عجيب كأنني بقلب عالم رقمي ثلاثي الأبعاد مخلوقاته من مادة جيلاتينية حية ومتألقة تسبح في فضائها الخاص.. ومن خلال هذا العالم أشاهد العالم

الطبيعي الذي غادرته منذ لحظات، وكأنه صورة منعكسة على سطح بحيرة، وكأني بداخل فقاعة زجاجية بقلب الماء.

عقلي المنهك لم يستوعب ما يحدث ولكنه لم يتوقف عنده، فقط عيناي الفضوليتان كانتا تتطلعان لما يدور حولهما بذهول وانبهار.

– لأين يأخذني هذا الغريب ؟!

تقدمني ذلك الشخص المخيف والذي تبدلت هيئته على الفور ليصبح جيلاتنيًا مثل باقي المخلوقات المتواجدة في فضاء المكان، وتبعته وأنا أتابع بفضول تلك الهالة البنفسجية المتألقة التي أحاطت بجسدي كشمس متألقة، والتي ذكرتني بهالات كيرليان التي تحيط بالأجساد ويمكن رصدها بسهولة عن طريق أجهزة خاصة، وعن طريقها يمكن تحديد حالة الشخص النفسية حسب شكلها ولونها. وإن كنت أعتقد أن هذه الهالة تختلف وأنها نوع ما من وسائل الحماية، رداء من نوع خاص، يمكنني من الولوج لهذا العالم الغريب دون أن أصاب بالأذى.

نوع ما من أردية الفضاء.. يحمي جسدي من التغيرات الكثيرة التي تحيط به في ذلك العالم الجديد.

أخترق ذلك الشخص الغريب المكان دون أن يلتفت لي، و بخطوات طائر صغير يتعلم أولى حركات الطيران عبرت فضاء المكان.

ثم حدث العبور الحقيقي.

- الذين لا اسم لهم -

يقولون إن أشد ملوك الجن طرًا، هو ملك الجن الذي يسكن أرض المغرب، هو وقبيله لا حد لقوتهم أو جبروتهم.. لذلك ينتشر هناك السحرة كملح الأرض، ويمارسون كل فنون السحر دون مواربة.. فمنهم من يمارس السحر الأسود والكابالا، ومنهم من يمارس السحر الأبيض، ومنهم من يمارس الفنون المحرمة والآلاف يعملون في مهن مختلفة تخدم هذا الحقل.

إن المغرب هي أرض السحر في عصرنا هذا، والمغاربة أنفسهم يؤمنون بالجن لدرجة الهلع، فيطلقون عليهم لقب (هدوك) أي الذين لا اسم لهم. وبالنسبة لهم، فالجن كائنات تستوطن عوالم الخفاء الممتدة في كل مكان من حولنا..و هم غير مرئيين بعيون البشر في الأحوال العادية لكن مع ذلك يمكن رؤيتهم – حسب المعتقد العامي – ليلاً خلال الفترة المتراوحة بين الساعة الحادية عشرة ليلاً والواحدة صباحًا عدا ليلة الجمعة التي هي لحظات ابتهاج عام يستغلها الجن للتسكع في عالمنا حتى صباح السبت.

ومن أجل حلولهم في عالمنا المرئي يضطر الجان إلى تقمص أشكال الحيوانات والحشرات فيتجسدون على شكل حمار، كلب، قط، صرصور، فأر ولذلك يحاذر المغاربة أن يقتلوا أو يلحقوا الأذى ليلاً بأي حيوان أو حشرة خصوصًا إذا كان كلبًا أو قطًا أسود.

فللجن هناك مكانة عظمى، والتعامل معهم حدث شائع وهناك مئات التحقيقات الصحفية عنهم وعن العاملين معهم على الشبكة العنكبوتية لمن يريد مطالعتها، ومنها بعض المعلومات المذكورة هنا.

تعتبر عشيرة الفقها في المغرب هم أباطرة هذا العالم، فهم يصرفون ملوك الجان لخدمتهم، ويأسرون القلوب ويسكنون الأجساد ويعلنون حروبًا مفتوحة جنودها "خدام الخواتيم".

منهم فقها يطيرون، وفقها يختفون في رمش العين، وتتنوع جنسياتهم، فمنهم حاخامات يهود، إسبان ويونانيون، أفارقة وخليجيون، وهم يسيطرون على العوالم السفلية، في البيضاء والرباط ومراكش والصويرة..

الفرق بينهم وبين "الشوافات" و"الفقها" العاديين، أن هؤلاء يملكون مفاتيح أخطر باب يفصل بين مملكتي الإنس والجان :

السحر الأسود.

أعمالهم تتجاوز قراءة الطالع واستطلاع الفال، إلى القيام بأعمال خارقة لا يصدقها عقل.

أعمال السحر التي يقوم بها هؤلاء "الفقها" تبدأ من "المحبة" وهي "الخدمة" التي يُرجى من ورائها جلب الحبيب وإثارته رغمًا عنه، وهذا النوع من السحر الأسود يشمل كذلك حل المشاكل العاطفية بين الأزواج من

خلال ما يعرف بـ"التهييج" وهو عمل يقوم على أساس تقريب المسافة بين الزوجين، لدرجة يستحيل معها أن ينظر أحدهما إلى غير الآخر.

قائمة "الخدمة" التي يشملها هذا النوع من السحر الأسود تشمل أيضًا معالجة الأمراض الجنسية والعقم إلى جانب طرد الجن المتلبس بأجساد الضحايا من الرجال والنساء كما يمكن لـ"الفقيه" أن يصرف قدراته الخاصة من أجل إنزال عقاب بشخص أو أسرة، وهو ما يتم عن طريق "التقاف" الذي يستهدف التعجيز الجنسي، أو "التراجيم"، وهو حينما يسخر الساحر الجني الذي يكون "خديما" عنده لرجم بيت بالحجارة المتقدة والنيران.

ولسحر الفودو نصيب كبير هناك أيضًا، يعتمد سحرة "الفودو" على الدمى لاعتقادهم بقدرتها على التأثير في الشخص الذي يرغب الزبون في سحره عن طريقها. يبدأ الأمر بإحداث المقصود بعمل السحر كما يعتقدون، ثم يبدأ الساحر في وخز مكان القلب بإبرة حادة ما يؤدي إلى إحداث آلام فظيعة للشخص المسحور على الفور.

وفي المغرب تقام أغرب محاكمة في التاريخ، أبطالها ملوك الجن وخاصة ملك الجن شمهورش، حيث يعتقد البعض بجدوى الاحتكام إلى الجن لحل ما يعانون منه من مشكلات، وفي المغرب يوجد في عمق جبال أطلس مقام لملك من ملوك الجن يتوافد عليه من ينشدون سماع حكمه.. وهو ضريح "سيدي شمهروش"، ويقول الحاج أحمد، أحد القيّمين على الضريح في

أحد تصريحاته لإحدى الصحف : نحن نتبرك بهذا المقام لأنه مقدس، وهنا توجد أكبر محكمة للجن".

أناس كثر يتحلقون حول المكان، جلهم نساء، منهم من افترش الأرض ومنهم من جلس إلى طاولات مهترئة بالمقهى الوحيد بالمكان، وبين الفينة والأخرى تطلق الغربان التي تحوم بالمكان أصواتًا تنقبض لها الأوصال. وكأن الأمر ينقصها هي الأخرى.

يعتقد زائرو المقام أن "سيدي شمهروش" وهو ملك ملوك الجن بحسب الموروث الشعبي المغربي، يقوم بنفسه بالبت في القضايا العالقة بين الإنس والجن. ويضيف الحاج أحمد: "سيدي شمهروش جن حي وليس بالميت، وكما أن هناك محكمة للإنس، فهناك محكمة للجن".

أرى عيونكم تستنكر هذا الإقحام للمغرب وجنها وشياطينها في الأحداث، ولكني أعرف أنكم ستشكرونني في وقت لاحق على هذه المقدمة الطويلة نسبيًا، لأن هذا المكان الذي أخبرتكم قصته هو المكان الذي وجدت نفسي فيه في وقت لاحق.. بعد أن عبرت خلف ذلك الشخص الغريب الذي لم أعرف بعد قصته.

القمر غائب والظلام دامس والضريح يبدو كنذير سوء، وأمامي عاد ذلك الشخص الغريب إلى هيئته الأولى الباردة الشفافة.

نعيب الغربان لا ينقطع، والغربان في القصص المماثلة تجسيد للشياطين.

السؤال هنا : لماذا هذا المكان ؟!

من يهتم بتاريخ الجن والسحر سيجد المغاربة غارقين في ذلك العالم المخيف حتى الأذنين، الدولة تحارب الأمر والشرطة لا يمر يوم دون أن تقوم بالقبض على العديد من السحرة النصابين، هؤلاء السحرة هم الإفراز الطبيعي لسيطرة تلك الخرافات على عقول الناس هناك، لن نقول البسطاء، لأن المتعلمين والصفوة يلجئون إليهم أيضًا، فقط النصابين والمبتدئين يسقطون في يد الشرطة، أما الكبار فهم بمعزل عن كل هذا العبث، لهم مكانتهم وسطوتهم.

والصفوة من الكبار الملمين بتاريخ المكان يعرفون أن هناك سرًا قديمًا رهيبًا، يختبئ في عمق جبال أطلس، سرًا لم يعد هناك من يتحدث عنه.

من يعلمون عن هذا السر لا يتعدّون أصابع اليد الواحدة.. والمعرفة لا تتعدى الصدور.. ولن تتعداها.

تجسدنا نفسه لم يكن طبيعيًا، لقد تجسدت أنا وذلك الغريب في مستوى غير أرضي.. يمكن أن نسميه بُعد آخر ومن الممكن أن نطلق عليه لفظ الممر.

لحظات من عدم الفهم لاحقتني، وفي لحظة ما لم أكن أدري أي شيء عن المكان، وفي اللحظة التالية أصبحت أعرف كل شيء، ليس كل شيء ولكن التاريخ الذي يعرفه العامة والدارسين.

نحن الآن بأعماق سلسلة جبال أطلس الهائلة، التي تمتد من المغرب إلى الجزائر ثم إلى تونس وتنتهي منحدرة نحو المحيط الأطلسي.

يعزي البعض تسميتها أطلس كما في الميثولوجيا الإغريقية إلى أحد الآلهة الوثنية أطلس والذي يحمل قبة السماء على عاتقيه كعقاب أبدي من سادة الأوليمب. ولكن بعيدًا عن هذا الجو الوثني يشير أيضًا أحد الباحثين المهتمين بالميثولوجيا الأمازيغية "حفيظ خضيري" أن كلمة أطلس كلمة محضة ذات علاقة مع الظواهر الطبيعية وهي كلمة مركبة بالنطق الأمازيغي "**antel+as**" أي مقبرة الشمس، وقديمًا كان البشر يعبدون الشمس ويعتقدون أنها تعود إلى المغرب كموطن يدعى مملكة الموت أو أرض الله.

ويذهب الدكتور "أحمد الهاشمي" أستاذ الطوبونيميا بجامعة ابن زهر بالمغرب إلى احتمال أن يكون أطلس أصله "أدلاس" الذي يجمع في صورة "تيدلاس" التي تنجز في صورة "تيلاّس" أي الظلمات، وذلك بالمماثلة الصوتية بين الدال واللام وإدغامهما؛ فيكون معنى صيغة "أدلاس" المظلم، وهذا ما يفسر تسمية الجغرافيين العرب القدماء المحيط الأطلسي ببحر الظلمات.

"توقف عن صب المعلومات في رأسي توقف، من أنت وماذا تريد مني؟".

خرجت هذه العبارة من بين شفتي بصعوبة، بعد أن شعرت أن عقلي سينصهر، إن ما يحدث لي كثير جدًا، لا يمكن أن أخرج من جحيم إلى آخر دون أن أعترض، ثم ما شأني أنا بجبال أطلس وجنها وشياطينها وسرها المظلم.

تردد الصوت المقبض في عقلي :

– إن المعرفة حمل ثقيل ولابد من تهيئتك قبل أن تخوض في بحارها المتلاطمة، من يعرف ليس كمن عرف.

قاطعته صارخًا :

– اقتلني إذن كان هذا غرضك في النهاية.. اقتلني ودعني أستريح.. لا أريد أن أعرف أي شيء.. لا أريد.

عاد الصوت أكثر تجهمًا ليصدم حواسي :

– كل شيء بدأ من هنا.. وكل شيء يجب أن ينتهي هنا.

هطلت دموعي على وجهي كالمطر وقلت :

– اقتلني إذن.. عجل بنهايتي.. أو أطلق سراحي وامنحني الحياة.

الصوت الكئيب يجلد روحي :

- من قال أننا من سنمنحك الحياة.. أنت المختار.. أنت من سيمنح الحياة للجميع.. أنت من سيعيد التوازن.. لقد اختارتك الأقدار.. لتمنع الظلام من أن يبعث من جديد.

الآن أصبح عقلي كالهلام، كل حديث الغريب لا يصفوا على معلومة واحدة مفهومه، كلامه يبدو كنبوءات العرافين، يحاول أن يمنحني مكانة ليست لي، يحاول أن يقنعني بكوني المنقذ لا الضحية، الغيوم كثيفة، وعقلي يذوب والشخص الغريب لا تعبر ملامحه الباردة عن شيء.

أعتقد أن قلبي سيتوقف.

وسينتهي كل شيء الآن.

سأنهيه بيدي.

ولكن فقط فليحط الظلام بي لأمتزج بليله المدلهم.

****

- توقف أيها الأحمق.. توقف..

الصوت يصفع عقلي.. صاعقة مؤلمة تجتاح جسدي.. وجه الشخص الغريب يتبدل إلى وجه كائن نوراني شديد البهاء ولكن قسماته تعبر عن غضب عاتٍ.

– توقف أيها الأحمق توقف.. أنت هنا في عرين ملك الجن.. وهنا تتحقق الأمنيات السيئة.. اطلب الحياة.. لا تطلب الموت.

عقلي كصندوق مغلق، لا أفهم ما يحدث من حولي ولكني أنصت لصوت الغريب، لا أعرف ما أريد.. فأستجيب لما يريد.

– الحياة.. الحياة.. الحياة..

صاعقة مؤلمة أخرى.. ثم عاد لي وعيي.. وشعرت بفزع ثم بغضب عاتٍ من نفسي.. كيف استسلمت لذلك الجانب المظلم من روحي.. كيف استسلمت لنداء الموت.. كيف توحدت مع الظلام.

الصوت المقبض من جديد :

– الآن أنصت جيدًا لتعرف ما يدور حولك، الآن أنصت جيدًا.. فالمعرفة نصف النصر.. سآخذك معي في رحلة عبر التاريخ والزمن، والشيء الوحيد الذي أطلبه منك ألا تقاطع.

قاطعته هذه المرة وأنا أنوي أن تكون الأخيرة، لذلك لم يغضب :

– ما هذا المكان ؟!

دوى صوته الثقيل في عقلي :

– هذا المكان هو كهف الأمنيات، أنصت جيدًا، ولن أبخل عليك بالمعرفة.. ففي قلب هذا الكهف ولد الظلام والشر..

- كهف الأمنيات -

وضع الشخص الغريب يده على رأسي فشعرت بملمسها البارد للحظات، قبل أن ترتفع درجة حرارتها لدرجة غير محتملة فهززت رأسي، عندما لم أشعر براحة، فدوى صوت الغريب في رأسي دون أن يمر بأذنيّ كالعادة :

– لا تقاوم ودعني أريك كل شيء.

لم أكن أنوي المقاومة، أو القيام بأي رد فعل، وكدليل على استسلامي، أغمضت عينيّ، وتركت جسدي ليسترخي، فانخفضت درجة حرارة قبضته، وفي اللحظة التالية كنت هناك.. في اللحظات الأولى لميلاد الظلام.

الآن أنا والغريب طيفان يسبحان في فضاء الكون المدلهم الخالي من النجوم..

ألم تولد النجوم بعد ؟ أم أنها تخجل من الإعلان عن نفسها كي لا تبدد جلال المشهد ؟!

نقترب حثيثًا من تلك الكرة الزرقاء المتألقة المسماة الأرض، والمعلقة في قلب الفضاء السرمدي.كماسة هائلة تحتضن القمر.

أشعر بدرجة هائلة من التحرر، الكون كله يضمني بذراعيه. بل أنا الكون الذي يحتضن كل الأشياء.

أين الطريق إلى السماء ؟!

عيناي تمسحان كل شيء كرادار هائل، ولكنهما تظلان معلقتان بتلك الكرة الساحرة التي تزداد في الحجم والتألق في كل لحظة.

من هذا المكان لن تعرف اتجاه السماء الأولى التي تفصلنا عنها مسيرة خمسمائة عام كما ذُكر في الكتب الدينية..

فهنا لن تعرف الاتجاهات الصحيحة.. لن تعرف أين يوجد الأعلى وأين يوجد الأسفل، فالظلام دامس لا يجرحه إلا بريق كرتنا الأرضية.

المشهد مبهر، وكلما اقتربنا من الأرض أكثر كلما تبدل المشهد وأصبحت الأحزمة الضوئية أكثر وضوحًا.

عيناي منبهرتان وكأننا نتحدث عن زحل بحلقاته المتألقة.

كوكب الأرض يظهر أمام عينيّ في صورة لم أعهده عليها من قبل حتى في أشد صور ناسا وضوحًا، وكأنه منشور زجاجي يقسم الضوء من حوله إلى سبعة ألوان.

كل لون يعبر عن عالم كامل بكافة ما به من مخلوقاته وكائنات.

هذا سر جديد يفصح لي الكون عنه.. يهمس به في أذني.. يداعب به معتقداتي وأحلامي.

لا يوجد سبعة كواكب كالأرض.. ولكن توجد سبعة أراضي، تحتل نفس الموقع والمكان ولكن في أبعاد ذات ذبذبات مختلفة.

صوت علوي يهمس.

لست وحدك أيها الكائن المغرور من يقطن هذا الكون، هناك مخلوقات أخرى تحيا بجوارك، لصيقة بك، ولكن رحمة الخالق هي ما تجعل بينها وبينك حجاب، لأنك أقل قوة مما يصوره لك غرورك.

السموات سبع والأرض مثلهن.. الأساطير تحدثت عن الأراضي السبع، والكتب السماوية ذكرتهن صراحة، حكايات الشعوب والأساطير لم تخلو منهن. وأنا الآن أراهم وأوقن بوجودهم..

لقد عرفت جزءًا من السر.. دائمًا ما يبحث الإنسان في اتجاه خاطئ.

صوت الشخص الغريب يتردد هذه المرة بداخل عقلي ولكن دون أن أشعر بأي مشاعر مقبضه.. إنه حيادي تمامًا هذه المرة :

صمت للحظات ثم عاد واستطرد :

– في هذا الزمن الذي لم ترصده كتب التاريخ، وفي تلك الفترة التي سبقت ظهور البشر أغرقت الدماء الأرض، كل الدلائل تشير إلى حرب رهيبة سُفك فيها من الدماء ما يكفي لصنع محيط آخر بجانب المحيط العملاق، الذي تسبح بداخله القارة الوحيدة التي تشكل اليابسة على كوكب الأرض.

قبائل الجن المقاتلة منهمكة في حربها الضروس، من أجل إثبات قوتها، وفرض سيطرتها على عالم الجن بالكامل.. حرب رهيبة يستخدمون فيها كل

أنواع الأسلحة من سيوف ورماح ومنجنيق كأسلحة عادية، والأسلحة التي تعتمد على السحر من تسخيرهم للرعد والبرق والرياح، وسيطرتهم على الحشرات والحيوانات والطيور، حرب جهنمية لا رحمة فيها ولا هوادة.

اشتركت في الحرب كل قبائل الجن، سواء من يعيش على البر أو في البحر أو من يطيرون.

استمرت الحرب لفترة طويلة من الزمن، غرقت فيها الأرض بالدماء، ومع الوقت مالت كفة أحد الملوك على الآخر، وهنا بدأ الأمر يأخذ منحىً مخيفًا.

أحد المردة وهو في نفس الوقت ملك جيش الجن الأحمر المتفسخ، شعر ببوادر الهزيمة بعد مقتل قائد جيوشه وفناء ميمنته، فقرر أن يكسر العهد، وأن ينتزع النصر من بين فكي الهزيمة، فلا عهد في الحروب.

اجتمع هو وكهنته وسحرة مملكته وقرروا إما النصر أو يهدموا المعبد على رؤوس الجميع.. واتخذوا القرار الرهيب.. وقرروا فتح الفجوة التي ستمنحهم السلاح الخارق الذي سيستطيعون عبره.. إنهاء الحرب وإعلان نصرهم..

الدماء بالخارج تصبغ كل شيء، حتى أن النهر القريب تحولت مياهه للون الأحمر القاني.. وبالداخل يقوم الجنود بذبح ألف أسير لإتمام التعويذة.. و..

لم أستطع المقاومة فقاطعت تدفق الأفكار متسائلاً :

– ينزفون.. الجن ينزفون.. أليسوا مخلوقات نارية.

الغريب مستاء بقطع حديثه ولكنه يجيب عليها :

– نعم ينزفون.. أنت خُلقت من الطين.. وتنزف.. ليست العبرة في المادة الأوّلية.. العبرة بالشكل النهائي.. الجن يأكلون ويشربون ويخرجون، ربما يختلف طعامهم عن طعامكم ولكنهم يأكلون مثلكم، و تسري الدماء في عروقهم وأجسادهم الأكثر مرونة وشفافية، أنت فقط تنكر لأنك لم تُحط بالأمر علمًا. كل المهتمين بهذه الأمور في عالمك يدركون هذه الحقائق.. أنصت ولا تقاطعني حتى أنتهي وسأجيب عن أسألتك دفعة واحدة .

حاولت أن أستوعب هذه المعلومة الجديدة، واستعدت من ذاكرتي صورة جني المصباح وجني الخاتم وجني الزجاجة وجني القمقم، لا يمكن أن يكون لهؤلاء المردة عروقًا تسيل فيها الدماء.

نفضت الفكرة عن رأسي ثم تابعت.

– يدرك ملك الجن الأحمر أن هزيمته أمام غريمه لن تعني مجرد الاستسلام والعيش في الذل كعبد بعد أن كان ملكًا، إن للملوك معاملة خاصة الموت بجوارها نعيم دائم.

وهو لا يمكن أن يسمح بأن يُسجن في كهف الأمنيات.

الزمن لا يتحرك هناك.

عذاب أبدي غير محتمل.

كما أن نفسه لا تصور له الهزيمة.. ربما كان جنوده ضعفاء.. ولكنه ليس كذلك.. إنه الملك..

الغرور الممتزج بالخوف أقنعه أنه يستطيع أن يسيطر على هذه المخلوقات القاتلة بعلومه وسحره، ولكن بعض الكهنة شككوا في الأمر.. إن قصة مدينة الجن التي فنت في يوم وليلة على يد هذه المخلوقات المتوحشة لازالت ماثلة أمام أعينهم..

ولكنه لم يكن ليسمح بفتح باب النقاش في مثل هذا الوقت الحرج..

لقد اعتبر نقاش الكهنة خيانة عظمى.. وها هو رمادهم الملتهب يدل على أنهم نالوا ما يستحقون.

وها هو يقف كجبل عملاق في قلب المعبد.. عيناه الحمراوتان تتألقان ببريق مخيف.. والدماء الغاضبة تغلي في عروقه.. فبرغم الهزيمة التي تلوح في الأفق.. إلا أنه قادر على هزيمة الجميع..

تطلع الملك حوله في جذل. إن كل الأمور تسير كما هو مخطط لها، إنه قادر على فعلها، ومن عينيه انتقل شعور مخيف إلى أجساد الكهنة

والسحرة.. فأخذوا يرتجفون وهم يتابعون، مئات الجنود وهم منهمكون في سفك دماء الأسرى من الجن الأزرق.

الدماء المتدفقة أخذت تسير عبر مجارٍ خاصة صنعها كبير السحرة بأن لامس بطن الأرض بطرف عصاه حتى انتهت إلى المذبح، لتصب بقلب إناء صخري هائل الحجم.

وعندما انتهوا من تصفية دماء آخر الأسرى، بدؤوا المرحلة الثانية.

فالتعويذة تحتاج لوقت محدد كي تستطع الكلمات أن تأتي بمفعولها، ولكن الوقت ليس ملكهم، فلابد لهم من هزيمته..

وما لا يصلح بالسحر، يصلح بالعلم.. العلم سيختصر الزمن.. والوسيلة متوفرة ولكنها خطرة.

وبرغم أن استخدام تلك الوسيلة مجازفة وقد تتسبب في مقتل الجميع، إلا أن سيوف الجنود المسلطة على أعناق الكهنة، جعلتهم يبدءون على الفور.

ساعة الوقت الرملية تلتهم الدقائق والساعات والأيام. وتلتهم من أعمارهم سنوات ثمينة.

ثلاثة عشر شمسًا ولدت ثم ماتت في دقائق معدودة، وعشر سنوات كاملة فقدها كل من حضر التجربة.. ولكن الملك مازال شابًا ولن يهتم بهذه الفترة البسيطة التي سيفقدها من عمره.. المهم أن يتحقق له النصر.

إنه مازال مقتنعًا أنه قادر على فعلها.. أو هكذا هيأ له غروره.

..وفي النهاية تحقق الأمر.

وخرجت تلك المخلوقات المتوحشة من عالمها المغلق، وزادتها الشمس المباشرة قوة وشراسة.

وحدثت المجزرة..

وبادت الآلاف من قبائل الجن والنباتات والحيوانات، ومخلوقات الماء والبر والجو.

الجحيم فتح إحدى بواباته على الأرض..

وكان أول من التهمه هو الملك وجنوده وكهنته وسحرته.

وتوقفت الحرب..

وكنا نحن من بُعدنا المتطرف نتابع ما يحدث..

الجن سيُهزم لا محالة.. لقد فتحوا بوابة الجحيم وعبر عبرها ألف مخلوق، قضى منهم في الحروب مائة وتبقى منهم السواد الأعظم، ثم بدءوا في السيطرة على ملوك الجن بأن احتلوا أجسادهم.

سيطروا عليهم جميعًا إلا ملك الأرض الوسطى، أقواهم والذي استطاع أن يوقف زحفهم، وإن لم يهزمهم.

وقررنا نحن مساعدته.

ولكي يهزم تلك المخلوقات الشيطانية التي أثارت الفزع في قلوب الجن.. كان لابد من الخديعة، ولابد من جرهم إلى كهف الأمنيات، تلك اللعنة التي تركها خلفه ملك الظلام كما كانوا يطلقون عليه، وهو أحد أقوى الملوك في تاريخ الجن والذي بلغ من القوة شأنًا رهيبًا جعل كل القبائل تنظر له على كونه نصف إله.. بل إن بعضهم توجهوا له بالعبادة بالفعل..

هذا الملك لم يهزمه أي شيء على وجه الكون، ولم يردعه مكان أو مسافة، ولكن هزمه الزمن.

وقبل أن يموت قرر أن يصنع جحيمه الخاص على سطح الأرض، فصنع كهف الأمنيات، وعن طريق السحر الأسود استطاع أن يرغم الجميع على دخوله، وهناك يختار كل منهم وسيلة لموته وساعة محددة يحققها الكهف.

لقد قرر أنه عندما يموت.. سيموت معه نسل الجن بالكامل من كافة أنواعه وقبائله..

ولكن قبل أن يموت يجب أن يعاقبهم لأنهم خذلوه ولم يمنحوه الخلود والأبدية..

ما لم يعرفه الساحر أن التعويذة تُكسر بموته..

لذلك مات الآلاف قبل أن تُكسر اللعنة، ومن نجوا من هذا الفخ الشيطاني، قرروا أن يصبح هذا الكهف وسيلة جهنمية للعقاب.

فأنت بداخله تتعذب حتى تختار ساعة موتك، وتظل تتابع الدقائق التي تتسرب من بين يديك ثم تموت بوسيلة بشعة يختارها لك الكهف.
الآن أصبح الكهف هو الأمل.
كهف الأمنيات التي لا تتحقق.

****

بعلومنا استطعنا أن نعاون الجن على الإيقاع بهذه المخلوقات الشيطانية، واستطعنا أن نسجنهم في أعماق الكهف.. ولكن لأسباب لا نعرفها ظلوا جميعًا هناك.. في حالة عجيبة لم يعرفها الكهف من قبل.

لا أمواتًا ولا أحياءً.

حتى الزمن توقف بالنسبة لهم..

فقط هم هناك ينتظرون اللحظة التي يتحررون منها.. لينتقموا.

ما تلى ذلك هو سر كوني عظيم لا أستطيع أن أخبرك به، ولكن بقت نقطة أخيرة يجب أن تعرفها لتكتمل عندك الصورة. وهي إجابة السؤال الذي يحيرك منذ البداية.. ما علاقتك بكل هذه الأمور ؟!

– إن نسل جدك يعود لآلاف السنين.. يعود لنسل ساحر عظيم الشأن اختفى دون أثر في عصره بعد أن هيأ لمن بعده علمًا عظيمًا استطاعوا بواسطته أن يكملوا مسيرته..

فكل سبعة أجيال يظهر في نسلكم ساحر، وجدك كان السابع لأب فقد ستة من أبنائه، لذلك نال ذلك الشرف، ولكن للأسف استطاع أن يصل بعلمه إلى تلك التعويذة التي تمكنه من استعباد الجن وذلك عن طريق تلك المخلوقات الشيطانية التي كادت تُفني الجن في العصور الغابرة.

فالمعتاد أن الجن يقيم معاهدة مع الساحر، هذه المعاهدة تضمن للساحر أن يطيعه الجني أو الشيطان الذي سيطر عليه في بعض الأمور دون الأخرى، لأن طبيعة الجن والأرواح الشريرة هي الكذب وهذا النوع من السيطرة لم يكن ليشبع رغبات جدك.

وعندما استعان بصديقه الشيخ تهامي وقاموا باستحضار أحد أشر مردة الجن، كانا يريدان السيطرة الكاملة، فعاقبا الجني بالكي بالحديد والنار والرصاص المصهور، فأضمر لهم هذا الجني الشر، ولأنه كان يريد الانتقام منهما ومن جنسهما، فباح لهما بسر هذه المخلوقات وطريقة الاستحضار، متوقعًا أن يجن الشيخ ياسين وصديقه أو يموتا كما حدث مع المئات من قبل فيتحرر من قبضتهما، ولكنهما للأسف نجحا في استحضار المخلوق الشيطاني، وقاما باستعباد تلك الشيطانة، التي منحتهما القوة والقدرة على الانتقال فجاب الشيخ ياسين العالم كله، وترك في كل مكان زاره علامة لا تخطئها العين، ضريح يعتقد زائروه أن جسده بداخله، يؤمه المئات الذي آمنوا بقدراته طلبًا للبركة.

شيء واحد فقط كان يقض مضجع جدك وهو العدو الذي لم يهزم أبدًا، الزمن.

جاب جدك العالم ثلاث مرات، مسح قاع البحار والمحيطات، استكشف آلاف الكهوف، استخرج من باطن الأرض مئات من الكنوز، قتل كهنةً ورجال دين وعذب نساءً ورجالاً وأطفالاً، حتى وصل للتعويذة التي ستمنحه الخلود، ولكنه حصل عليها متأخرًا جدًا.

بعد أن هدم الزمن من صروح قوته الكثير، ولكن غروره هيأ له أنه سيستطيع أن ينهي الأمر، وبالفعل وبمساعدة صديقه استطاع أن يتم الأمر واستحضر مخلوقًا آخر.

مخلوقًا قديمًا..

مخلوقًا يعرف أنه ليس وحيدًا في هذا العالم، وأن هناك من جنسه المئات ينتظرون أن يفك أسرهم من قبضة كهف الأمنيات.

ومات جدك وترك هذا المخلوق خلفه ليعيث في الأرض فسادًا.

ورأي حكمائنا أننا لا يجب أن نترك الأمر ليتفاقم ويجب أن ينتهي قبل أن يبدأ لأن الأرض الآن تغص بالبشر والضحايا هذه المرة سيكونون بالمليارات، خاصة لو قررت هذه المخلوقات احتلال أجساد قادة الدول وقرروا أن يشعلوا حربًا نووية، ستحرق الكوكب وتفنيه في أبعاده السبعة.

لذا يجب القضاء على هذا المخلوق الشيطاني قبل أن يتفاقم الأمر، والجدير بالذكر أن هذا المخلوق الآن ليس حرًا تمامًا.. هناك شيء ما يكبله.. هناك خيط يربطه بك وبهذه الشيطانة التي استعبدها جدك من قبل والتي تريد التحرر.. أنتم أطراف المعادلة.. لو قضى عليكم، لامتلك حريته ولأطلق أقرانه الذين يحملون بداخلهم حقد القرون.. وساعتها لن تكون هناك قوة كافية في الكون لردعهم.

انصهر عقلي عدة مرات ومرات، وأعيد تشكيله ألف مرة مع هذا القدر المفزِع من المعلومات، وبداخلي تسلل يأس قاتل.. وعرفت أن النهاية قريبة جدًا.. وأن ما رأيته في جحيم تلك الشيطانة.. كان نزهة مقابل ما سأراه في الأيام المقبلة.

ـ لقاء فوق العادة ـ

انتهي الشخص الغريب من قصته، فسحب يده من فوق جبهتي، ومعها شعرت بأن روحي تُسحب وتُسحق للحظات قبل أن أستعيد توازني وإحساسي بكل شيء، مع شعور عارم بعدم الراحة يغتال كل لحظة ثقة شعرت بها في حياتي.

المعرفة نصف النصر ونصف الهزيمة أيضًا.. فكل المعلومات التي منحها لي الشخص الغريب أشعرتني بشيء واحد فقط.

الضياع.

لا يمكن أن تتحول مغامرة بعض المراهقين لكل هذا الهول. ما ذنبي أنا أن جدي ساحر زنيم يعقد معاهدات مع الشياطين ؟لا يمكن أن أكون قد اقترفت ذنبًا بهذه البشاعة ليكون كل ما يحدث هو عقابه !

– لا تستسلم لوهنك.. فأنت أقوى مما تعتقد في نفسك.

دوى صوت ذلك الغريب بداخل عقلي ولكني تجاهلته.. كنت أتمنى لو أني أملك من القوة ما يكفي لكي أكسر عنقه ليصمت إلى الأبد، ثم أبدأ الركض حتى أصل لنهاية العالم وأختبئ هناك.

– لا أحد يهرب من قدره.

صرخت في غضب :

- ولماذا أنا ؟!

الإجابة المستفزة :

- لأنك أنت.. هذا قدرك.

غلبتني الدموع فانطلقت أبكي، حتى جفت كل منابع الدمع في جسدي، وإلى أن هدأ روعي.

صمت ذلك الشخص الغريب جعلني أتأمل كل شيء من جديد.. حقًا الدموع نعمة أخرى لا نقدرها حقها.. إن تأثيرها كالسحر وربما لو لم تُخلق الدموع لانهار البشر من الضغوط ، التي لا وسيلة مثالية للتنفيس عنها إلا البكاء.

جففت وجهي من أثر الدموع ثم تطلعت حولي، مازلنا في الحالة الطيفية أو الشبحية بقلب جبال أطلس في المغرب، حيث يقبع كهف الأمنيات والذي يحتوي بداخله على قرابة ألف من الكائنات الشيطانية الحاقدة، التي يخشى السحرة مجرد ذكر وجودهم، وفي خلفية المشهد هناك شيطانة من الجن تطاردني، ويطاردنا جميعًا مخلوق شيطاني جهنمي، جبلت فطرته على الدمار والإيذاء، وبجواري مخلوق عجيب من بُعد آخر لا أعرف إن كان صادقًا في مساعدته لي، أم هو جزء من تلك المؤامرة الكونية التي تحاك من أجل فناء البشر.

الشيء الوحيد والمؤكد.. أنني خائف.. خائف إلى أقصى درجة.

ساد الصمت بيننا لدقائق معدودة قبل أن أقطعه متسائلاً :

- إذن ما هي الخطوة التالية ؟!

- الانتظار.

- الانتظار.. انتظار ماذا ؟!

- سماح.. أو من تعتقد أن اسمها كذلك.

- هل جننت.. إنها أحرص مخلوق في الكون على هلاكي !

- النوايا تتبدل من لحظة لأخرى !

- هل قررتم التضحية بي ؟!

- كف عن حماقاتك.. إنها قادمة وستخبرك بكل شيء.

رد الفعل التالي كان مفاجئًا حتى لي أنا شخصيًا، فما أن انتهى من جملته حتى انتفضت كليث غاضب وهاجمته في عنف.

المفاجأة التالية كانت لي.

فعندما هاجمت الشخص الغريب توقعت أن تنال منه قبضتي، إن جسده يبدو أقوى وأوفر صحة، ولكني على الأقل كنت سأصيبه ببعض الأذى.

المفاجأة التي تحدثت عنها، هي أن قبضتي قد طاشت لأنها لم تجد ما تصطدم به. ليس لأنه تحرك ولكن لأن قبضتي عبرت من خلال جسده.

إنه ليس هنا.

إنه صورة خادعة.

إنه..

– توقف عن حماقاتك.. إنك تفكر بعقل محدود.. ليست كل قوانين عالمك تنطبق على العوالم الأخرى.. دع عنك ضيق الأفق والغضب والهمجية.. فالساعات القادمة حاسمة.

لم تُهدئ كلماته من ثورتي وغضبي ولم تمنحني السلوى.. إنني أشعر بكوني وحيدًا في مقابل كل شرور العالم، حتى إني لا أستطيع أن أمنح أي شخص الأمان.

إن الأمر يتجاوز كل قدراتي.

– لابد أن تبدأ في بناء جسور الثقة بيننا.. لو أردت إيذاءك لكان من اللحظة الأولى وأنت واقع بين براثن الغيبوبة..

قالها ثم اقترب مني بهدوء لتلامس كفه رأسي قبل أن يستطرد :

– الخوف ليس شيئًا تخجل منه.. فلكل منا مخاوفه.. يجب أن تؤمن بنفسك أولاً.. كي تؤمن بالآخرين.. الخطر المحدق بنا جميعًا يُلزمنا بأن

نحكم العقل.. إنني هنا لمساعدتك.. هيئتي هذه هيئة مصطنعة لأنك لن تتحمل أن ترى هيئتي الحقيقية، كما أن وجودنا هنا في هذه المنطقة من جبال أطلس ليس بشكل عشوائي، إننا في نقطة كونية محايدة، هذه النقطة تسمح لي ولك ولسماح باللقاء دون وجود أخطار.. كل منا يحتل بعدًا خاصًا.. كل منا لا يستطيع إيذاء الآخرين.. أنت أيضًا لست هنا بجسدك.. ولكن عقلك المحدود لا يمكن أن يستوعب الأمر.

إننا جميعًا هنا ولسنا هنا ولكن العلم هو من يحكم المسألة وليس السحر.. فدع عنك انفعالاتك.. وتقبل الأمر.. نحن نريد مساعدتك.. لأننا بهذه الطريقة سنساعد أنفسنا.

لا أعتقد أن حديثه هو ما ألقى السكينة في روحي.. إنها لمسته..

ولكن كيف أشعر بلمستك وأنت غير موجود ؟!

– أنا أخاطب عقلك بعلم متقدم عندي.. فدع عنك قناعاتك واستعد.. فسماح ستصل بين لحظة وأخرى.

أعرف جيدًا هذا الأسلوب، لقد قرأت كتبًا كثيرة وروايات أكثر، إنه يستخدم اسم سماح ليجعل الأمر أكثر تقبلاً وحميمية.. إنه واهم.

إن اسم سماح لن يجعلني أكثر هدوءًا.. فهذه الملعونة هي من بدأت الأمر وهي من جعلتني أفقد أحد أصابعي.

نظرت ليدي فوجدت أصابعي مكتملة.. يبدو بالفعل أن كلام الشخص الغريب حقيقي و..

قطع استغراقي ذلك الصوت الذي كرهته والذي لا يختلف عن نعيب البوم والغربان :

- هل كنت تبحث عن هذا ؟!

وفي اللحظة التالية وجدت إصبعي المبتور في يدي فصرخت في غضب وعندما هممت بالانقضاض عليها دوى صوت الشخص الغريب في حسم :

- توقفا عن العبث.

وفي الدقائق التالية دار أغرب حديث في الكون.

****

فجأة، غمرت السكينة روحي، وتلاشت وحشتي، وشعرت بتغير هائل في كياني، لم يعد هناك غضب، لم يعد هناك نزق.. هناك قناة اتصال فائقة تنشأ بيننا، هناك دفقات من الدفء تلامس أرواحنا.. لقد توحدنا.

لا أعرف كيف أفسر الأمر حقًا، ولكن كل الضغائن اختفت بمجرد أن بدأ الاتصال، وكأن عقولنا توحدت وخلايانا اندمجت فصرنا كيانًا واحدًا.

شعور واحد فقط ظل مسيطرًا عليّ لفترة رهيبة.

الانبهار.

ما أروع هذا الاتصال.

الحقيقة أن ما دار خلال الساعة التالية كان مدهشًا، فتخيل معي الموقف بالكامل.

ثلاثة مخلوقات من عوالم مختلفة يجتمعون بالقرب من فخ كوني رهيب يتباحثون في الوسيلة التي عن طريقها سينقذون العالم وأنفسهم.

الشيطانة لم تكن كتلة من الشر الخالص.. بل هي كائن حي.. يحيا ويتنفس ويتبادل المشاعر.

اللعنة على ثقافة الاختلاف.. كل من ليس يشبهنا سيء وشرير.

حديثي معها بدّل هذه الصورة المخيفة.

الجان مخلوقات اجتماعية كأي مخلوقات أخرى.. تشعر وتتألم وتثور وتغضب وتحب وتكره.. ليس ذنبها أن هيئتها التي تراها هي كاملة ينفر منها العقل البشري.

الشيطانة تحولت بعد لحظات لجنية وسماح تحولت إلى نائلة بنت ملك الجن الأحمر.. أو إحدى بناته التي لا يعرف عنها شيئًا كعادة الملوك متعددي العلاقات..

الجن مجتمع فيه الصلاح والفساد ولا أحد بداخله معصوم.

نائلة.. تتحدث بمشاعر هائلة متوهجة كاسحة، إنها ضحية وليست الجلاد.. خمسون عامًا من الاستعباد.. خمسون عامًا بعيدة عن وطنها.. خمسون عامًا بعيدة عن طفلها لا تعرف عنه شيئًا ولا يعرف عنها شيئًا.. إنها شيطانة من عالم الجن ولكنها أنثى رغم كل هذا.

لقد أُختطفت من عالمها وظلت تحت التهديد والعقاب لخمسين عامًا كاملة.. تحلم في كل يوم بالتحرر واللحظة التي ستغادر فيها عالم البشر بكل شروره.

إنها تُقسم أن الشر الذي عاصرته في قلوب البشر يفوق أي شر آخر. وأنها كانت مجبرة على الإيذاء. وأن خوفها من المخلوق الشيطاني هو ما جعلها تلجأ إلى سادة الظلام في عالمها.

إنها مخلوقة ضعيفة برغم كل شيء.

حمدت الله أنها لم تتجسد بهيئتها الحقيقية وإلا لما صدقتها لحظة.

الغريب لم يفصح عن شيء.. هو فقط مخلوق من بعد آخر يريد إنقاذ عالمه من دمار محتمل.

خلاصة اللقاء أن هناك وسيلة للقضاء على المخلوق.. وهذه الوسيلة موجودة بقلب كهف الأمنيات.. إنها نفس التعويذة التي أُستخدمت للسيطرة

على المخلوقات الشيطانية منذ آلاف السنين، وهي مدونة على رق من جلد البشر، وهو محفوظ بداخل الكهف.

الجميل هنا أن الوحيد القادر على الدخول إلى الكهف.. هو أنا..

لماذا ؟!

لأن هذا قدري..

أو لأنني أحمق بما يكفي.

- الرق -

الجبال على مدى البصر، سيف من الصخر يخترق المدى، وينتهي عند ساحل المحيط الأطلسي، وأنا بينهم كنملة صغيرة تعتقد أنها قادرة على فعل المستحيل.

توبيقال.. أعلى قمم جبال أطلس..

توبيقال.. حيث ينتظر الظلام اللحظة المناسبة ليسود..

تويبقال.. حيث البرد والصقيع يغمران كل شيء..

تويبقال.. حيث قُدّر لي أن أكون.

الثلوج فوق قمة الجبل تمنح المشهد رهبة إضافية.. كتل الملابس الثقيلة التي أحيط بها جسدي تجاهد كي تبقيه دافئًا، والرياح لا ترأف بضعفي.. وتكاد تجمد الدماء في عروقي.

أتحرك بصعوبة عبر الممر الصخري المهشم، وجسدي يئن من البرد متوقعًا انهيارًا جليدًا يدفنني في مكاني في أي لحظة. لا أعرف كيف وافقت على الخوض في الأمر. أين ذهب خوفي وروعي ؟! أين ذهب غضبي ؟!

هل سيطروا على إرادتي بسحر ما، أم أنهم حفّزوا غروري ونزقي.

إن الغرور هو الفاجعة الكبرى التي بدأت كل هذا الهول.

الغرور هو كلمة السر الآثمة التي توشك على إحراق العالم.

لا أعرف حقيقة ما حدث لأن هناك جزءًا غائمًا في عقلي.. ولكن الشعور الذي تملكني بعد انتهاء اللقاء، أنني أستطيع..

لا شيء يمكن أن يهزمني أو يقهرني.. والجميل في الأمر أن الخطر المباشر انتهى.. فاللعنة توقفت بتحالفي مع نائلة.. نائلة بنت ملك الجن الأحمر.. حفيدة ملك الجن المهزوم.

هل لهذا معنى ؟!

الآن عليّ أن أحضر الرق.

وأُتمّ التعويذة بمساعدتهم.. فأنا من تربطني صلة الدم بالشيخ ياسين.. وأنا من أستطيع القضاء على المخلوق الشيطاني..

اللقاء تمّ على مستوىً خارق وبعلوم ذلك الكائن.. وهو اتصال عقلي أكثر منه لقاءً حقيقيًا.

لذا تجدونني أقوم بأعجب الأشياء بل وأشدها غرابة، أستخرج جواز سفر، نعم، فالسفر إلى المغرب يتطلب ذلك.

الإجراءات تتمّ بسلاسة مخيفة.. أحصل على التأشيرة بسهولة تامة.. أقطع الطريق نحو جبال أطلس والعشرات يساعدوني بأريحية.. لا يمكن أن

يحظى ملك متوج بمقدار ما حصلت عليه من دعم ونفوذ واستقبال جيد في طريق رحلتي.

بلدة إملشيل بلدة الأساطير، بلدة الحب الضائع.. لقد وصلت في لحظة مميزة، وهي تلك اللحظة التي أُختُتم فيها موسم الخطوبة السنوي في إملشيل، القرية الواقعة في جنوب شرق المغرب، حيث يتم إقامة عرس تقليدي جماعي لثلاثين من العرسان والعرائس الذين ينحدرون من مختلف قبائل المنطقة.

إملشيل التي لا يملّ سكانها تذكير ضيوفهم المغاربة والأجانب المتقاطرين من القارات الخمس، بأسطورة الحب الضائع التي تؤطر احتفالاتهم المتواصلة حتى اليوم.

وهي تتحدث أن فتىً من قبيلة "آيت إبراهيم" ارتبط في زمن غابر بقصة حب جارفة مع فتاة من قبيلة "آيت عزة". العداوة المستحكمة بين القبيلتين تحرم الحبيبين من الاجتماع تحت سقف بيت واحد، فيفران الى جبل مجاور، ويذرفان دموع اليأس التي تفجّرت بها بحيرتان شهيرتان في المنطقة تحملان اسم العريس (أيسلي) والعروس (تسليت). ومنذ ذاك الوقت تحرص هذه القبائل على الاحتفال بزيجاتها تكفيرًا عن تجنيها على الحبيبين الخائبين.

الاستقبال أسطوري.

الجميع يخبروني أنهم ينتظرونني منذ قرون.

أنا المنتظر.

الأدلاء رافقوني حتى موقع معين في الجبل المختار ثم تركوني.. لأني الوحيد المسموح له بالعبور إلى هذا المكان..

وحيد ولكني غير خائف، وهي ميزة مذهلة.

خريطة المكان زُرعت في تلافيف عقلي، ولكن إمكانياتي الجسدية هي العائق الوحيد..

أعبر الممر إلى ساحة متسعة معبدة ومستوية لا ثلوج فيها.

وعند النقطة المحددة أتوقف، أنزع حقيبة الظهر الثقيلة وأخرج منها الهدهد.

لا أعرف لماذا تم اختيار هذا الطائر بالذات.. ولكني أنفذ التعليمات.. إن للهدد مكانة مميزة من عصر سليمان الحكيم.

الطائر يتملص من يدي ثم يطير باتجاه الساحة الممهدة.. وفي نقطة محددة يهبط ويبدأ بمنقاره الطويل في الحفر.

أعرف من قراءتي أن الهدهد يُستخدم كأضحية للتقرب للشيطان.. فهل هذا ما نقوم به بالفعل ؟.

الهدهد مستمر في عمله ولا يبدو أنه يشعر بذلك البرد القارص الذي يعصف بجسدي.

صوت النقر يوترني ولكني مستمر في المتابعة.

نقرة أخيرة ثم صوت فوران.

نافورة دماء تتفجر من موقع النقر.. ومعها لسان من اللهب يصعد للسماء قبل أن يتلاشى.

الهدهد يسقط ميتًا وتغمر الدماء جثته وتجرفها إلى الظلام.

الدماء تغمر كل شيء ثم تسير في مسارات محددة أخفتها القرون ولكنها مازالت صالحة لتتمّ مهمتها.

نجمة خماسية مقلوبة تتشكل في الفراغ.

صوت عالٍ كأنه قصف الرعد يدوي فيهتز الجبل لأسقط أرضًا متشبثًا في نتوء بارز. وكأنما أصابه زلزال.

النجمة الخماسية تتحرك وتتحول لصخرة عملاقة تخرج من قلب الأرض.. تهتز الصخرة في عنف قبل أن تمور وتتفتت ليظهر المدخل.

صوت ما في عقلي يحثني على التقدم فأستجيب..

البرودة تتلاشى من حولي بمجرد عبوري إلى الساحة مع دفء محبب يغزو أطرافي، الأرض الصخرية تتشرب الدماء في جشع..المدخل يتألق بضياء باهر.

الآن أنا أتوقف أمام المدخل.

أنزع الثياب الثقيلة التي تكبل حركتي، أُخرج من حقيبتي الخنجر المطلسم.. نفس الخنجر الذي قتلت به التيس من قبل.. نعم أنا قادر على فعلها.. أنا قادر على قهر العالم كله لو أردت..

أقف منتصبًا مواجهًا المدخل.

أصرخ بكلمات قديمة لا أعرف من أين أتيت بها.

– إيموك.. بلزاموك.. تريهام.. سوجاش.

لسان هائل من البرق يشق السماء.

– إيموك.. بلزاموك.. تريهام.. سوجاش.

لسان آخر من البرق يضيء السماء.

– إيموك.. بلزاموك.. تريهام.. سوجاش.

الخنجر يتألق في يدي بضوء أحمر باهر والضوء يخرج منه ليعانق البرق.

أصرخ بصوتٍ وحشي بدائي :

– لقد أتيت.. لقد لبيت النداء.

وبحزم وقوة.. أدرت الخنجر المطلسم ليواجه صدري.. ثم أغمدته في عنف..

الألم مريع..

أنفاسي تتقطع..

أشعر بالقبضة القوية..

لقد نجح الأمر..

– إيموك.. بلزاموك.. تريهام.. سوجاش.

نهاية ما..

– يا حارس الكهف.. أنصت لي.. لقد لبيت النداء.. فأتمّ عهدك..

– يا حارس الكهف أنصت لي لقد قدمت نفسي كأضحية.. فمتى تتلاشى الحجب.. لقد لبيت النداء.. فأتمّ عهدك..

– يا حارس الكهف أنصت لي أنا الفرع الممتد للجذور.. أنا الدماء المتصلة عبر الآباد.. يا حارس الكهف عاد الخطر من جديد.. عاد.. فأوفي بعهدك.

- مخلوقات من دم ولحم -

فجأة اختفى من حوله كل شيء يعرفه، وكأنما أصابه شهاب حارق فتبخر أو تلاشى في العدم فلم يعد له أثر.. حتى الفريسة التي أغرقت دماؤها الزرقاء صدره لم يعد لها وجود.. وكأنها لم تكن هي الأخرى.

لم يكن ليهتم لو اختفت الفريسة فقط.. فالأشياء تختفي من عالمه طوال الوقت دون أن يثير ذلك بداخله أي قلق، وعلى كل فقد كان مذاقها سيئًا وبالطبع ليس أسوأ مما يحدث له الآن..

انطلق من بين شفتيه الغليظتين عواء حاد مختلط بعويل وعدم فهم، فأن يختفي كل شيء من حوله بهذه الطريقة المباغتة أوقعه في حيرة لحظية.

تحرك ذيله الحرشفي الشفاف في عصبية بقلب ذلك الظلام الدامس الذي يحيط به، وعقله يحاول استيعاب ما يحدث لجسده من تغيرات مروعة وكأن هناك من يسحق خلاياه خلية خلية.

شعر ببرودة شديدة تجتاح كيانه وبريح عاتية تضرب وجهه فتساءل في قلق:

– لماذا صار الطقس من حوله بهذه البرودة ؟ ومن أين تأتي هذه الرياح ؟!

نفث من بين منخاريه بخارًا كبريتيًا ملتهبًا تلاشى في العدم، ثم شعر بأن الكون من حوله يرتج، وبألف صاعقة تضرب أعماقه بقوة.. حاول أن يتشبث بأي شيء عندما بدأت الرياح العاتية تسحبه نحو المجهول.

شعر بألم مروع يجتاح خلاياه ويكاد يزهق روحه..دون أن يشعر بدعم بني جنسه عن طريق صلتهم الروحية..

هاج وماج وصرخ وحاول أن يتماسك دون أدنى فائدة.. إن تلك القبضة المروعة تكبله.. إنه لم يعد قادرًا على الحركة.. أو اتخاذ أي ردود أفعال إرادية.. إن جسده يؤلمه وهو شعور غير معتاد بالنسبة له..

حاول أن يستخدم قدرته المتفوقة على الإفلات ولكنه شعر بعجز لا يوصف.. إن جسده لا يطيعه.. جسده الذي كان طوع بنانه منذ لحظات.

ماذا يحدث له ومن من يطلب العون ؟!

صرخ في قوة..

طلب العون من خليلته..

نادى الشيطان الأكبر..

أرسل استغاثة عقلية واسعة المدى لعل أحد بني جنسه يكون بالقرب فيستجيب لاستغاثته..

ولكن لا فائدة.. الاتصال انقطع بينه وبين الجميع.. وظل السؤال يتردد في عقله دون هوادة :

– ماذا يحدث حقًا ؟!

لابد وأنه لُعن.. أو أن هذه الفريسة كانت مسمومة.. !!

غضب عاتٍ يجتاح كيانه.. عقله يكاد يحترق من التفكير.. يزوم بوحشية. ومن أعمق أعماق عقله أخذت ذكرى قديمة تلح في رأسه.. إنها قصة قديمة سمعها ذات مرة.. ثم واراها بداخل عقله..

بل هي أسطورة مخيفة..

هل حقًا أصابته اللعنة ؟!

لا يمكن أن يكون هو من دون باقي جنسه..

لا يمكن أن يسقط في يد تلك المخلوقات كثيفة المادة المخلوقة من لحم ودم.

لقد سمع عنهم.. عن قسوتهم.. عن حقارتهم..

إنهم جنس متوحش.. يستخدم الفنون المحظورة لاختطافهم واستعبادهم.

لقد سمع كل القصص عمن يذهبون..

ولكن لم يعد أحد منهم ليقص ما حدث له هناك.

الألم عاتٍ.. ولكنه لم يمنعه من التفكير.

سيحاول بقدراته المتعددة أن يفلت من هذه القبضة الشريرة.. إنه لم يعتد الاستسلام قط.

طوال عمره الذي يمتد لقرون طويلة لم يستسلم أو يتوهّن قط. ولكن ما يحدث له مخيف لو كان ما يفكر فيه حقيقة..

هل توجد حقًا مخلوقات بهذا الشر تعيش في مكان آخر من الكون ؟!

الأبخرة تتصاعد من فمه، بشرته الرقيقة تؤلمه، ولكن الألم في قرنيه هو الأصعب.

الظلام من حوله كثيف، ولكنه لا يأبه، فقط ما يريده هو الفرار من مخالب هذه القبضة المؤلمة.. التي تحاول انتزاعه انتزاعًا من عالمه.

لا يمكن أن تنتهي حياته على هذا النحو.

أصدر خوارًا مخيفًا وردد كلمات قديمة لا يعرفها عالمنا.

كلمات محظورة..

استغاث بالشيطان الأكبر مجددًا..

حاول أن يتواصل مرة أخيرة مع عالمه وخليلته، ثم فشل مجددًا.

لقد انقطعت تلك الصلة الروحية التي تربطه مع بني جنسه.

للحظات ساد صمت ثقيل و هدأت حدة الألم ثم سمع الصوت المفزع.

صوت غليظ كريه يتحدث بلغة مخيفة.

صوت له رائحة الموت والضياع.

لا لم يكن صوتًا واحدًا بل صوتين مختلفين.. المفاجأة جعلته لا يميز من اللحظة الأولى ولكنه الآن يميز جيدًا.

صوت أسود مقبض يخاطب آلهتهم الوثنية ويستجدي الشيطان الأكبر.

وصوت بارد قاسٍ يردد الكلمات القديمة.

حاول أن يصمّ أذنيه ولكن الصوت المخيف كان يخترق أذنيه رغمًا عنه ويزلزل كيانه ويطالبه بالطاعة.

الكلمات تتردد عبر الآباد فتجرح روحه بمخالبها وتنتزع من جسده قوته.

الكلمات تسيطر عليه.

سمع الثغاء ففتح عينيه وكل خلية في جسده ترتجف.

أي هول هذا الذي يراه.

الكائنان المخيفان ذوا شعر الوجه الكثيف يرددان الكلمات دون توقف، وكأن حياتهما تتوقف على هذه الكلمات. وأمامهما كائن آخر صغير ذو قرون وحوافر يكاد يمزق الأرض بحوافره من الغضب.

هو لا يعرف أن لهذه الكائنات أسماءً.. ففي عالمه لا توجد أسماء. ولو علم لما استفاد شيئًا. ولكننا نعرف من هما.

فها هما الشيخ ياسين والشيخ تهامي يجلسان بقلب نجمة خماسية مرسومة بالطباشير على أرض الغرفة بالكامل، ومليئة بالطلاسم المكتوبة بسائل أحمر لا أستبعد أن يكون الدم.. بل هو الدم فأيديهما ملطخة بالمزيد منه، وبجوارهما ملقىً دون اهتمام جسد رضيع مثخن بالجراح فارقته الحياة، وعلى وجهه المصبوغ باللون الأحمر نظرة ألم مروعة. وبالقرب منهم تيس أسود اللون مخيف الشكل ضخم الحجم له أربعة قرون، لا يكف عن ركل الأرض بحوافره في عصبية شديدة..

الكائن واقع في حيرة شديدة، عقله لا يستوعب ما يراه، لذلك كان وقع المفاجأة مخيفًا، ولكن عندما وقعت عيناه المحتقنتان على الشيخ ياسين والشيخ تهامي وعيونهما البيضاء الممسوحة ارتجف في رعب.

لم يكن يتصور أن المخلوقات كثيفة المادة التي سمع حكايتهم مرارًا من القدماء يمكن أن يكونوا بهذه الشناعة.. إن روحه تكاد تزهق من فرط بشاعتهم، لو كانت إرادته حرة لفقأ عينيه ليُنهي هذه المأساة.

كلمات جديدة تتردد لتصفع أذنيه بلغة يجهلها تمامًا، ولا يعرف كيف يفهمها..

إنها السريانية القديمة.. لغة آدم عليه السلام.

كلمات مخيفة تهبط على روحه كالسياط.

صدمة عقلية عاتية تجتاح رأسه حتى يكاد يشعر بقرنيه يذوبان، وعندما يردد الصوت الآخر الكلمات بلغته يستوعب الأمر فيرتجف أكثر..

الكلمات تطالبه بالإذعان والدخول في جسد ذلك الكائن المكبل بالسلاسل.

إنه يعرف الآن فقط أنه قادر على احتلال جسد هذا الكائن ذي الحوافر والسيطرة عليه، ولكن لماذا سيسجن نفسه في هذا السجن كثيف المادة، لماذا سيطيع ؟

والإجابة نعرفها جميعًا.. وهو ذلك الألم المروع الذي تصيبه به الكلمات المحظورة.

الكائن ذو الحوافر يزوم ويخور.. .إنه خائف هو الآخر، لا يبدو وكأنه ينتمي لجنس هذه المخلوقات الوحشية على الرغم من كونه كثيف المادة مثلهم.

الصوت المخيف يتردد من جديد، وكأنه ينبع من كل مكان حوله، فيعصف به.. يتمنى لو يستعيد قدرته على التحكم في أعضائه فيفترس هذين الوحشين المخيفين ذوي شعر الوجه الكثيف، ولكن كل أفكاره تتلاشى عندما تعود الأصوات لتردد الكلمات المحظورة.. الكلمات التي بات يفهمها دون جهد.. الكلمات التي تمنحه عذابًا يفوق عذاب لحظات الاحتضار التي يتشارك فيها بنو جنسه عندما يعاني منها أحدهم.. الكلمات السوداء.

الكلمات تتردد دون هوادة..

الكلمات تتردد في إصرار..

أُدخل إلى مستقرك الأبدي.. ارضخ لسطوة اللحم والدم.

ألم عاتٍ يصعقه.

أُدخل إلى مستقرك الأبدي.. ارضخ لسطوة اللحم والدم.

إنه يحاول المقاومة..

أُدخل إلى مستقرك الأبدي.. ارضخ لسطوة اللحم والدم.

إرادته تخور..

عزيمته تفتر..

إنه الآن بداخل جسد المخلوق ذي الحوافر..

بداخل سجنه الأبدي المكون من لحم ودم..

ولكنه لن يستسلم..

لن يستسلم أبدًا.

أُدخل إلى مستقرك الأبدي.. ارضخ لسطوة اللحم والدم.

الألم عنيف لا يستطيع أن يقاومه..

ارضخ لسطوة اللحم والدم.

وفي النهاية يستجيب.. ويستسلم.

ويرضخ لسلطة اللحم والدم.

- عزيف -

اخترق الخنجر المطلسم صدري فشعرت بألم عنيف وحاد في مكان الطعنة، وعاد لي وعيي المنسحب وإحساسي بما حولي، واجتاحت جسدي رجفة عظيمة وكأنني بمركز أحد الزلازل المروعة والتي أعادت تشكيل اليابسة.

وبسرعة البرق انتقلت الرجفة إلى الجبل الغافي منذ مئات القرون لتتوتر صخوره وينفض عنه كسله وجليده، ليحدث انفجارًا هائلاً كقصف الرعد أطاح بالصخور والثلوج في كل مكان، ومن خلفي تألق المدخل بضوء أحمر دموي أعطى المكان رهبةً وهيبة.

جحيم هائل من الصخور والجليد يتفجر من حولي، لم تجرؤ ذرة رماد منه على لمسي، فظهر المشهد وكأني نواة مركزية للجحيم القائم.

لحظات ثم شعرت بالدوار خاصة مع كمية الدماء التي أفقدها طوال الوقت وأحاول بقوتي الواهنة أن أوقفها.. ولكني لم أستسلم، زحفت بكل ما أوتيت من قوة كي أعبر إلى داخل الكهف.

رائحة الكراهية والحقد المطمور منذ قرون تكاد تطيح بأنفي من بشاعتها، بل وتزهق روحي.. صوت هادئ كالنسيم يتردد في عقلي ويخبرني بخطوتي التالية، فأنزع حقيبتي الثقيلة من فوق ظهري وأنفاسي تتقطع وأتناول بصعوبة اللفافة التي تحتوي على العقار أزرق اللون الموجود في داخل القنينة التي لا

أعرف متى حصلت عليها، هي وكل محتويات الحقيبة ولا لماذا أجهد نفسي وأعوق حركتي بحملها، ولكني أطيع الصوت دون تردد فهو يريد صالحي دون شك..

أجرع محتويات القنينة ذات الرائحة العطرية المميزة مرة واحدة لأشعر على الفور بنشاط مضاعف ونشوة عالية.. وبعيون متسعة من الدهشة شاهدت الدم وهو يتوقف عن التدفق، والجرح وهو يبرأ وقوتي وهي تعود لي مجددًا.

حماس عاتٍ اجتاحني فأعدت الخنجر الملوث بدمائي إلى غمده وواريته في الحقيبة ثم عدت أحملها على ظهري مجددًا، فشعرت بها في خفة طائر وكأن القنينة الصغيرة من كانت تثقلها.

تقدمت إلى داخل الكهف أكثر، وكل خلية في جسدي تنتشي من دفء المكان، و كالمجاذيب وقفت بداخل الكهف، وأخذت أردد الكلمات من جديد :

– إيموك.. بلزاموك.. تريهام.. سوجاش.

– إيموك.. بلزاموك.. تريهام.. سوجاش.

– إيموك.. بلزاموك.. تريهام.. سوجاش.

ثم وبصوت متضرع أُحادث العدم :

– يا حارس الكهف.

– يا حارس الكهف.. أنصت لي.. لقد لبيت النداء.. فأتمّ عهدك..

– يا حارس الكهف أنصت لي لقد قدمت نفسي كأضحية.. فمتى تتلاشى الحجب.. لقد لبيت النداء.. فأتمّ عهدك..

– ياحارس الكهف أنصت لي أنا الفرع الممتد للجذور.. أنا الدماء المتصلة عبر الآباد.. يا حارس الكهف عاد الخطر من جديد.. عاد.. فأوفي بعهدك.

صوت صرير هائل يصم الآذان، وكأن هناك بابًا عملاقًا مغلقًا منذ قرون يُفتح الآن.

الضياء الأحمر الدموي يخفت تدريجيًا ويتبدل لونه.. وأنا في هذه اللحظات كالمغيب أو الممسوس.. لا أشعر بكينونتي ولا أملك أي إرادة.. فقط أنا أطيع الصوت المتردد في عقلي..

الجبل يهتز من جديد.. فألتصق بالجدار المجاور لي في خوف..

قلب الأرض ينشق ثم يخرج التابوت من باطنها.. أي سحر هذا ؟!

الصوت يتردد في عقلي مرشدًا :

– إن الأمر يتم عن طريق رافعة ميكانيكية لا صوت لها مخفاة بمهارة بقلب الأرض، العلم هنا هو السيد لا مجال للسحر فيما يحدث.

وفي هذه اللحظة أدركت أن الصوت هو صوت الشخص الغريب، ثم تذكرت جملة أخبرني بها في حوار سابق، بالعلم والسحر استطعنا السيطرة على هذه المخلوقات الشيطانية.

إذن فهذه المرحلة هي مرحلة العلم و..

قطع أفكاري مشهد التابوت وهو يتألق ثم ينزاح الغطاء عنه ببطء، تقدمت من التابوت واتسعت عيناي من الدهشة.. التابوت خالٍ تمامًا ولكنه نظيف ولم يتأثر معدنه المتألق بمرور الزمن..

التابوت خالٍ ولا يوجد الرق بداخله.. فهل فشلت مهمتي ؟!

الصوت المتردد بتلابيب عقلي يطالبني بالرقود بداخل التابوت.. فهل أطيع؟

هل سمع الغرباء قصة إيزيس وأوزوريس ؟!

هل ستكون نهايتي بداخل الصندوق، إن عدونا يفوق (ست) شرًا، فهل يقوم بما قام به (ست) ؟

أتقدم من التابوت في خوف.. أطيع وجسدي كله يرتجف.. لا أعرف كيف سيفيد وجودي في قلب التابوت في العثور على الرق ؟!

أتمدد بداخل التابوت في رعب و معدنه البارد يمنحني رعشة جديدة.. أتحرك بعصبية بقلب التابوت محاولاً أن أجعل الحقيبة في وضع مريح..

وبمجرد أن سكنت، تحرك غطاء التابوت ببطء وهدوء لينغلق ويعود لسيرته الأولى، لأقبع أنا بداخل ظلام دامس لا يفوقه إلا ظلام القبر.

أُحكم إغلاق الغطاء فصرت سجينًا بالداخل،ثم اهتز الصندوق للحظة واحدة.. وتحرك التابوت صوب المجهول.

لحظات بقلب الظلام الدامس مرت على روحي كالقرون، ثم صمّت أذنيّ الأصوات المروعة المستجدية المتألمة.. مما جعلني أتساءل :

هل عدت للجحيم مجددًا ؟!

وعندما سال دمعي من التأثر والخوف وكاد قلبي أن يتوقف، عاد الصوت الداخلي يطمئنني، لا تخف إنها أصوات لا خطر منها.. إنها أصوات الجن المعذبين..

عزيف.. هذا هو اسم أصوات الجن..

ولكني لم أتخيل أن يكون الصوت بهذه البشاعة..

الصوت يتابع بلهجة تقريرية :

– بعض الجن فضل العذاب على الموت.. بعضهم لم يستسلم للكهف رغم مرور القرون.

توحدت مع الأصوات برغم عدم فهمي لها..

شعرت بمعاناة أصحابها، وتألمت كما يتألمون.. وبكيت كما يبكون.. وصرخت كما يصرخون.. ثم بعد ذلك هدأت.

صوت صرير معدني خافت.. ثم صمت.

التابوت أصبح أقل اهتزازًا الآن.. بل هو ساكن تمامًا.

دقائق من صمت قاتل.. ثم بدأ الغطاء يتحرك ببطء شديد..

فتحت عينيّ متوقعًا الخلاص.. فصدم عيناي ظلام دامس ثقيل فأغلقتهما على الفور.. هواء بارد لفح جسدي فشعرت بندم شديد لأني تركت الملابس الثقيلة بالخارج..

جسدي يئن والحقيبة عادت ثقيلة كسيرتها الأولى. ولكنه ليس وقت التبرم أو الغضب.

أنهض بصعوبة معتمدًا على حواف التابوت المعدنية، وعزيف الجن في الخلفية كموسيقى تصويرية مروعة، وإن كنت أسمعه بالكاد وكأنه على بعد آلاف الأميال. لابد وأنني ابتعدت عنه مسافة كبيرة، فيبدو وأن الكهف الحقيقي مازال هناك بأعماق الجبل، وهذا ما جعله أسطورة باقية حتى وقتنا هذا.

أتلمس طريقي في الظلام.. جدران صخرية ملساء وأرضية صلبة.. المكان ضيق ولا يمنح خيارات.. فقط أشعر بدرجات سلم هابطة، فأتمسح في الجدران هبوطًا..

واحد..

اثنان..

ثلاثة..

.....

اثنتا عشرة درجة ثم لا شيء.

الجدران ملساء من حولي بدون نتوءات.. وكأن هناك من قام بصقلها، بل هناك بالفعل من قام بصقلها.

الهواء ساكن وشحيح إلى حد ما.. مما لا يوحي بخلاص.

أتحسس الجدران مجددًا.. أبحث عن دليل.. عن شيء يقودني للنقطة التالية وسط هذه العتمة التامة.. أنتظر الصوت الذي صاحبني حتى الآن ليرشدني.. ولكن الأمر واضح وجلي.. من هذه النقطة أنا وحيد. وحيد تمامًا.

أطنان من الحيرة تغمر عقلي.. الخوف يعاودني مجددًا.. أشعر بضعف عاتٍ.. الظلام مخيف بحق.. أعصر عقلي محاولاً استنتاج الخطوة التالية.

التابوت ثم الدرج قاداني إلى هذا المكان.. الخيارات محدودة.. إذن لا حل آخر.

الكلمات.. !!

– إيموك.. بلزاموك.. تريهام.. سوجاش.

وبالفعل نجح الأمر ونجحت الكلمات.. وبدأ الظلام يتراجع..

صفير حاد صفع أذنيّ ثم بدد عتمة الظلام ضوء أزرق هادئ، غمر المكان في حياء.. ليظهر أمام عينيّ ممر قصير يقود إلى قاعة صخرية هائلة الحجم لم أرَ لها مثيلاً في حياتي..

جدرانها العملاقة مكسوة بغلاف زجاجي متألق لا خدش فيه منحها مظهرًا خلابًا. وفي منتصف القاعة ربض صندوق متوسط الحجم متألق بلون فيروزي، وعندما خطوت إلى الداخل، بدأ أمام عينيّ أغرب عرض في التاريخ.

- المخلوق الشيطاني -

فجأة شعر المخلوق الشيطاني بالتحرر لفترة قصيرة للغاية..والجدير بالذكر أنها كانت مجرد لحظات قليلة ولكنها كانت كافية له ليحيط بالكثير مما يجهله في هذا العالم الجديد.

هو لا يعرف كم مر عليه في هذا العالم المخيف من وقت..فقد تجمد الزمن بالنسبة إليه منذ تناوب هذان المخلوقان المتوحشان على إخضاعه وتعذيبه، إنهما ضعيفان ليسا بالقوة التي توقعها، وهو يملك خبرة السنين وصلابتها لذا لن يستطيعا إجباره على طاعتهما ببساطة كما نجحا مع المخلوق الأول..

هو يعرف الآن أن هناك مخلوقًا أول سقط في يد تلك الكائنات، هو ليس الأول من نوعه في هذا العالم، ففي لحظة التحرر هذه حدث التواصل بينه وبين المخلوق الآخر الذي بدأت به قصتنا.. والذي سعت نائلة/سماح للتخلص منه عن طريقي لتنال حريتها وتعود لعالمها..

إنه يعرف هذه البصمة الروحية جيدًا..

كما أخبرتكم عالمه لا يحتوي على أسماء ولا يعترف بها فقط لكل كائن منهم بصمة روحية تميزه عن غيره، وعن طريقها يتم التواصل.

إن هذه البصمة الروحية بالذات دارت حولها القصص الكثيرة أثناء التواصل العقلي العظيم.. لا يوجد أحد في عالمه لا يعرفها أو ينكرها.. فاختفاؤها أحيا الأسطورة القديمة..

أسطورة الكائنات الشريرة كثيفة المادة..

جميعهم يعرفون الموت، ويشعرون به عندما يجذب أحدهم إلى مملكته.. إن الرابطة التي تربطهم تجعلهم يعرفون مصير كل كائن منهم.. ولحظات الاحتضار لديهم هي أشد اللحظات هيبة ورهبة.

يتعايشون جميعًا تلك اللحظة.. ولكن اختفاء هذه البصمة الروحية كان مختلفًا تمامًا..

إنه اختطاف وليس موتًا.

إنها اللعنة من جديد.. والعجيب أنه برغم تواصلهم لا يستطيعون أن يقدموا العون لتلك الروح المختطفة.. إنهم عاجزون أمام العلوم المحظورة. عاجزون تمامًا.

لقد توقع المخلوق عندما حدث ذلك الاتصال.. أن يجد السلوى في التواصل ولكنه صُدم عندما وصلت له مشاعر الكائن الآخر..

فالكائن الشيطاني الآخر في خطر عظيم.. هناك من يسعى لهلاكه.. إن هذا المكان مخيف.. مخيف جدًا.. تلك المخلوقات المسماة البشر.. لا قلب لها..

المعلومات تنتقل بينهما بسلاسة وتثير غضب المخلوق الجديد وفي نفس الوقت هلعه..لقد عانى المخلوق الأول الأمرّين من هذه الكائنات طوال خمسة عقود.. لقد عوقب بالحديد المحمي والنيران والرصاص المصهور.. تُرك بلا طعام لفترات طويلة.. لقد عذبته هذه المخلوقات البشرية بطريقة وحشية ليطيعها..

والآن هو يواجه خطرًا داهمًا. ليس خطر المخلوقات البشرية فقط.. هناك تلك العفريتة التي تريد الخلاص منه لتتحرر بعد أن سُلط عليها لاستعبادها طوال العقود السابقة..

إن الخطر مزدوج الآن.

الآن يعرف المخلوق الشيطاني كل ما كان يعرفه المخلوق الأول.. يعلم أنه قادر على الانتقام لو فقط استطاع التحرر..

عليه أولاً أن يساعد المخلوق الآخر، قبل أن تنتهي الطقوس في الليلة الثالثة عشرة ويصبح عبدًا لتلك المخلوقات المتوحشة إلى الأبد.

حاول بكل ما تعلمه عبر القرون أن يقوي رابطة التواصل.. أن يمزج روحيهما معًا.. أن يغيث المخلوق الأول ولكن الوقت كان قد فات.

لقد سيطرت نائلة/سماح على عقلي وعن طريق تعويذتها قمتُ بقتل المخلوق الشيطاني الأول الذي تمثل في شكل تيس.

قمتُ بقتله والمخلوق الجديد يشاهد ويتابع..

قمتُ بقتله فمات الشيخ ياسين ومات من بعده الشيخ تهامي على يد نائلة. ونال المخلوق الشيطاني الجديد جزءًا من حريته وإن لم ينلها كلها.. وأفسد تعويذة نائلة.

المخلوق الآن حر إلى حد ما ولكنه لا يمتلك بعد تلك القوى المروعة التي جعلت الجن يرتجفون من جنسهم ذات يوم منذ مئات القرون..

الشيخ ياسين مات قبل إنهاء الطقس الأخير وختم التعويذة..مات فانتقل العهد إلى من يحمل دماءه.. مات وفي نفس الوقت مازالت دماؤه تسري في عروق حفيده..

الدماء هي السر الأعظم الذي يربط هذا العالم ببعضه..

إنه الآن يحاول أن يتعلم.. ولكنه سجين هذا الجسد كثيف المادة.. لابد أن يتخلص منه ولكنه لا يدري كيف بعد..

****

وذات مساء وعندما حدث الكسوف الكبير للشمس.. سمع الصرخة العاتية التي قطعت المسافات والزمن..

ولحظتها عرف أنه ليس وحيدًا..

ليس سجينًا متفردًا في هذا العالم..

وعرف الطريقة المثلى للتحرر، وعرف أيضًا أن انتقامه لن يبقي ولا يذر..

****

عبرتُ إلى القاعة المتسعة التي تبدو وكأنها محفورة بقلب الجبل كله من شدة اتساعها فشعرت بنشاط عجيب وحيوية غير معهودة، وكأن خلايا جسدي تجددت أو استيقظت من سبات طويل مما منحني راحة فائقة.

ضغطت قدميّ الأرض الصخرية فشعرت بليونتها المحببة، وكأنها سطح إسفنجي هش وإن كان لا يخلو من صلابة..

كل شيء في القاعة صمم بتكنولوجيا عظيمة وعلوم فائقة استطاعت أن تشق الجبل وتلين الصخر..

تقدمت عدت خطوات إلى الأمام، وكأن دخولي كان كلمة السر فتحول الزجاج الذي يكسو القاعة إلى ما يشبه شاشة عرض ثابتة وظهرت الرسوم على الجدران تحكي مشاهد مختارة من قصة عجيبة.

خلاصة مجموعة الرسومات الأولى، أن الكون ليس حكرًا على البشر والجن فقط، الكون يحوي مخلوقات عاقلة أخرى لا تقل عنهم أهمية وخطورة والعلم فقط هو ما يحكم الكون الذي لم يخلقه الخالق القدير عبثًا.

المجموعة الثانية من الرسم تظهر قصة المخلوق.. إن المخلوق الغريب من جنس متطور، بل فائق التطور، جنس سما بالإيمان والأخلاق والعلم إلى مرحلة لم يصل إليها جنس آخر في سلم التطور والحضارة، جنس دأب على رصد العوالم الأخرى ومخلوقات الكون المتعددة، التي تحيط بالجنس الأشد خطورة عبر الكون.. البشر.

يرصد ويقيّم ويتدخل في لحظات بعينها ليمنع هذه المخلوقات من تدمير نفسها والكون..

الرسوم تخبرنا أن هذا المكان يحتوي على أكثر الأسرار خطورة عبر التاريخ، فبقلب هذا الكهف تسكن تلك المخلوقات الشيطانية المفزعة التي تضمر بداخلها حقدًا وكراهيةً لا مثيل لها لكل الأجناس الأخرى، خاصة الجن والبشر.. مخلوقات تختلف عن بني جنسها الذين يقبعون في بُعدهم المخيف بأنها تعلم قوتها وقدرتها، وتعلم ضعف الأجناس الأخرى.

الرسوم تحكي قصة الكون وقصة الحروب القديمة وقصة السر الكوني الهائل الذي أنا في حل من ذكره لكم.. وتحكي قصة الكهف ومخلوقاته، بل وهناك رسم يصف هذه اللحظة التي ألج فيها للكهف من أجل الحصول

على الرق. وكأن هذه الرسوم قُصت من كتاب القدر لترسم فوق الجدار الزجاجي أو رسمها مخلوق كوني مستقبلي منحه الله علومًا لا حصر لها مكنته من رؤية الغيب.

الرسوم تقص تواريخ مجهولة لنا، وتصف لحظات معينة ظهروا فيها من أجل تعديل مسار زمني ما أو إنهاء كارثة محققة ورصد البشر لهم، وكيف وصفهم البشر القدماء في قصصهم القديمة على أنهم الملائكة.

إن مركباتهم التي تغص بها الحكايات القديمة جابت الأرض في كل حقب التاريخ.

وعندما تطورت علومهم وتخلوا عن جسدهم المادي وتحولوا هم أنفسهم لهذه المركبات، أججوا خرافات البشر أكثر وأكثر بظهورهم المختلف لذلك آثروا الابتعاد والاختفاء، بعد أن تركوا هذه الرسومات لتُخبر من يعثر عليها بالقصة وتحذرهم من مغبة إطلاق سراح هذه الكائنات..

كانوا ليظلوا في بعدهم متوارين لولا أن أجبرهم الشيخ ياسين ورفيقه على الظهور.. بحماقتهما الكبرى وسعيهما نحو الخلود.

الآن بعد أن امتلأت رأسي بهذا الكم من المعلومات.. وجب عليّ أن أنهي مهمتي لأحصل على تعويذة السيطرة..

الرق يقبع على بعد خطوات مني في قلب الصندوق الفيروزي.

الرق محاط بعلم فائق ويحتاج لحل الأحجية التي تغلقه.

الرق يرقد هناك وبداخلة طوق النجاة.. فهل أجسر على المزيد من العلم والمخاطرة، بعد أن فقدت كل دعم ؟!

****

بعد أن تحرر المخلوق الشيطاني جزئيًا بموت الشيخين، وبعد أن تم التواصل بينه وبين المخلوق الآخر، كان عليه أن يتم الاتصال بمخلوقات كهف الأمنيات.. ولكن الأمر لم يكن بهذه البساطة.. فلابد أن يحررهم من ذلك الفخ الجهنمي أولاً قبل أن يتحدوا ليقضوا على خصومهم.. وهذا لن يتم إلا بتدمير الرق الذي يحوي التعويذة ثم بعمل التضحية الكبرى، وقبل كل هذا كان على المخلوق الشيطاني أن يقطع مسافات هائلة عبر الصحراء كي يصل إلى حيث يقبع كهف الأمنيات في عمق جبال أطلس.

لذا فمهمته العاجلة أن يمنع ذلك البشري الذي قطع نصف الطريق نحو الرق الجلدي من الوصول إليه بأي ثمن، فهو الوسيلة الوحيدة والتي صكها القدماء للسيطرة على جنسه.

لو كان حرًا لكان هناك في لمح البصر، ولكن ذلك الجسم كثيف المادة يكبله إلى حد كبير.. وذلك الجسم المضيء البارد المتصدر قبة السماء والذي يطلق عليه البشر لفظ القمر يحد من حركته..

عليه فقط أن يتحمل كل الصعاب لعدة ساعات.. وبعدها سيأتي النهار، ومعه يأتي ضوء الشمس والقوة.

فقط في هذه اللحظة سيتخلص من ذلك الجسد كثيف المادة الذي يكبله.. ثم سينطلق ليحرر رفاقه المحتجزين في ذلك السجن الجهنمي الذي يمنعهم من الانتقام.. فهذا الجسد المحدود ذو الحوافر يجعله يشعر بكل المؤثرات الخارجية، فالبرد يؤلمه والحصى يضايقه، والعوائق الصخرية تحد من حركته وتجبره على الدوران حولها..

إنه يحتاج للراحة كل عدة دقائق، وهذا المخلوق يحتاج لطعام.

الصحراء ممتدة أمام عينيه.. وبداخله شعور مخيف بكونه مراقب.

يتسلل عبر الحدود والأسلاك الشائكة ويتفادى رصاصة من جندي اعتقده مصدر تهديد أو ذئب.

الرمال المتحركة تحد من حركته ولكنه يستخدم قدراته المحدودة ليعبر مساحة هائلة منها.

وعندما توقف ليستريح.. رأى بعينيه الهول القادم..

- مواجهة -

أتقدم بصعوبة من الصندوق الفيروزي المتألق المتوسد منتصف المكان، والذي يتسلط عليه شعاع من الضوء بشكل مسرحي عابث. مع ظلام متدرج ينتهي إلى لامكان.

الصمت صاخب إلى درجة مخيفة.. أشعر بمئات العيون تحرق مؤخرة رأسي.. وكأن هناك من يتربص بي خلف الظلال.

الصندوق يبدو من هذه المسافة بريئًا بل ويوحي بكنز ما.. ولكني لست بهذه السذاجة لأنخدع.. فالصندوق كما أخبرني الغريب يمثل فخًا شنيعًا لمن لا يملك سره.. وشركًا كونيًا مظلمًا لا فكاك منه لمن يخطئ في التعامل معه. لذا لابد من الحذر الشديد للتعامل معه.

الحذر ثم الحذر.

نسيم خفيف يداعب وجهي لا أعرف له مصدرًا، أتنفس بعمق ثم أخطو خطوة أخرى للأمام..

المكان كله مقبض.. لا أعرف حقيقة لماذا قبلت على الخوض في الأمر.

أتقدم أكثر بداخل المكان بخطوات بطيئة خجولة، وكأني لا أريد لهذه المسافة التي تفصلني عن الصندوق أن تنتهي..

صوت تكتكات منتظمة يأتي من كل مكان يشبه تمامًا صوت حركة عقارب الساعة القديمة الموجودة في شقة أبي رحمه الله.

قدماي تغوصان في قلب الأرضية الهشة.. شيء ما داخلي يخبرني ألا أجزع..

لا ليس الصوت الذي صاحبني في البداية.. هو مجرد شعور ولكنه يتعاظم مع الوقت..

ظلام مباغت كسا كل شيء فلم أعد أرى كفيّ.. ولكني أتقدم بثقة.. أشعر بأني أغوص أكثر في قلب الأرضية الهشة ولكني لا أشعر بقلق أو خطر.

يظهر أمام عينيّ ممر كامل أمامي من مربعات ضوئية متوهجة يكسر عتمة الظلام..

أقف أمام الممر مفكرًا.. أنا أعرف هذا الجزء تمامًا من الفخ.. يجب أن أعبر هذه المربعات بخطوات محددة.. لا يجب أن أضغط على أي مربع خاطئ وإلا انهار أو انفجر أو اشتعل كل شيء.. وأنا لا أفتقر للخيال كي لا أعرف النهاية.

وبداخل عقلي تدوي أغنية أطفال قديمة..

(واحد اتنين تلاته كارونيه كارونيتا.. استخبى إنت وإنت فار وأنا قطة.. حلوة اللعبة ديا إنت فار وأنا قطة.. هيه هيه.. إنت فار وأنا قطة).

خريطة بداخل عقلي تتشكل ممتزجة مع لحن الأغنية..

(واحد اتنين تلاته كارونيه كارونيتا.. استخبى إنت وإنت فار وأنا قطة.. حلوة اللعبة ديا إنت فار وأنا قطة.. هيه هيه.. إنت فار وأنا قطة).

أضغط بقدمي هذا المربع.. ثم الذي يليه.. أقفز للمربع الذي على اليسار.. ثم أعود للذي يسبقه..

المربع الأيمن فخ حقيقي..

أتقهقر عدة مربعات في تتابع مدروس..

أضغط على آخر مربعين معًا..

وفي النهاية أتجاوز الممر لتسطع الإضاءة وأنا مازلت أردد لحن الأغنية.

إضاءة لا مصدرًا محددًا لها تشع من الجدران الزجاجية التي تلاشت من فوقها الرسوم. لقد عبرت الفخ الأول ببساطة.. .لابد وأنهم زرعوا كل شيء بداخل عقلي..

الصندوق الآن في متناول يدي.. ولكني لا أجرؤ على لمسه. وبرغم الإحساس المطمئن المتصاعد من داخلي.. إلا أن كل خلية في جسدي ترتجف. إن لهذا الصندوق هيبة ورهبة.

لم يكن صندوقًا مصمتًا بل هو مليء بالنقوش وبالرسوم غير المفهومة.

أشعر بتوتر هائل وكأنني في حضرة الشيطان نفسه.

هناك خطوات يجب أن أقوم بها لأفتح الصندوق ولأحصل على الرق.

الحذر ثم الحذر.

في البدء يجب أن أغمره بالدماء فهي المفتاح الذي سيوقف لعنته.. ولكنها ليست أي دماء..لذا فإنني أخرج من حقيبتي التي لم تفارقني لحظة واحدة ذلك الطائر الصغير مجددًا.

هدهد آخر.. ضحية أخرى بريئة لا ذنب لها، ثم الخنجر المطلسم الذي صنع في عصور غابرة على أيدي كهنة غلاظ القلوب ليبث عقيدة الموت عبر العصور.

طعنة في قلب الهدهد الذي يحاول التملص وأن يقتنصني بمنقاره الحاد.

الدم يسيل فوق الصندوق الذي يخبو شعاعه ويتحول في غمضة عين إلى صندوق معدني من معدن لامع خفيف.

أجلس على الأرض الصخرية والصندوق أمامي، أخرج من الحقيبة تلك الرسمة التي نقشت فوق قطعة قماشية من أحد قمصاني.. أبدأ في عمل تباديل وتوافيق لقفل الصندوق حتى تكشف النقوش عن فتحة صغيرة، أخرج من حقيبتي قضيبًا معدنيًا ما أن أدخله فيها حتى ينفتح الصندوق ليظهر الرق..

ولأفرغ أنا معدتي بالكامل..

فما رأيته كان شنيعًا.. شنيعًا لأقصى حد.

****

نائلة كانت هناك بملامحها الوحشية وغضبها العاتي..

وجهها المصبوغ باللونين الأبيض والأسود وعيناها المحتقنة بالدماء وقرناها المشرعان كحراب نحو السماء منحاها منظرًا مخيفًا.. فحيحها كان يشق الفضاء حتى لترتجف منه رمال الصحراء نفسها.

إن مشاعرها تغلي من الغضب، وروحها تهفو للانتقام.

كانت تقف في قلب الصحراء كوحش أسطوري تتصاعد الأبخرة الملتهبة من فمها.. وبجوارها اصطفت مجموعة من مردة الجن يقطعون عليه الطريق وفي يد كل منهم سلاح قاتل. وخلفها امتدت الصحراء إلى مالا نهاية لا يضيء ظلمتها إلا القمر المندهش مما يدور تحت ناظريه.

مشهد مفزع يصلح لأفلام الرعب الدموية.. ولكنه لم يكن ليقلق المخلوق الشيطاني ولو لحظة واحدة.

نائلة لم تستطع صبرًا.. فقررت أن تبدأ معركتها مبكرًا.. لن تنتظر حصولهم على الرق ولن تنتظر شروق الشمس فيتحرر الكائن الشيطاني ويمتلك قوة لا قبل لهم بها.

إنها تعرف أن الكائن الشيطاني ليس بالضعف الظاهر عليه.. مجرد وجوده في هذا البُعد سيمنحه قدرات هائلة ستخرج وقت الحاجة، حتى لو كان هو يجهلها.. وبرغم هذا فهي ستقاتل كي تعود لعالمها وصغيرها.. وتحصل على

حريتها.. ولحسن حظها أن هناك من يعاونها ولا بديل عن انتصارها في هذه المعركة..

المخلوق الشيطاني كان يقف في مواجهتهم بتحفز وعيناه المشتعلتان تمسحان كل شيء، عبر عيني التيس الذي تعاظم وأصبح بحجم جمل كبير وعيناه وترصدان تلك السحابة التي غزت نصف القمر.

غضب مستعر يجتاح كيانه وأذنه الخارقة تمسح كل المكان من حولهم في قطر كيلو متر كامل.

إنه ليس خائفًا برغم أن عدد الأعداء يفوقه بكثير.. إنه ليس المخلوق القديم.. فجو هذا العالم يناسبه تمامًا ويشعره بطاقة وحيوية لم يشعر بها حتى وهو في شرخ شبابه.. كما أنه ليس وحده تمامًا..

إنه على اتصال ببني جنسه عبر تواصل عقلي فائق.. إنه يغوص في ذاكرتهم.. يتعلم منهم.. ينهل من معارف القرون..

إن لديه قدرات هائلة وسطوة على مخلوقات كثيرة في هذا العالم..

إنه جاهز للمواجهة.

سمعه المتفوق يصل لمسافة بعيدة ويرصد وجودهم.. عقله يبدأ في إنشاء الرابطة العقلية..

إنهم يقاومون قليلاً.. ولكن ها هو القمر يتلاشى خلف السحابة بالكامل.. إنه الآن قادر على قيادتهم.

إنه الآن جاهز لصد العدوان.

نائلة وخلفها خمسة من مردة الجن يتحفزون.. إنهم الأعداء الحقيقيون.. هو يعرف ذلك..

القمر يتلاشى تمامًا.. مردة الجن يتحول كل منهم لشكل مخيف.. أو ربما هو يظهر بهيئته الحقيقية..

نائلة تصرخ فترتج الصحراء لصرخاتها..

الكائن الشيطاني يتحفز..

ثم يحدث الالتحام..

****

المشهد كان مروعًا ولم تحتمله معدتي فأطلقت عصارتها لأفرغ روحي على الأرضية التي لم تطأها قدم منذ قرون.

كنت أعرف أن الرق كُتب فوق جلد بشري ولكني لم أتوقع هذا المشهد الرهيب الذي رأيته..

فلم تكن التعويذة منقوشة على ظهر جلد يابس أو حتى حي.. بل كانت..

يا إلهي إنه مشهد شنيع.

إن الرق يبدو كجزء جلدي مسلوخ حديثًا، على ظهره المليء بالخلايا الحية التي لم يصبها التعفن عبر القرون، تمرح ما يشبه ديدان أسطوانية الشكل تشكل الكلمات في مشهد مقزز..

إنها حيلة دفاعية أخرى لم أستعد لها.

اللحظة التالية كانت فارقة بل ومفزعة.. فالفكرة التي تترد في عقلي كانت شنيعة لأقصى حد.. ولو كان لي إرادة لرفضتها وعدوت هاربًا.

الفكرة الملحة كانت أن ألتهم الرق.

شعور قاهر يحثني على فعل الأمر.

طعم العصارة المعدية في فمي يثير اشمئزازي، والفكرة التي في رأسي تكاد تقتلني..

لن آكل هذا الشيء..

ناهيك عن أنه جلد بشري، فهذه الديدان البيضاء المقرفة.. لالا.. لا أستطيع..

الفكرة تتعاظم بداخل عقلي..

الفكرة تستولي على كامل إرادتي وتفكيري..

روحي تكاد تزهق..

ولكن يداي تقبضان على الرق ذي الملمس الكريه..

هل يدفعني الغريب الذي يدعي الحضارة على إتيان هذا الأمر الهمجي المخالف لكل فطرة سليمة ؟!

دموعي تهطل و يداي ترتجفان.. و..

أسناني تمزق الرق...

الجلد البشري الحي المختلط بالديدان يأبي أن ينزل من حلقي..

إن روحي تكاد تفارق جسدي من القرف والاشمئزاز.

ولكن كيف يكون الرق مصنوعًا من جلد بشري وقد صنع قبل ظهور البشر الحاليين على الأرض ؟

هل كان هناك بشر سابقين لجنسنا كما تقول بعض الروايات المتواترة. هل كان هناك بشر قبل آدم عليه السلام ؟!

هل هبط آدم عليه السلام بالفعل على حضارة سابقة ؟!

بالطبع لم تكن لحظات مناسبة للبحث في أسرار الكون الغامضة فأمامي مهمة مقززة يجب أن أنهيها، ولن يختلف وقع الأمر على روحي سواءً أكان

الرق مصنوعًا من جلد بشر حاليين أو سابقين أو من جلد الديناصورات ذاتها.

ليكن ما يكون.

يداي تدفعان الرق نحو فمي..

هناك قوى كاسحة تسيطر على أطرافي وعلى جسدي..

أنفاسي تضيق..

الطعم في فمي مقرف.. لابد أن طعم الفئران الحية لا يختلف كثيرًا.

أسناني تتحرك بإرادة خاصة وتمزق قطعة جديدة في وحشية..

قطعة خلف قطعة تنزل إلى أحشائي.. وروحي تكاد تزهق.

الرق يقل في الحجم مع مرور الوقت..

الأمر يصبح معتادًا.

قطعة خلف قطعة.

لا داعي للتمييز بين ملمس الجلد وملمس الديدان في فمي.

الأمر فقد شناعته.

أنفاسي عادت لتنتظم.

شعور عارم بالسكينة يغمرني.

الأمر لم يعد مقززًا تمامًا.. فقد بدأت أتقبله.. بل وأستمتع..

اللحظة التي شعرت فيها بالتبدل، كانت هي اللحظة الأكثر متعة في حياتي..

لقد صرت أنا الرق.

أنا التعويذة..

أنا القوة الوحيدة في الكون القادرة على التحكم في تلك الكائنات..

أنا ملك هذا العالم..

فكرة تقفز إلى عقلي..

احترس من الغرور.. لقد كان لعنتك..

ولكني لا أبالي.

أطرد كل الأفكار من عقلي.. لتسيطر عليّ فكرة جديدة..

من ذلك الأحمق الذي يمكن أن يضحي بقوة مماثلة..

ثيابي تحدني فأنزعها تمامًا..

أنظر لصدري فأرى النقوش هناك...

من يريد الرق مجددًا فعليه أن يقتلني..

أنا الملك..

****

- قبل شروق الشمس -

لم تكن معركة عادية بأي حال من الأحوال.

إن معارك الجن مروعة ويقال في الأثر عندما أغرق الجن الدنيا بالدماء وأفسدوا فيها أرسل الله لهم جندًا من ملائكته فلاحقوهم عبر اليابسة إلى جزائر البحور وأطراف الجبال، فوحشيتهم لا مثيل لها. ولنشاهد المعركة الحالية يجب أن نأخذ نظرة عين الطائر كي لا يفوتنا من الأحداث أي جزء.

نائلة ومساعدوها من مردة الجن يقفون في مواجهة الكائن الشيطاني، وكل منهم يحمل شوكة ثلاثية مشتعلة ومن عينيه ينطلق الشرر ومن أنفه يتصاعد البخار، والمخلوق الشيطاني الذي يتجسد أمامهم في هيئة التيس العملاق يقف وحوافره تثير الرمال من حوله.

عندما بدأ الهجوم وانطلقت نائلة بصحبة المردة، كان الغضب يعميها تمامًا، فاندفعت لتهاجم المخلوق الشيطاني بمخالبها الحادة في عنف شديد، وقابلها المخلوق بركلة عاتية من حوافر التيس التي تضخمت ألقتها عدة أمتار للخلف وجعلتها تئن وتتوجع وتطلق في النهاية صرخة غاضبة.

ما حدث في اللحظات التالية كان شيئًا مروعًا لم تتخيله نائلة في أسوأ كوابيسها..

انطلق المخلوق الشيطاني كالبرق نحو المردة الخمسة المهاجمين ليعكس الصورة تمامًا، فتلتهم أسنانه الحادة عنق أولهم سالبة إياه حياته الممتدة،

وليطيح بذراع الثاني بضربة هائلة من حافريه الأماميين، ويحطم صدر الثالث بقرونه.. قبل أن تخترق جانبه الكثيف الشعر تلك الحربة المطلسمة المشتعلة المشرعة في يد رابعهم، لتوقف هجومه الكاسح ولتجعل غضبه يتفاقم أكثر..

الحربة المطلسمة أصابته بصاعقة مفاجئة من الألم كادت أن تفقده توازنه، مفعولها القوي جعلته ينهب الرمال متقهقرًا للخلف، والألم يعصف به ليعيد تقييم الموقف.

وعندما رأت نائلة تراجعه لمعت عيناها في جذل وقررت ألا تمنحه فرصة ليلتقط أنفاسه.

وبكل ما بداخلها من حقد صرخت، وهي تلتصق بالأرض لتستمد منها قوة جديدة.

لقد قررت أن تستغل آخر ما في جعبتها من حيل سحرية..

التصقت قدماها المشعرة بالرمال وكأنها التحمت بها..

رددت كلمات سحرية ذات وقع عنيف..

ارتجفت الرمال التي أمامها.. وكأنها لا تريد أن تستسلم لتلك القوة الجديدة.. وفي النهاية تحركت.. لتتحول لعاصفة رملية مركزة..

انطلقت العاصفة الرملية قمعية الشكل كالإعصار لتهاجم المخلوق الشيطاني، وتصيبه في جسده المثخن بالجراح، بمئات القذائف الدقيقة المؤلمة.. وتكاد تطيح بعينيه..

في نفس اللحظة التي هاجم فيها مردة الجن الثلاثة الموجودون على قيد الحياة المخلوق الشيطاني.. بكل ما يعتمل في صدورهم من غضب..

ولكن المخلوق الشيطاني لم يكن صيدًا سهلاً أو هينًا.

ففي اللحظة التي حاصره الجميع فيها.. قفز قفزة هائلة تجاوزت العشرة أمتار متجاوزًا العاصفة الرملية القاتلة التي صنعتها نائلة، وعندما لامست قدماه الرمال مجددًا قفز قفزة أخرى مماثلة مبتعدًا عن حراب مردة الجن الآخرين.. ثم استدار متأهبًا ليواجههم في نفس اللحظة التي لمح فيها بطرف عينيه حافة القمر وهي تبدأ في الظهور من خلف السحب ليجتاح جسده المثخن بالجراح رعدة عنيفة..

اللعنة على ذلك القرص المضيء.. إن الوقت يتسلل من بين يديه.. لو اكتمل ظهور القمر لفقد معظم قوته وربما حياته أيضًا.. فلا بديل أمامه عن القتال حتى يصل الدعم.

تراجع لمسافة كبيرة بطريقة مفاجئة في محاولة لكسب بعض الوقت وخلفه نائلة والمردة الثلاثة الغاضبون.. في مطاردة مخيفة ارتجفت لها قلوب مخلوقات الصحراء.

وعلى حين غرة استدار المخلوق الشيطاني وبدأ هجومه الكاسح من جديد. فاستطاع بحركة مفاجئة أن يلتهم رأس مارد جديد منهيًا حياته وخطورته، وهمّ بمهاجمة نائلة في نفس اللحظة التي ظهر فيها جزء جديد من القمر من خلف السحب ليصاب بضعف مفاجئ جعله لا يكمل الهجوم.. فاستغلت نائلة الفرصة وانقضت على قائميه الخلفيين تنشب فيهما أنيابها الحادة، وليطعنه الماردان الباقيان بالحراب التي اشتعلت بنيران هائلة متوهجة.

صرخ الكائن الشيطاني وحاول أن يتقهقر.. ولكن نائلة كانت ملتصقة بقائمتيه في قوة.. وكأنها متمسكة بآخر نسائم الحياة..

الماردان الآخران انهمكا في تمزيق جسده بالحراب في غل حقيقي..

القمر يظهر كاملاً من خلف السحب.. ليسلبه ما تبقى من قواه.. فيشعر بقوته تفتر.. ونهايته تقترب..

إن الألم شنيع..

حاول أن يقتنص عنق أحد المردة، ولكن الحراب المشتعلة منعته..

المخلوقات الأخرى التي في كهف الأمنيات غاضبة هائجة تطالبه بالصمود، والتركيز فهو أملهم الأخير.

قائماه الخلفيان يتحطمان..

يطلق خوارًا متألمًا..

إن نائلة تقاتل في عنف.. وترد كراهية خمسين عامًا من الألم للمخلوق.

المارد الذي بتر ذراعه يحاول أن يحطم القائمين الآخرين، والمارد الأخير يهاجم عينيه.

مخلوقات الكهف تتواصل معه.. تمنحه دعمًا عقليًا.

إنه لم ينتهِ.. ولن يستسلم.

يستجمع قوته المنهارة.. يركل نائلة في قوة وعنف بقائميه المحطمان ليجتاحه ألم عنيف ولكنه يتحرر..

تندفع نائلة إلى الخلف لمسافة قصيرة ثم تسقط على ظهرها من المفاجأة، ثم تهب نافضة الرمال عن جسدها والغضب يأكل في روحها، فتنقض على المخلوق الشيطاني وهي تردد تعويذة جديدة بكلمات ذات وقع رهيب..

حالتها لم تكن تختلف عن حالة المخلوق الشيطاني.. فجسدها مثخن بالجراح من آثار ضربات حوافر المخلوق الشيطاني.. وجروحها تنزف سائلاً خفيف القوام يميل للون الأزرق الداكن.

قبضتا نائلة مشتعلتان بالنيران..

إنها تشعر بضعفه..

وربما كانت هذه هي فرصتها الأخيرة.. الآن ستتمكن من إحراقه والتحرر.. وعندما همت بإطلاق كرتي النيران من يديها.. سمعت العواء.. فارتجفت يداها لتصيب الكرتان الناريتان الرمال بين قدميّ المخلوق..

لقد تأخرت كثيرًا.. واستطاع المخلوق الشيطاني استخدام إحدى قدراته المتفوقة.

فعن طريق قدرة ذلك المخلوق الشيطاني على السيطرة على حيوانات عالمنا.. استدعى من على بعد كيلومتر كامل قطيعًا مفترسًا من الذئاب..

أكثر المخلوقات إثارة لرعب الجن على وجه هذا الكوكب.

فالذئاب يرونهم ولا يمنعهم مانع عنهم، كما أنهم يلتهمونهم في كل حالاتهم، سواءً أكان الجن في هيئته الطبيعية أو متجسدًا في شكل حيوان أو بشر، فللذئب خاصيتان رهيبتان :

الأولى: أنه إذا وقعت عينه على جني فإن الذئب لا يحوّل عنه بصره بل يثبت نظره عليه بشكل تام، حتى ولو فصل بينهما واد أو شجرة أو عازل، فالذئب يدور من حوله فلا يجعل هذا الجني الذي رصده يغيب عن بصره لحظة واحدة.

والسر في ذلك أن الأرواح الجنية يقيدها النظر.. فلا تستطيع الانصراف ما دام النظر متعلقًا بها.. ويعرف ذلك من اشتغل بالسحر والتحضير وتجسد

له الجن، والجن الخبيث كي يهرب من هذا الشرك يهيئ للساحر صورة وهمية بأنه يتحرك من مكانه إلى جهة من الغرفة.. فإذا تبع الصورة بنظره اختفى وانصرف.. والساحر القدير بمجرد اكتشافه للخدعة يثبت نظره على المكان الذي خرج منه الجني وسرعان ما تتلاشى الصورة الوهمية ويظهر من جديد في نفس المحل.. . فالنظر يقيدهم..

ثانيًا : بالنسبة للجن والأرواح المماثلة هناك خاصية في موطئ قدمها على الأرض.. هذه الخاصية تمثل وسيلة محكمة لإيقافهم، فوضع القدم مكان موضع قدمه على أثر خطوته.. يجعل الجني يتسمر في مكانه ولا يتحرك.. والذئب يدرك ذلك جيدًا ويستغله ضد الجني.. فيسمره في مكانه بإحدى هاتين الطريقتين..ثم ينقض عليه ليلتهمه.

والذئاب التي استدعاها المخلوق الشيطاني لم تكن تختلف عن باقي الذئاب في المعرفة.. بل كانت تتفوق أن هناك من يسيطر عليها ويبثها كل حقده وكراهيته ووحشيته.. فلم تنتظر الذئاب لحظة واحدة..ولم تقم بطقوسها المعتادة لقياس قدرة عدوها قبل الهجوم.. فعلى الفور هجم قطيع الذئاب بكل وحشية على نائلة والماردين الآخرين اللذين حاولا الهرب كعاصفة هوجاء لم تبقِ ولم تذر.

وفي لحظات قليلة شق الظلام صوت عزيف الجن المتألم والذئاب تمزق أعضاءه وتلتهمه.

القطيع انطلق كإعصار وحشي عاتٍ ليؤد آمال نائلة ومساعديها، بل والتهم بقايا الجثث الأخرى المتناثرة على الرمال.. والمتخلفة عن معركتهم مع المخلوق الشيطاني..

وبصعوبة فائقة وقف المخلوق الشيطاني على قوائمه المحطمة وهو يذرف من عينيه سائلاً داكنًا يشبه الدموع إلى حد كبير، واستخدم كل ما في جسده من قوة ليكمل رحلته.. وخلفه قطيع كامل من الذئاب المتأهبة وعيونهم تشتعل بالغضب والوحشية.

****

الآن أنا خارج الكهف..

أقف وسط البرد والظلام، ولا أشعر إلا بتلك القوة الأسطورية التي تسري في عروقي وتموج بكياني..

التاريخ كله لم يرصد حالة مماثلة لحالتي.. إنني التعويذة الوحيدة الحية عبر القرون..

أنا من أملك القوة التي حلم بها كل البشر عبر التاريخ..

أعرف الآن جيدًا.. أن الصوت الذي حدثني بأعماق الكهف لم يكن صوت المخلوق الغريب، ولم تكن لنائلة يد فيه..

لقد كان اتصالاً فائقًا مع تلك المخلوقات الشيطانية الموجودة بأعماق الكهف.. اتصالاً عقليًا بذلت فيه تلك المخلوقات الشيطانية جهدًا لا مثيل له حتى أتموه..

لقد قرءوا عقلي..

عرفوا نقطة ضعفي..

إنني بشري وقد جبلت على الغرور..

بشري يحلم بأن يمتلك كل شيء.. وأنا لم أنكر هذا..

أنا أريد كل شيء..

لقد وعدوني أن أكون الملك.. السيد على كل البشر.. بل سأكون سيدهم..

وعدوني بأن يمنحوني سر الخلود وكل كنوز الأرض.

وفي لحظة واحدة انتقلت إلى المعسكر الآخر..

المعسكر الأقوى..

الآن أنا أمتلك قوة رهيبة وأعرف كيف أحررهم.. وكيف أسيطر عليهم ليكونوا أول الخدم في العالم الجديد الذي سأصير ملكه.

– أحمق.

دوى الصوت في عقلي كسوط لاهب.

استدرت لأواجه صاحب الصوت لأفنيه ولكني لم أجد إلا الفراغ..

صرخت بصوت غاضب لاهث :

– من أنت أيها الحقير لتدعوني بالأحمق.

الصوت يدوي في عقلي من جديد

– أنا الغريب.. أنا من وثق فيك وخذلته.

أصرخ بعنف :

– أغرب عني.. إن دورك سيأتي قريبًا..

ترد الصوت بعنف بداخل عقلي :

– أفق أيها المجنون.. أفق لا تجعل غرور القوة يعمي عينيك.. إنك تضحي بعالمك بالكامل من أجل رغبة دونية.. استيقظ.. استيقظ.

لم ألتفت له.. كنت أنتظر قدوم مساعدي الأول وأنتظر شروق الشمس الذي اقترب كثيرًا..

لقد انتهت نائلة.. أعرف هذا الآن..

لم يتبقَ إلا هذا الغريب وتصبح الأرض ملكي..

فقط عليّ الانتظار.

*****

كان عليهم الآن خرق القانون الأعظم.. إن البشر جنس لا يعتمد عليه حتى لإنقاذ نفسه.. لقد فشلت محاولتهم الأولى وعليهم الآن العبور..

هم يعرفون جيدًا أن وكالة ناسا ستستطيع بأجهزتها المتطورة رصد عبورهم فالطاقة الناجمة عنه ستصيب أجهزة رصدهم بالجنون.. ولكن لا وقت الآن للحذر أو لإخفاء آثارهم. كل شيء يمكن معالجته وتداركه بعد إنهاء هذه الأزمة.

الآن يجتمعون في قلب الساحة العظمى بعالمهم مكونين حلقة هائلة تضم الآلاف منهم بأجسادهم النورانية المتألقة.. وبمنتصف الحلقة وقف عشرة منهم بأجسادهم الضوئية التي اكتست بضوء بنفسجي مريح.

الآن عليهم جميعًا الاتحاد وتركيز طاقتهم لنقل هؤلاء العشرة إلى النقطة المحايدة التي منها سيسلكون طريقها بالانطلاق صوب بلاد المغرب..

الجمع تتلامس أطرافه المتألقة..

ضوء هائل ينجم عن الاتصال العقلي الفائق.

ترنيمة واهنة تبدأ من مكان ما.. ثم تشتد..

الدائرة الهائلة التي تمتد لكيلومترين كاملين تتحول لقوس ضوئي هائل يدور في قوة حتى يتركز فوق رؤوس المخلوقات العشرة المحاطة بالضوء البنفسجي..

الترنيمة تصبح لحنًا سماويًا عذبًا.

فجوة متألقة تُفتح أمامهم.. عمود من نور ينطلق عبرها ليسحب المخلوقات العشرة في تتابع دقيق..

الانتقال يتم بهدوء شديد..

انتقال كان يتم قبل عشرات السنين بالأجهزة المتطورة ومركبات الأبعاد.

الآن هم في ذلك المكان الذي تسبح فيه المخلوقات الجيلاتينية والتي تعمل على حفظ توازن الانتقال..

إن هذه المخلوقات آلات أخرى من نوع خاص.. صنعوها من أجل أن تساعدهم في تحديد الأماكن المختارة بدقة.. وليرصدوا أي متغيرات في مدارات الانتقال.

الآن هم ينتقلون بسهولة عبر فضاء المكان.. يشكلون حلقة واحدة يصيرون خيط متوهج من الضياء.. ينطلقون في قوة.. يصلون للنقطة المختارة..

لقد عبروا أخيرًا إلى دنيا البشر.. أشد مخلوقات الكون حماقة وغرورًا.

الآن عليهم أن يتصدوا للمخلوق الحر أولاً.. فلم يتبقَ على الشروق إلا دقائق معدودة.. ثم يهتمون بمخلوقات الكهف.

إنهم يقطعون الصحراء كشهب بيضاء متألقة ويصنعون خلفهم عاصفة رملية هائلة..

يقابلون في منتصف المسافة كتيبة كاملة من مردة الجن والتي تستعد لخوض المعركة ضد المخلوقات الشيطانية والمتحول البشري.

الجميع يتهيأ لدرء الخطر عن عالمه ولكن الوقت عامل مهم جدًا..

يجب أن يتم كل شيء قبل الشروق..

- معركة -

عندما رصدت أجهزة ناسا ذلك التدفق الهائل للطاقة لم يستطيعوا تفسير الأمر.. عجزت عقول علمائهم وعقولهم الإلكترونية عن سبر حقيقة ما تم رصده..

أما في روسيا وفي قسم خاص تابع للمخابرات رصدت مجموعة من ثلاث فتيات توائم اختراقات على مستوى عقلي فائق.. فتيات مدربات يعرفن جيدًا حقيقة ما يحدث.. ولكنهن لسبب ما لم يخبرن ضابط الاتصال بما توصلن إليه.. ولا الخطر الذي يواجهه كوكب الأرض.

فقط في التبت رصد الرهبان تلك التغيرات الهائلة على المستويين المادي والعقلي وأدركوا طبيعة الخطر وقروا أن الوقت قد حان ليتحركوا.

الفكرة التي كانت تدور في عقول كثيرة على مستوى العالم، أن كوكب الأرض يواجه محنة هائلة لم يتعرض لها منذ طوفان نوح عليه السلام.. إن البشر خطر كافٍ على الكوكب.. فما بالكم عندما يأتي الخطر عبر الأبعاد مهددًا مملكتي الجن والإنس وممالك الأبعاد الأخرى.. إنها اللحظة التي يجب أن يتحرك فيها الجميع لدرء الخطر.. ولكن هل يكفي الوقت ؟!

لم يتبقَ على شروق الشمس إلا دقائق معدودة والمخلوق الشيطاني يقطع الطريق الساحلي الآن في رحلته صوب جبال المغرب، وحيث تقع قمة جبل توبيقال وكهف الأمنيات المظلمة.

في نفس التوقيت الذي انطلقت فيه المخلوقات الغريبة لتحاصر قمة الجبل صانعة ما يشبه درعًا ضوئيًا هائلاً متألقًا.. تم رصده عن طريق الأقمار الصناعية مما حث قوات الشرطة المغربية على التحرك بعد أن جاءها أمر صارم من أعلى المستويات.

سحرة المغرب الحقيقيين الذين لا يتعدون أصابع اليد الواحدة اجتمعوا معًا في سابقة هي الأولى من نوعها.. خاصة بعد أن أحاطوا علمًا بما يدور في كواليس عالمهم المظلم.. وعلى الفور قرروا أن الوقت قد حان لتدخلهم حفاظًا على مكتسباتهم من هذا العالم.

أما أنا فقد كنت أمارس نشاطًا آخر ساحرًا..

التعويذة التي امتزجت بلحمي ودمي منحتني قدرات خاصة مذهلة، كان أروعها هي القدرة على قهر الجاذبية.. صحيح أنني لا أستطيع الطيران لأكثر من عدة أمتار لكن الشعور كان رائعًا.. فلأقطع الوقت المتبقي في ممارسة هذه الرياضة المذهلة.. إنني أطير حقًا بلا أجنحة..

حاولت أن أغادر قمة الجبل ولكني شعرت بحاجز خفي يمنعني من مغادرة المكان.. ولأني كنت في قمة نشوتي فإنني تجاهلت الأمر تمامًا وعدت أسبح في فضاء المكان كطائر خرافي، وبداخل رأسي كان هناك تواصل فائق يتم..

المخلوق الشيطاني مصاب بشدة، يتألم ويعاني ويكاد يسقط منهارًا فأحثه على مواصلة رحلته..

إنه يطالبني أن أتحرك، أن أستخدم قدراتي الهائلة في كسر الحاجز الذي سيمنعه من الوصول لقمة الجبل عند وصوله.

أنا أرغب في مساعدته ولكني لا أعرف كيف. إن الحاجز منيع جدًا.. وبداخلي تتقاتل آلاف المشاعر..

صراع مخيف يدور بداخل عقلي وكأن هناك قوتين تحاولان الاستحواذ عليه.

المخلوقات الشيطانية تطالبني بالعودة إلى الكهف لأحررها كي يمنحوني سر الخلود.. ولكني لا أرغب حقًا..

خوف مريع يتسرب إلى داخل كياني.. ظلام هائل يطوق روحي.. لا لن أطيعهم..

أنا من يحتاج للمساعدة.

سأنتظر فلم يتبقَ على شروق الشمس إلا لحظات.

****

أخيرًا وصل المخلوق الشيطاني إلى المغرب.. لم يعد متبقيًا إلا مسافة قليلة ليقطعها..

خيط النهار الأبيض الأول يمزق عتمة الليل.. مرسلاً شعاع الشمس الخجول ليخترق جسد التيس المصاب، والذي يمنع المخلوق الشيطاني من الانطلاق واستخدام كامل قوته..

شعاع الشمس يخترق جلد التيس بطريقة عجيبة ومدهشة وعندما يلامس خلايا المخلوق.. يحدث تفاعل هائل.. مؤلم.. فكل طاقة الشعاع تتسرب إلى خلايا المخلوق الشيطاني المحاصرة في غلاف الدم واللحم لتمنحها قوة لا مثيل لها..

المخلوق الشيطاني يشعر بقوة هائلة لم يختبرها من قبل..

وقبل أن يتمكن من استيعابها..

يضرب شعاع الشمس التالي خلاياه في قوة..

يصرخ بقوة.. خواره يخترق أجواز الفضاء ليمنح لمخلوقات الكهف الأمل الذي طال انتظارهم له..

نشوة هائلة تغمره..

قرص الشمس يسطع بكامل قوته..

إنه الآن يتحرر..

يغادر جسد التيس الذي تيبس جلده وفقد الحياة وتحول لكومه هشة من التراب بعثرتها الرياح.

الشمس تواصل عطاءها للمخلوق.. فتشفي جراحه وتضاعف قواه عشرات المرات..

إنه الآن يمتلك القوة، وقادر على كل شيء.. لذا فإنه انطلق كشهاب حارق ليقطع مئات الكيلومترات في لحظات قليلة.. وعندما وصل إلى سفح الجبل توقف للحظات.. فقد تضاعفت قدرات حواسه. فأنفه تشم رائحة الخطر القريب.

دار حول نفسه في سرعة ليرصد مكامن الخطر، وبسمعه الخارق سمع الأصوات الهامسة.. وعرف اللغة على الفور.. وحدد عدوه.

المئات من قبائل الجن المختلفة التي تغص بها التلال الصخرية احتشدوا لقتاله..

كان يتوقع خطرًا أكبر.

تواصل مع قطيع الذئاب الذي صاحبه في رحلته.. .وبقوة لم يكن يدرك أنه يملكها.. استحضر القطيع بالكامل إلى حيث يقف.

نظر للعيون الوحشية اللامعة التي لا يضيع بريقها حتى بعد موت الذئب وأطلق خوارًا مزلزلاً تردد صداه في الأجواء.

إنه منتشي بالقوة.. لا يوجد شيء يمكن أن يخيفه.. والشمس في كبد السماء ساطعة تمنحه المزيد والمزيد من القوة والقدرات.

تشمم الهواء فرصد عدوًا آخر ولكنه أقل قوة.. فتجاهل الأمر وسلط تفكيره على قبائل الجن.. إنه بكامل عنفوانه سيخوض هذه الحرب المتكافئة قبل أن يتفرغ لتحرير رفاقه..

****

المنطقة حول قمة توبيقال استحالت خانقة.. مزدحمة.. تغص بالقلوب النابضة.. والعقول الواجفة.. والأصوات المخيفة.. فالآلاف من المخلوقات الغاضبة يغص بهم كل شبر من الأرض.. الجميع يدافع عن كوكب الأرض ليحمي أرضه الخاصة وبُعده الخاص..

فنهاية أرض البشر تعني فناء باقي الأبعاد..

الجنس الدموي الذي يمتاز بالحماقة والغرور، هو الذي يتحكم من عالمه في مصائر عوالمهم.. فلديه السلاح القاهر الذي نتج عن شطر الذرة، والعوالم السبعة لن تصمد أمام سلاح كهذا سيحدث اختلالاً هائلاً في ذبذباتها وستفنيها بمخلوقاتها..

الكل اجتمع على قلب رجل واحد لدرء الخطر.

كتائب من قبائل الجن تحتشد وتتحد للمرة الأولى عبر مئات القرون.

الشخص الغريب ومخلوقات عالمه بدلوا خطتهم وقرروا أن يحموا الكهف نفسه، لن يخترق أحد الجبل إلا بعد فنائهم..

أما أنا فكنت كطفل غرير يمارس دورًا رهيبًا لا يستوعب أبعاده بعقلية طفولية بحته..

إنني قوي.. وعلى الجميع أن يخضع لي..

إنني خائف ولن أخضع لأي طرف..

الأمور كانت متوترة وكنت أنا مغرقًا في ذاتيتي، لابد وأن لعنة نائلة/سماح لم تنتهِ..

إنني أمارس حماقتي بإصرار سيزيفي مخيف..

لم تعد الثلوج تحيط بقمة الجبل لقد انصهرت وتبخرت المياه المتخلفة عنها لسبب مجهول.. الحيوانات ومخلوقات الجبل غادرت المنطقة بغير رجعة.. حاستها الفطرية أنبأتها بخطورة الموقف.

وفي لحظة ما شعرت بأن الصراع الهائل الدائر بداخلي بين تلك القوتين قد انتهى.. وشعرت بكم هائل من المشاعر السلبية تجتاح كياني، ففقدت اهتمامي بكل شيء حتى الطيران وشعرت بعقلي يعود ملكًا لي.

لقد كنت واقعًا تحت سيطرة استحواذ شيطاني هائل أفقدني رشدي ومنطقي وحكمتي.. لابد أن المخلوق الغريب قد حررني بوسيلة ما من سيطرتهم.. ولابد أنه هو من وضع الحاجز غير المرئي..

الآن أنا أرى بعيني مقدار الهول المحيط بي والكارثة التي أصابتني..

معلومات هائلة تتدفق بداخل عقلي..

إنني على اتصال بكل الكائنات المتواجدة في محيط الجبل..

الجميع يطلب مني أن أبثهم الأمل..

ولكني أشعر بالضياع.. أنا من أحتاج للمساعدة..

وعندما تجسد الشخص الغريب أمامي، عرفت أن المعركة قد بدأت وأن النهاية قريبة..

وعندما امتزج عقلانا ارتجف جسدي عشرات المرات..

إن الأمر خطير حقًا.

****

تمدد المخلوق الشيطاني حتى غطى مساحه هائلة من الأرض وكإعصار عاتٍ بدأ في اجتياح قبائل الجن المجتمعة..

لم يبالِ بحرابهم أو أعاصيرهم أو لعناتهم التي صبوها على رأسه..

اقتحم جمعهم وعاث فيهم قتلاً وتمزيقًا..

ومع كل جني يسقط كان يشعر بالمزيد من النشوة والزهو.

إنه يفوق الجميع قوة..

وخلال دقائق كان قد قام بمذبحة هائلة..

ما يفوق الألف من مردة الجن قد تمزقوا وفقدوا حياتهم..

لقد تحول إلى شيطان حقيقي..

إنه يحارب في جميع المستويات والذبذبات..

قدرته تقهر الجن في عالمهم، أو في تجسداتهم التي لا تنتهي..

قبائل الجن تقاتل ويبدو أن أعدادهم لا نهائية.. لقد قرروا إنهاء الخطر مهما كان الثمن..

الدمار هائل والصخور تتناثر في كل مكان..

رجال الشرطة المدعومين من الجيش سحقهم انهيار صخري هائل فور اقترابهم من أرض المعركة. ومن فرّ منهم التهمه قطيع الذئاب في وحشية غير مسبوقة..

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فالسحرة الذين اجتمعوا للدفاع عن مملكتهم السحرية، احترقوا بنيران زرقاء مخيفة فحمت جثثهم.. قبل أن تحولهم لرماد تناثر في سماء المعركة..

إنها حرب إبادة وحشية تتم على كافة المستويات.. فقط رهبان التبت هم من صمدوا أمام الهجوم العقلي الكاسح للمخلوق.. صمدوا ولكن ليس لوقت طويل.

قلق رهيب أصاب المخلوقات الغريبة من نتائج المعركة.. المخلوق الشيطاني يزداد قوة مع مرور الوقت ويبدو أن هناك تطورًا كبيرًا في قدراته يحدث.. إن مفعول الشمس عليه يختلف وبشدة عن تأثيرها القديم. هناك طفرة حدثت للمخلوق.. لابد وأن هناك تطورًا كونيًا قد حدث في مكان لم يتم رصده منح للمخلوق صفات جديدة وقدرات غير مسبوقة.. والمخيف أن هذا التأثير لابد وأنه سيشمل مخلوقات الكهف الغاضبة.

تواصل الشخص الغريب مع رفاقه وتدارسوا الأمر في عجالة.. وفي وقت وجيز وضعوا خطتهم.

تقاربوا..

تلامسوا..

تهامسوا..

امتزج كيانهم فصاروا ككائن واحد..

ثم أطلقوا استغاثة عقلية هائلة، اجتاحت كوكب الأرض من أقصاه إلى أقصاه، ووصلت لكل من يمتلك قوى خارقة على كوكب الأرض..

إنهم في حاجة إلى المساعدة.. وهناك بين البشر مجموعة مميزة سمت بروحها فوق قيود الجسد والنفس وامتلكت قوى مختلفة.. إنهم الآن يعملون على التواصل مع الجميع من أجل إيقاف هذا الشر القادم من بُعد الظلام المخيف.. ونتائج المعركة لا توحي بخير..

فقبائل الجن تندحر طوال الوقت والمخلوق يزداد قوة في كل لحظة.. والمخلوقات الغريبة تقاتل سيطرته العقلية المخيفة..

وعندما أوشكت القلوب على اليأس بدأ التغير يحدث، وعبر أقطار الأرض بدأ اتحاد عقلي هائل.. قاده رهبان التبت..

مئات من البؤر العقلية تتشكل.. عبر الجبال والوديان..

كل مجموعة تقوم بتكوين خلية عقلية منفصلة لتشتيت الخصم..

إنهم يحاولون إنهاكه قبل الانقضاض عليه.. فهم يعلمون أن القضاء على المخلوق لن يتم ببساطة أو بسهولة وأن الثمن سيكون فادحًا.. خاصة وهو يستمد تلك القوة المروعة من الشمس طوال الوقت..

تواصلت العقول.. نبضت.. بثت أفكارها.. ثم توحدوا.

لابد في البداية من حرمان المخلوق من مصدر قوته قبل الإجهاز عليه عن طريقي.. فبعد تحولي صرت أنا السلاح.. أنا التعويذة الحية..

إنهم سيقلبون السحر على الساحر..

لن تصدق المخلوقات ما ارتكبته في حق نفسها، بتنفيذ فكرة تحويلي الحمقاء.. فبدلاً من أن أكون طوق النجاة.. صرت الخطر الأكبر.

وعلى الفور بدأت مئات الآلاف من العقول في التفكير محاولة منهم للوصول لطريقة سريعة للتنفيذ..

وعلى الفور تبلورت الفكرة..

قام الجن بقدراتهم الخارقة بإشعال نار هائلة مخيفة أطلقت أدخنة وعوادم تكفي لتعتيم نصف العالم..

وعن طريق المخلوقات الغريبة تم إذكاؤها وجعلها تشكل مجموعة هائلة من السحب أخذت في تغطية السماء وإعتامها.. لتصير كمظلة هائلة سوداء عملت على حجب الشمس وتأثيرها.

إنهم يتقدمون بخطوات ملموسة..

شعر المخلوق بما يحدث فكثف هجومه على مردة الجن متوقعًا أن يُفسد تعويذتهم ولكن الأمر لم يكن بالبساطة المتوقعة..

فعندما حُجبت الشمس تمامًا فقد الجزء الأعظم من قوته.. وفقد تركيزه للحظات..

وفي اللحظة التالية شعر بقبضة عقلية هائلة تكبله.. إن رهبان التبت لا يمزحون.. ويعرفون حقًا ما يفعلون..

تساقط العشرات منهم صرعى.. ولكنهم قادوا الهجوم في بسالة غير معهودة..

ومن قلب الجبل استخرجت المخلوقات الغريبة سلاحًا قديمًا دُفن في قلب الجبل وقاموا بتذخيره..

إنهم لن يسمحوا للمخلوق ومخلوقات الكهف بالانتصار.. حتى ولو فني معهم نصف البشر .

رهبان التبت يقودون هجومًا كاسحًا، والمخلوقات الغريبة تكافح كي تصد الهجوم اليائس الذي يقوم به المخلوق.. بعد أن فقد السواد الأعظم من قوته وقطيع الذئاب..

معركة كونية مروعة.. لو لم أكن بقلبها لما صدقت حدوثها..

تواصلت مع المخلوق الغريب أستحثه على طلب المساعدة من مخلوقات باقي الأبعاد.. وكان رده الغاضب صادمًا..

لم أكن أعرف أن شرور البشر تنتقل أيضًا عبر الأبعاد وأن البشر يوزعون كراهيتهم على مخلوقات الكون دون أن يدرون، وأن مخلوقات الأبعاد الأخرى تتمنى فناءنا.. وأن مخلوقات باقي الأبعاد.. تبدو هذه المخلوقات الوحشية بجوارها كالنسائم أمام غضب العاصفة..

المعركة كانت على أشدها..

الصرخات لا تنقطع والأشلاء في كل مكان.. والمخلوق الشيطاني برغم احتجاب الشمس يقاتل بشراسة وعنف..

اتصال عقلي فائق من مخلوقات الكهف في محاولة للسيطرة عليّ.. لا.. لا، لن تستطيعوا السيطرة عليّ مجددًا.. أنا لست بالضعف الذي تتوهموه.. أتريدونني في الكهف.. حسنًا إنني قادم..

استدرت متوجهًا إلى أعماق الكهف، وخلفي تدور رحى معركة تبدو وكأنها ستستمر إلى الأبد..فقد تكالبت قبائل الجن على المخلوق الشيطاني وتخلت المخلوقات الغريبة عن قمة الجبل وألقوا بأنفسهم في أتونها..المخلوق الشيطاني مصاب إصابات فادحة ولكن لا يبدو أنها ستوقفه أو ستمنعه من إتمام مايريد..

آلاف الأضواء تسطع في عتمة الليل، وانفجارات هائلة أخذت تهز الجبل في عنف وكأنه يتم رجمه بقنابل شديدة التدمير..

المخلوق يتقدم برغم عنف المعركة واحتجاب الشمس..

عبرت إلى الكهف وبداخل عقلي فكرة واحدة..

الموت..

الخاتمة ـ

عندما عبرت إلى الكهف قررت أن أفعّل التعويذة، التعويذة الممتزجة بلحمي ودمي..

لم أكن أعرف كيف، ولكني كنت متأكدًا من قدرتي على تفعيلها..

اخترقت الكهف هابطًا في خفة فراشة.. قدرتي على الطيران ساعدتني على قطع المسافة في وقت قياسي..

عبرت صوب الغرفة ذات الجدران الزجاجية وهناك عثرت على بغيتي..

الخنجر المطلسم..

طعنت ذراعي بالخنجر فسال دمي حتى أغرق النصل.

****

الدم هو الذي يربط هذه العوالم ببعضها .

***

ثم تقدمت لأعماق الكهف أكثر.. الأعماق التي لم أرها من قبل..

****

إن دماء الشيخ ياسين تسري في عروقك.. لقد انتقل العهد إليك

****

فتحة هائلة في ظلام الكهف عبرتها فشاهدت الجحيم مجددًا .

****

من قتل المخلوق الأول قادر على قتل المزيد.

****

المخلوقات المروعة تقبع بداخل الفتحة يكبلها سائل مضيء تتماوج بداخله مخلوقات جيلاتينية مشابهة للتي رأيتها أثناء العبور

****

لقد استطاعوا بالعلم والسحر قهر هذه المخلوقات وسجنها

****

أتقدم أكثر..

أقف بقلب القاعة الهائلة التي تحتوي على المخلوقات الشيطانية..

مجرد النظر إليهم يجعل المرء يتمنى لو يفقد بصره..

أتقدم من كبيرهم المكبل وصراع عقلي عاتٍ يجتاح رأسي..

إنهم يحاولون السيطرة عليّ ودفعي للموت..

تلك المخلوقات الشيطانية قامت بتحويل التعويذة إلى كائن حي.. موته يعني انتهاءها ولكني لم أكن أنوي الموت على طريقتهم.. لن أموت إلا حينما يحين أجلي..

كبيرهم ينظر إليّ والنار تستعر في عينيه ولكني أعرف كم هو عاجز.. إن السائل المضيء يكبله.

أتقدم منه ونظرات عينيّ مسلطة عليه وجذعي العاري يتألق بكلمات التعويذة..

إنني منيع ضدهم..

أنا الخطر لا هم..

وبكل قوة رفعت الخنجر ثم أغمدته في قلب كبيرهم..

ثم تفاديت السائل الملتهب بقفزة واسعة..

لقد استوعبت الدرس جيدًا هذه المرة.. لن أفقد إصبعًا آخر.

وبهستريا مخيفة شرعت في إتمام مهمتي.

كم ساعة مضت حتى أجهزت عليهم جميعًا.. لا أعرف حقًا.. ولكن قلب الجبل أخذ في الانصهار..

والذوبان..

توقعت أن ينهار الجبل فوق رأسي ليدفنني بداخله.. ولكن المخلوقات الجيلاتينية كانت قد قامت بعملها في حفظ التوازن فقامت بصنع غشاء هائل احتوى السائل بداخله.. وعندما غادرت الكهف مجددًا كان المخلوق قد وصل إلى هناك وهو يعاني من إصابات لا تحصى.. بعد أن كبّد المهاجمين خسائر فادحة.

توقفت أمامه وجسدي متوتر وعيناي مشتعلتان بالغضب..

وعندما هاجمني كانت هذه هي حركته الأخيرة.. لأن خنجري طار ليشق الهواء ولينغرس بين عينيه..

لينكمش جسده في سرعة رهيبة.. وليطلق صرخات لابد وأنها كانت ستصيبني بالصمم لو كنت في ظروف أخرى..

ثم أخذ الجسد في الانكماشأكبر.. قبل أن ينفجر في قوة.

وقبل أن يصيبني الرذاذ الحارق، وجدت المخلوق الغريب يحيطني بهالة بنفسجية حمتني من الانصهار والموت.

سقطت على ركبتيّ من الإرهاق وقلبي ينبض بقوة.. والتعويذة التي على صدري تمنحني آلامًا هائلة..

وقبل أن أفقد الوعي.. سمعت صرخة انتصار هائلة جابت جنبات الكوكب.. لقد انتصر الخير على الشر وزال الخطر..

وبطرف عيني لمحت المخلوقات الغريبة تعيد السلاح القديم إلى مرقده بعد أن انتهى التهديد وتوقف عده التنازلي.

لم أستطع أن أشعر بسعادة مماثلة لسعادتهم، ففي عقلي أخذ سؤال مخيف يتردد دون انقطاع :

ترى ما هو مصيري الآن مع تلك اللعنة التي تحولت إليها ؟!

وما هو مصير أصدقائي ؟!

بالطبع لم أعرف الإجابة وقتها لأنني فقدت الوعي.

****

عندما استيقظت من غيبوبتي رأيت الشخص الغريب يجلس بجوار الفراش ونفس النظرة الباردة على وجهه.. مسحت المكان بعينيّ متفحصًا متهيبًا.. متوقعًا الأسوأ..

القصر العيني من جديد..

انتابتني بعض الحيرة والقلق، وأنا أشاهد المكان الذي لم يتبدل به شيء منذ غادرته مع المخلوق الغريب..

فحصت جسدي عدة مرات فلم أجد أثرًا لكلمات التعويذة التي رأيتها محفورة على صدري..

ودار السؤال في رأسي عاصفًا..

هل حقًا غادرته من قبل ؟!

هل ما حدث حدث بالفعل ؟!

دوى صوت الشخص الغريب في عقلي ليؤكد ظنوني.. وليتدفق إلى داخله سيل سريع من المعلومات..

على الأقل لم أصب بالجنون بعد، وفقدان إصبع واحد أفضل الخبال، ومن فقداني لحياتي بالكامل..

وللمرة الأولى منذ أسابيع ارتسمت على وجهي ابتسامة حقيقية.. وبكل ما يعتمل بصدري سألته :

– هل انتهى الخطر ؟!

تردد صوته العقلي بداخل رأسي :

– نعم

– وما مصيري ؟!

– ستعود لتمارس حياتك الطبيعية مجددًا.. علومنا المتقدمة استطاعت أن تعيد جسدك لسيرته الأولى.. لقد زالت اللعنة.. ولم تعد التعويذة الحية مجددًا.

صمت قليلاً ثم استطرد :

– ولكنك لن تنسى بالطبع أن لك أصدقاءً في أبعاد أخرى.

هززت رأسي بامتنان، ثم دوت فكرة في عقلي فحولتها لتساؤل سريع :

- وأصدقائي..

- لم ينجُ أحد.. ولكن الأرض نجت.. لقد فتك بهم المخلوق مع بداية المعركة بعد أن قضى على نائلة ومردتها.. لقد تتبع الصلة التي ربطتهم بنائلة.. وأجهز عليهم.. العزاء الوحيد أنهم لم يشعروا بالألم.

هطلت من عيني دمعة حارة ترثيهم، وصور أصدقائي تدور في عقلي وهم بقلب الجحيم.. ثم وأنا أتخيلهم موتى..

وبصوت يقطر حزنًا سألته سؤالاً أخيرًا :

- هل مازال هناك تهديد ؟!

دوى صوته بعقلي واثقًا صارمًا لا يخلو من إيمان :

- لا يعلم الغيب إلا الخالق.

صمت للحظات مؤمنًا على كلامه ودرت بعينيّ صوب النافذة لأشاهد شروق الشمس.. الشمس التي تمنح الموت والحياة..

وبداخلي تصاعد شعور طاغٍ بأن الخالق لن ينسانا أبدًا، وطالما ظل الخطر قائمًا.. فسيكون هناك من يتصدى له.

وعندما عدت ببصري إلى حيث يجلس المخلوق لم أجده هناك.. تلاشى كأنه لم يكن..

ولكني أعرف جيدًا..

أنه برغم حماقة البشر إلا أن هناك.. من سيمنعونهم من التمادي وإيذاء أنفسهم.

تمت بحمد الله

مصادر الرواية

-ويكبيديا الموسوعة الحرة.

-الكوميديا الإلهية لدانتي.

-بعض مقالات الصحف.

-الخطايا السبع المميتة على موقع الفيس بوك وبعض المواقع الأخرى.

صدر للمؤلف

- وبدأ الظلام – رواية
- حديث الموتى – مجموعة قصصية
- فى مملكة الغيلان – رواية
- الملعون – رواية
- نصف حياة – رواية
- الشفق الأسود – رواية

للتواصل مع الكاتب

A_elmenofy@yahoo.com
https://www.facebook.com/a.elmenofy?ref=tn_tnmn



Noon_publishing@yahoo.com

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧